الدراسات والبحوث:

الكتابة والحضارة

د. محمد حرب فرزات

أمين الجندي

رائد الحركة الشعرية

في البلاد الشامية

عبد الفتاح قلعه جي

الكتابة والحضارة

د. محمد حرب فرزات

في هذا العصر الراهن الذي يتميز بالتغيرات السريعة في كل مجالات الحياة وفي ميادين الثقافة ووسائلها ، يطرح بعض الباحثين تساؤلات حول الكتابة في الحضارة المعاصرة وفي حضارة المستقبل .

وفي هذا الزمن الذي يعلن علينا فيه ان عصر الكتابة اوشك على نهايته لتحل محله الاجهزة الآلية والآلات السمعية ـ البصرية ، في هذا القرن العشرين الذي تتراجع فيه حضارة الحرف المكتوب امام تغلب الصورة ، قد يكون من المناسب والمفيد مراجعة دور الكتابة في تاريخ الحضارة الانسانية ، بالعودة الى بعض البدايات والتذكير ببعض التطورات التي آلت بالانسان وثقافته على مدى قرابة خمسة آلاف العام الى ما آل اليه .

لقد قيل في الكتابة عندما اخذت تنتشر مع انتشار التعليم ، انها تحفظ المعارف والعلوم وتسهل تحصيلها وتهيء للاعداد للايام القادمة ، ولكن كان هناك من وقف من الكتابة موقفاً سلبياً ، يشبه في ايامنا موقف المتشككين والمترددين امام وسائل التسجيل والحفظ الآلية الحديثة ، فقيل عنها انها تضعف قوة الذاكرة وتجعل الذهن كسولا .

ولكن ، مهما اختلفت الآراء والأقوال ، **تبقى الكتابة اعظم اختراع في تاريخ الحضارة** . لقد بدأ هذا الاختراع يتطور ومر في كل ادواره على ارض المشرق العربي وفي اطار حضاراته القديمة التي قامت في وادي الرافدين ووادي النيل وعلى شواطيء بلاد الشام . لكن التوصل الى نظم للكتابة جاء بعد مرور زمن طويل ظل فيه الانسان يتحدث ويتبادل الكلام شفهياً دون ان يكون لديه نظام لتسجيل كلامه وافكاره وكتابتها . **ان تطور الكتابة من رسم المعنى والفكرة بصورة ، تنطق بكلمة لها ايضا قيمة صوتية يمكن ان تكون جزءاً من كلمة او كلمات اخرى ، الى كتابة الصوت بحرف ، هو الطريق الطويل الذي قطعته الانسانية في مسيرة الحضارة** ، اي من نظم الكتابة الرمزية ــ المقطعية (في السومرية والمصرية والصينية) الى الابجدية الالفبائية في الكنعانية ــ الآرمية والعربية والافريقية واللاتينية والسلافية .

قد تطرح بعض التساؤلات :

كيف اخترعت الكتابة ؟ هل اخترعت دفعة واحدة ، ثم انتشرت من نقطة مركزية واحدة ؟

ــ هذه اسئلة يمكن ان تطرح في هذا المجال . ويمكن ان يجاب عنها باسهاب ، لكننا سنكتفي هنا باجابة موجزة .

تشير الدراسات المعروفة الى عراقة الكتابة في كل من مصر وبلاد الرافدين والصين . ويعبر واحد من كبار الباحثين في تاريخ الكتابة ،

جان بوتيرو ، عن رأيه الذي يتلخص في ان الكتابة ما ان اخترعت في بلاد سومر حتى انتشرت شرقاً وغرباً . فالمصرية اخذت مبدأ الكتابة عن السومرية . لكن المصرية تطورت بعدئذ حتى اصبحت نظاماً للكتابة قائماً بذاته يتضمن مئات العلامات المصورة التي ترمز الى كلمات قائمة بذاتها او الى مقاطع صوتية ومخصصات للتعريف وهي تشتمل بالوقت نفسه على اربعة وعشرين حرفاً يمكن بها وحدها كتابة كل ما يسمع ، فالمصرية كتابة تصويرية رمزية مقطعية تحتوي على الحروف الابجدية . وقد توقفت عند هذا الحد من التطور لتغلب المحافظة على اية دوافع للتغيير ، ولا يدري احد كيف امكن للكتابة المصرية ان تجمع زماناً طويلاً ما بين هذين النظامين وان تحتفظ بعلامات كثيرة كان من الممكن الاستغناء عنها .

ويرجح أن تكون العيلامية التي عرفت في المناطق الجنوبية الغربية من ايران قد تأثرت بالسومرية ايضاً ، وربما كذلك لغات السند . ولكن يحتمل أن تكون للكتابة الصينية ومنطلقاتها وانتشارها في الشرق الاقصى سيرة اخرى .

اللغة والكتابة : ما العلاقة بين اللغة والكتابة ؟

ان الكلام أو اللغة المحكية اسبق من اللغة المكتوبة . ولا يعرف شيء عن بدايات اللغات ولا يمكن أن يعرف شيء سوى ما هو متداول في تقاليد الشعوب واخبارها ولقد مضت شعوب عديدة وانقرضت ، لكنها لم تترك اثراً مكتوباً يدل على وجودها ، بل تركت وثائق مادية وآثاراً ذات قيمة تعبيرية فنية هذه المرحلة الطويلة من تاريخ الانسان التي لم يعرف فيها الكتابة هي **ما قبل التاريخ او ما قبل الكتابة** .

لكن عندما اراد الانسان أن يعبر عما كان يجول في فكره وان يحتفظ بما كان يمر في خاطره ، كان عليه أن يطور طرقه في التعبير وان يخترع رموزاً مصورة مكتوبة لتسجيل افكاره . **فالكتابة هي طريقة مطورة في التعبير ، وهي تمثل مرحلة راقية من التطور سبقتها مراحل** . فقد كانت

للانسان البدائي رغبات ملحة او ضرورات للتعبير عن علاقاته المتنوعة وللاحتفاظ بمعلومات لازمة لها ، فلجأ عندئذ الى وسائل بارعة تمكن بها من التفاهم مع الآخرين بوساطة رموز مادية مثل العقد او العلاقات او الرسوم . كما كان الحال عند شعوب القارة الامريكية مثل الانكا قبل حركة الاستكشافات الجغرافية الاوروبية . لكن الكتابة هي مرحلة اكثر تطورا وجدت عند الشعوب المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا في مضمار الحضارة والمدنية . **انها باختصار : التعبير الخطي عن اللغات ، عن الكلام المنطوق .**

انه من الصعب تناول بدايات الكلام واللغات ، وهو امر خارج عن حدود هذا الحديث . ولكن قد يكون من الممكن لنا العودة الى بدايات الكتابة في الحضارات القديمة وتتبع مراحلها وادوارها .

قبل تناول هذا الجانب من حديثنا ، ربما يرد على الخاطر تساؤل آخر يتصل بما نحن فيه هل قرأ الانسان قبل ان يكتب ؟

ان الدلائل تشير بالطبع الى ان الكتابة استوعبت اللغة **واحتوتها ونظمتها فالكتابة ، اي اللغة** المكتوبة سبقت اللغة الواضحة البينة والصحيحة .

ولكن **نذكر ايضا ان** الكتابات القديمة الاولى لم تعكس في بداياتها **كلاماً منطوقاً بل كانت تعكس افعالا وحركات ذات معنى وربما شارات** ايمائية .

ان الشكل الذي يرمز الى الشمس في كتب المناخ وفي التقاويم ، ويبدو عادة على صورة دائرة في وسطها دائرة اخرى ، وهو **بالاصل العلامة الهيروغليفية الدالة على اسم الآله رع ، آله الشمس في مصر** القديمة ، يمكن ان يقرأ في اية لغة من لغات العالم بالكلمة الدالة على الشمس ؛ وكذلك اشكال الهلال والصليب وغيرها ومن هذا القبيل شارات السير التي يقرأها كل سائق وعابر بلغته الخاصة . هل يمكن لهذه

الامثلة ان تكون تفسيرا للبدايات الاولى في التعبير المكتوب ، والقراءته على اختلاف السنة الناس ولغاتهم ؟

لقد تطورت الكتابة من بدايات بسيطة الى المرحلة التي يمكن ان تعتبر فيها خطة أو طريقة **تستخدم في وقت ما لتثبيت اللغة المنطوقة الشاردة** ، كان الكتابة وسيلة سحرية بيد الانسان القادر على استخدامها للقبض على الكلام المنطوق وتسجيله للاحتفاظ به ولتداوله وتعليمه(١) . وهكذا فان الشعوب ذات الحضارات التي لها أنظمة للكتابة متطورة . ومقروءة هي الشعوب التي لها تاريخ حقيقي وغني وهي التي يكون تاريخها اكبر جزء من تاريخ الانسانية المادي والفكري . ولا ترقى هذه المرحلة الفاصلة الى ابعد من ٣٥٠٠ ق.م اي قبل الآن بخمسة آلاف وخمسمئة سنة . وقد بقيت الكتابة منذ اختراعها أهم واسطة لحفظ التراث الحضاري والانساني ولتبادل الثقافات ولتلاقي الافكار وتوليدها وافضل وسيلة لنقل المعرفة ونشر العلم ومبادىء التربية بين الناس .

فلو لم تكن اللغات مكتوبة كيف كان يمكن للانسان أن يتعرف على تراثه وماضيه ؟ وبدون هذه الاداة الفذة كيف يمكن لنا ان نتصور العديد من مؤسسات التعليم والثقافة والتربية : المدارس والمعابد والمكتبات والجامعات والصحافة والاعلام والنشر ؟ وربما بدونها ايضا من الصعب علينا تصور تنامي التطور الصناعي ومتابعة نظم المجتمع وادارته ومؤسساته ، كيف كان يمكن ان نعرف في تاريخ الانسان قيما كالحرية والقانون والحق والانصاف والعدل والعقل بدون هذه الاداة العبقرية الى نقل التفكير من نطاق الامكان الى حيز الفعل .

لكن الكتابة ، مع ذلك ، هي أكثر من مجرد اداة أو وسيلة ، فهي بتحويل الكلام الى لغة مسجلة تجعله موثقا ومحدد المعنى والمضمون ، فالكتابة عمل فكري رائع يمثل نتاج العقل ويفترض عملية ربط تؤدي الى نقل التفكير من نطاق الامكان الى حيز الفعل .

ان قوة الكتابة عند الشعوب القديمةجعلت لها مكانة خاصة ترقى الى مرتبة القداسة ، فقد عزا المصريون القدماء الكتابةالى المعبودتموتاو الى

ايزيس واعتقدوا بان المعرفة من صنع رباني . ودعيت الكتابة مقدسة وانتقلت التسمية الى اليونان فاشتهرت الكتابة المصرية القديمة بالهيروغليفية او الهيراطيقية عندما كانت اداة مقدسة بيد الكهان ولم تصبح ديموطيقية شعبية الا بعد تعميمها على نطاق أوسع . اما البابليون فنسبوا الكتابة الى نبو وهو ابن الرب البابلي مردوخ وقد اختلط العلم بالدين في الحضارة الرافدية عامة والبابلية خاصة ، وكان الكهنة يملكون ناصية العلم المقدس ويحفظونه في الواح سجلت عليها المعارف بالنجوم والكهانة وتعاليم الارباب . ونسب اليونانيون الكتابة بدورهم الى هرمس الحكيم بينما اعتقد الصينيون والهنود وغيرهم من الشعوب ان الكتابة من عمل الآلهة .

اما في التراث الحضاري العربي فتبدو الكتابة متصلة بالعلم الآلهي القديم ، فان تسجيل وصايا النبي موسى وشريعته ، وتعاليم المسيح عيسى بن مريم عليهم السلام في أسفار واناجيل ، وجمع كلام الله المنزل على محمد بن عبدالله النبي العربي صلى الله عليه وسلم في كتاب يقرأ ويحفظ لهي منجزات من اعظم ما مر في تاريخ الانسان وفي تاريخ الفكر ؛ ان الكلام المخطوط مهما كان بسيطا ومهما كانت الخطوط التي تمثله بسيطة يعتبر كتابة ، وان الكتابة في أية مرحلة كانت وفي أية درجة من الاتقان تثير في كل لحظة تفكير الانسان الكاتب وتعكس فكره ، وقد يمكن القول بصيغة اخرى انها عدا عن كونها صيغة لتجميد اللغة أو لتثبيتها فانها أي الكتابة ، **تعتبر في النتيجة لغة جديدة عندما تغدو بتدخل الفكر ، صامتة محددة ومضغة ومضخمة .**

وصفوة القول : **ان الكتابة ترتبط باللغة** ، ولكن لكي تكون هناك لغة يجب ان توجد مجموعة من الرموز لها معنى محدد مسبقا في وحدة اجتماعية تستخدمها للتفاهم فيما بينها . ويجب ان يكون بامكان هذه الرموز أن تسجل وان يعبر بها عن الكلام . ان هذه الخطوة في تاريخ الثقافة وفي مسيرة المعرفة الانسانية حدثت في بلاد المشرق العربي القديم . واذا كان الامر كذلك فان كهنة اوروك ونيبور وابلا ومنفيس وماري واوجاريت وجبيل وكتابها ومعلميها كانوا أقدم مفكري ومعلمي الانسانية لانهم بعملهم على محاولة الكشف عن اسرار الكون والوجود وعلاقات الآلهة والارباب وفي تساؤلهم وبحثهم عن اصل الانسان ومصيره ، وبتوصلهم بعد جهد

دؤوب ومنظم الى ايجاد قواعد يمكن اتباعها وتعليمها لكتابة ماتعلموه وما عرفوه وما سمعوه ، .. انهم بهذا كله انما كانوا يبحثون عن حقيقة ، حقيقة ما ... لقد بقي ما توصلوا اليها حقيقة زمنا طويلا .. كانت معارفهم هي الحكمة .. هم الذين أوجدوا هذه الكلمة العريقة العميقة .. واننا لم نكن لنهتدي الى طريقها لولا ما أوجدوه من نظام للكتابة وتسجيل المعرفة في الواح تنقش وتحفظ ..

لم يكن اختراع الكتابة اختراعا جامدا ونهائيا مرة واحدة فلقد مر الانسان بتجارب عديدة قبل أن يتوصل الى اختراع الكتابة (أواخر الالف الرابع ق.م .) ثم انه سلك طرقا متعددة واتبع انظمة مختلفة للكتابة قبل ان يتوصل الى الابجدية (حوالي القرن الرابع عشر ق.م) .

وقد مرت هذه التطورات بالمراحل الاساسية التالية :

١ ـ مرحلة **الكتابة التصويرية** في حوضي الرافدين ووادي النيل .

٢ ـ مرحلة **الكتابة الفكرية الرمزية** ، وفيها تم تحليل الجملة في الكلام الى كلمات وعبر عن كل لفظة منطوقة برمز يمثل فكرة اي معنى يؤدى بكلمة ويقابل مقطعا صوتيا . وفي هذه المرحلة تقع الكتابات السومرية ـ المسمارية والمصرية الهيروغليفية والصينية .

لنات بمثال من السومرية ـ المسمارية :
ان العلامة المسمارية الدالة على الفم تقرأ « كان » بالسومرية ، هي كلمة تامة معناها .

فم .
وتقرا بو ، فو بالاكدية ومعنا فم .
كما في العربية .
ولكن كا هو مقطع Syllabe
في المسمارية يمكن ان يدخل في تركيب وكتابة اية كلمة اخرى يدخل في تكوينها هذا المقطع بصرف النظر عن معناه بوصفه كلمة .

٣ ــ مرحلة **الانتقال الى الصوت** أي الى **المقاطع والحروف الابجدية** وذلك بتحليل الكلام الى سوالف وحركات وهـذه هي مرحلـة الكتابة الصوتية واعلاها الابجدية التي اوجد اول نظام لها في تاريخ الحضـارة الانسانية على ارض الوطن العربي في كل من مدينتي جبيل واوجاريت التاريخيتين .

ان آلية تكوين كلمات من مقاطع في مفردات اخرى عرفت في اللغات القديمة ، وحتى في لغاتنا المعاصرة . الا نشهد في ايامنا هذه كيف تخترع وتستخدم كلمات تتركب من مقاطع في مفردات مكونة لجمل وعبارات ، أو من الحروف البدئية لهذه المفردات . مثل كلمات اونيسكو ، والكسو ، وناتو ، ونيلون . وهذه الكلمة الاخيرة التي نرددها دون ان يخطر بالبال دائما معناها الاصلي ، انها تتالف من الحروف الاولى لكلمات جملة بالانكليزية موجهة الى الياباني صانع الحرير الطبيعي «Now you Lousy Old Nipvnese ? فيها معنى الشتيمة والتشفي والاحتقار بعد اختراع خيوط الحرير الصناعي ، الا ان الياباني رد الاهانة بالتفوق في الحرير الصناعي ايضا .

لنات بمثال من لغتنا العربية :

لقد اضحى من المعتاد ان ننطق الكلمات وان نفهم معناها ومدلولها دون أن ينصرف الذهن الى معاني الحروف المكونة للكلمات . انا عندما ننطق كلمة « عنب » مثلا نعرف انها مؤلفة من ثلاثة حروف ولكن قلمـا يخطر ببال بعضنا انها كلمة مؤلفة من ثلاث كلمات ، هي : العين ، والنون (السمك) ، والبيت ، وهي من اسماء الحروف العربية الدالة بالاصل على كلمات مستقلة .

وعلى اية حال ، فان الابجدية اختراع رائع في تاريخ الحضارة والثقافة والتربية الانسانية . ولقد رفعه العالم جاليليو جاليكي الى درجة اعظم الاختراعات وارفعها شانا حين قال « في الابجدية تحقق تصور لطريقـة

يمكن بها تأمين التواصل الفكري بين البشر مهما تباعد المكان وعبر كل زمان وهي طريقة رائعة تصلح للتحدث الى الذين لم يولدوا بعد والى الذين سيولدون بعد الف آلاف من السنين . وبالها من طريقة بسيطة ؟ ! باستخدام بضعة وعشرين حرفا وعلامة للكتابة ! » .

اما **فولتير** فيسأل : **اين تبدا الكتابة حقا** . ويجيب على سؤاله بنفسه: « انها بدأت عندما أمكن رسم الصوت بالحرف بالالفباء » .

ولكن فولتير الذي عاش في القرن الثامن عشر لم يكن بوسعه ان يطلع على نتائج الاكتشافات الاثرية والدراسات اللغوية واللسانية التي مكنت من اعادة تصنيف اللغات وانظمة الكتابة . وفي ضوء ذلك يجوز لنا القول ان انظمة أخرى للكتابة غير الكتابة الابجدية والف بائية كان لها كذلك دور هام وتدخل حاسم في مجرى تاريخ الانسانية .

لقد كانت للكتابة مكانة عالية عند الذين اخترعوها : يقول نص سومري ما معناه : **((الكتابة للمتكلم ام وللمتعلم اب(٤)))** . واعترف للكتاب في كل حضارات الامم العريقة بموقع متميز في حياة الدولة والمجتمع كما هو واضح في مصر وبلاد الرافدين وبلاد الشام والصين وغيرها ... وقد انعكست معرفة الانسان للكتابة على نظرة الناس اليه في مجتمعه ، فما يزال يعتبر الامي في العربية ؛ بمعنى من المعاني ، جاهلا ، لان الامية تمثل في عصرنا عجزا مؤلما في قدرة الانسان على التلاؤم مع حياة العصر والتكيف مع الحضارة المعاصرة . فقد حل القانون المكتوب محل الاتفاق الشفوي العرفي ، وحلت المعرفة المكتوبة فيما يخص أمور الدين والدنيا محل المرويات المنقولة . بل اضحى من اللازم للانسان ، وقد قطع في مسيرة حضارته أشواطا طويلة ، ان يتعلم لغات وكتابات متعددة بعد اتساع العلاقات بين الشعوب وتشابكها . وقد يحتاج المرء احيانا بحكم عمله واهتمامه ، الى تعلم انظمة خاصة اصطلاحية للكتابة،كالعلاقات الترقيمية، ولغات المصطلحات العلمية والكتابة الموسيقية ولغة الاختزال والآلات الحاسبة والمسجلة والمنظمة ولغة الحاسب الالكتروني ... وغير ذلك من اجهزة العصر التي تستعمل انظمتها الكتابية الخاصة بها .

ما مؤدى الكتابة ؟

لقد تبلورت منذ الالف الثالث ق.م. انظمة للكتابة مختلفة الاشكال في المراكز التي كانت مهودا للحضارات القديمة في الشرق القديم من وادي النيل الى وادي السند والى الصين . وعلى الرغم من امكان افتراض نقطة ابتداء مشتركة لاكثر هذه المناطق ، فانه من الممكن ان تكون قد ظهرت انظمة كتابة مختلفة ضمن البيئات الثقافية المتعددة ثم انتشرت هذه الانظمة وتفاعلت فيما بينها بتأثير العلاقات الحضارية والاقتصادية المتنوعة.

لقد ابدعت بعض الثقافات لنفسها انظمة للكتابة ، واقتبست بعض الثقافات الاخرى الانظمة السائدة في بلاد اخرى عن طريق التعامل والتبادل والتفاعل . وتبنّى بعض آخر الانظمة الموجودة عندما دالت الدول وانتهت اليه مقاليد الامور .

اننا ونحن في معرض الحديث عن اصول الكتابات وتاريخها ورسالة الكتابة في حمل تراث الحضارة ، اليس من الواجب ان نذكر هؤلاء الذين عملوا بجهودهم الخارقة وبذكاء لامع على اعادة استنطاق النصوص الهيروغليفية والخطوط المصرية الاخرى بعد ان اضحت هذه الخطوط رسوما صماء بعد اغلاق معابد مصر الوثنية والمدارس الملحقة بها في ايام الامبراطورية الرومانية الشرقية البيزنطية (القرن الخامس للميلاد) . وبعد ان توقف استخدام المسمارية في الكتابة في القرن الاول بعد انتصار الحرف الآرامي .

من هذه الاسماء التي لا يمكن أن تنسى في تاريخ الانسانية ، مكتشفو الكتابات المسمارية وقراؤها الاول في العصر الحديث ونساخ النصوص ومفسروها ووضعو قواعد لغاتها : نيبوهر وغروتفند وتالبوت وراولنصون وهنكس واوبر ، وجورج سميث هذا الذي قرا خطوطا مسمارية تحدث عن قصة الطوفان البابلي لاول مرة بعد الفي عام من موت اللغة البابلية امام اعضاء الاكاديمية الملكية البريطانية ولم يتمالك نفسه بعدئذ فشط

وخرج عن طوره وغدا مهووسا بما عرف وتوصل اليـه . وكذلك جان فرانسوا شامبوليون الذي فكك الهيروغليفية المصرية دون ان يتعلمها من من احد وصار اول استاذ ، خارج تاريخ مصر القديمة الفرعونية ، للغة المصرية وحضارتها . لقد اضاف هؤلاء العلماء وامثالهم الى تاريخ الحضارة آلاف السنين التي كانت مجهولة ونسيت بعد ان محيتمن ذاكرة الانسان.

إن تاريخ العالم مدين لهؤلاء وكذلك تاريخ مشرقنا العربي من وادي الرافدين الى وادي النيل .

اما الكتابة في سورية وبلاد الشام خاصة فقد وجدتمنذ فجرالاستقرار والحضارة واستخدمت انظمة الكتابة المختلفة نتيجة لتنوع الاتصال الحضاري بين المجتمعات السورية القديمة وجيرانها . فاستخدم نظام المسمارية المقطعية في كتابة لغة ابلا (الالف الثالث) . واستخدمت علامات مسمارية لكتابة حروف ابجدية اوجاريت = (اجرت) (في النصف الثاني من الالف الثاني) . واستخدمت الابجدية الكنعانية (الفينيقية الجبيلية) لكتابة انظمة الابجدية التي تطورت عن الكنعانية كالمؤآبية والعبرية والآرامية ثم استخدمت الاغريقية واللاتينية في ظل الادارات الاجنبية الى ان انتصرت العربية بعد استرداد العرب لسيادتهم وبعد ن رفعوا بنيان حضارتهم .

ان المرء ليخشى عند الكلام عن تطور الكتابة من الكلمة الى الحرف اي الى الابجدية أن يساق بالتبسيط الى الابتعاد عن الدقة . وانه ينبغي علينا التأكيد على ان العلاقات فيما بين الكتابات والابجديات ماتزال موضع البحث والدراسة . ولقد ادخلت تعديلات في السنين الاخيرة على بعض المعطيات المتداولة . فانه لم يعد من المقبول القول الآن ، ان الابجدية الكنعانية (الفينيقية) قد استوحت لتجريد الحروفمن التقطيع الصوتي للكلمات في اللغة المصرية . على ان هناك تأثير ما للكتابة المصرية في المراحل الاولى لاختراع الابجدية نجم عن العلاقات الوثيقة بين مصر ومدن الساحل الكنعاني : اوجاريت وجبيل . ويجدر هنا تصحيح بعض الافكار الشائعة

وغير الدقيقة . انه لم تكن لتوجد في اوجاريت ابجدية واحدة بل اثنتان . فقد اشار شارل فيرولو ، وهو من اوائل من قرأ النصوص الابجدية الاوجاريتية ، الى وجود ابجدية ثانية من ٢٢ علامة وحسب مقاربة للابجدية الفنيقية الجبيلية ، الى حد لا يمكن عزوه الى مجرد المصادفة، الى جانب الابجدية المسمارية المؤلفة من ثلاثين حرفا والمعروفة منذ اربعين عاما . وقد اشار الى هذا الموضوع اكثر من باحث فيما بعد مثل بيير بوردروي . وان اتيامبل هو على حق عندما يقرر بهذا الصدد انه بمقدار ما تتزايد معرفتنا بحضارات المشرق القديم التي تشكل معا وسطا حضاريا ثقافيا مشتركا تتضح لنا الاستمرارية وتبدى لنا التواصل بين هذه الحضارات ومنها ما يتعلق بالابجديات .

• ان **الابجدية** ما ان وضعت حتى انتشرت في كل انحاء الشرق القديم برغم اقتصارها على السواكن دون الاصوات . وعندما اقتبست الاغريقية الابجدية الفنيقية عوضت عن هذا النقص باستخدام حروف المد الفنيقية وهي :

الالف	: الفا	A
الالف المائلة	: اي ابسلون	E
الواو	: اوميكرون	O
الياء	: اوبسيلوي	Y

وكما كانت وجدت ابجديات بخطوط وعلامات فيها شيء من الاختلاف في كتابات سورية القديمة فقد وجدت قبل القرن الرابع ق.م . ابجديات اغريقية متعددة في العالم الهليني . وفي حين انتشرت فيه الكنعانية ــ الفنيقية ــ الآرامية في بلاد الشرق الادنى حتى الهند ، فالكتابة الخروستية على عهد الامبراطور الهندي اشوكا (القرن الثالث ق.م) كانت مستوحاة من الكتابة الآرامية ، وتكتب من اليمين الى اليسار ، وبقيت تحتفظ ببعض حروفها المشابهة لاصول آرامية على عكس اللغة الاخرى المتداولة بنفس

العصر وهي البرهمانية . فان الابجديات الاغريقية توحدت وانتشرت في حوض المتوسط واشتقت منها الابجدية اللاتينية ثم استقلت هذه بنفسها ونشرت ابجديتها من ثلاث وعشرين حرفا . ولكن الاغريقية انتشرت بدورها على نطاق واسع لدى شعوب البحر الاسود والمتوسط ومنها الابجديات القوطية التي جاء منها الحرف القوطي في الالمانية القديمة . والقبطية والجيورجية والارمنية والبلغارية والروسية والصربية .

وقد تراجعت انظمة الكتابة والابجديات الاخرى القديمة امام الارامية في بلاد الشام ، سورية وفلسطين ، وفي بلاد الرافدين وحتى في وادي النيل خلال الالف الاول ق.م ففي دول سورية وفلسطين استخدمت الارامية في النقوش والوثائق الرسمية والنصوص والكتابات الدينية ، كما استخدمت الارامية الى جانب المسمارية منذ القرن الثامن في بلاد الرافدين . اما منذ القرن السادس فقد اضحت الارامية لغة رسمية للامبراطوريه الفارسية الاخيمنية من وادي السند الى وادي النيل حتى القرن الرابع ق.م وعلى الرغم من اكتساح الهلينية للشرق عسكريا وحضاريا واقتصاديا فان الارامية بقيت لتعبر عن الثقافة الاصيلة للمشرق القديم ممثلة بالنبطية اولا ثم بالتدمرية بعد الاحتلال الروماني . وتعد الكتابة السريانية التي تطورت باشكال خطوطها المختلفة على ايدي الآباء اليعاقبة والنساطرة طوراً جديداً في تاريخ الآرامية في القرون الثلاثة الاولى للميلاد . **كانت الآرامية** بلهجاتها المختلفة لغة الناس في سورية ، وكانت هي لغة السيد المسيح عليه السلام ولغة الذين استمعوا الى تعاليمه ومواعظه ؛ **وبالسريانية** كتبت اقدم الاناجيل كما كتبت باليونانية واللاتينية مع توسع المسيحية وانتشارها في حوضي المتوسط الشرقي والغربي . ولكن تبقى للسريانية مكانتها التاريخية الخاصة في تاريخ حضارة المشرق العربي وسورية القديمة بوجه خاص لانها لتعاليم المسيحية كالعربية لرسالة الاسلام . فكلا اللغتين ينحدران من نبع واحد ويتفرعان من اصل مشترك وقام كل منهما بدور تاريخي على ارض واحدة بصورة متعاقبة ومتكاملة ويبدو ذلك بصورة واضحة معروفة

في عصر الترجمة والتعريب في العصرين الاموي والعباسي عندما بلغت الدولة العربية سمت عزتها واوج قوتها وعندما وصلت الحضارة العربية الى قمة مجدها فكانت السريانية وعاء التراث القديم وعلوم الاوائل تعطى وانصب في نهر الثقافة العربية الجديدة .

ولن يكون بوسعنا ان نتحدث عن الدور الذي ادته الكتابة بانظمتها المختلفة والمتعددة للحضارة ، لكننا سنتحدث عن دور نظام واحد منها هو **نظام الكتابة المسمارية** ، كانت **المسمارية** هي نظام الكتابة الذي ظهر وانتشر في بلاد الرافدين والبلاد المجاورة ، بينما ظهرت **الهيروغليفية** وتطورت في مصر وتأثرت الكتابة في سورية بهذين النظامين الى ان تطورت منهما ابجدية مسمارية في اوجاريت وابجدية اخرى في جبيل ... ومع ما بين هذه الانظمة الكتابية من اختلاف كان لكل منها مواده وادواته الخاصة به ، وهذا مما كان له تأثير كبير في انتشار اللغة وطول عمرها .. عندما رسخت جذورها في تقاليد المجتمع

كان الطين وبخاصة الاجر المشوي الذي استخدم في الكتابة المسمارية **افضل حامل للكتابة واقل كلفة واكثر دواماً بين كل انظمة الكتابة التي** اخترعها الانسان . بينما عملت الشروط المناخية والعوامل الانسانية على اتلاف الكتابات على المواد الاخرى ، على ورق البردي وعلى الرق والجلد والخشب والمعدن والحجر حتى لم يبق منها الا ما شاءت الصدف بقاءه ووصوله الينا . وانه لمن الجدير بالذكر ان نظام الكتابة المسمارية عندما استخدم للكتابة على شيء آخر غير الواح الطين فانه ضاع وزال من الوجود نهائيا ، **والمثل الصارخ على ذلك ضياع كل شيء من** الوثائق المسمارية التي تعود الى العصور المتأخرة في بلاد الرافدين

ان كل الوثائق والنصوص التي كتبت على الجلد وعلى الرق ، والتي تمثل النصوص الاولية التي استخدمت في كتابة ما سمي بعدئذ **بالعهد القديم** ضاعت وفقدت تماما (٥) ولكن الباحثين والعلماء المتتبعين لتاريخ **كتابة العهد القديم عملوا على انشاء منهج لاعادة تكوين النصوص في**

الحلقات والمراحل المفقودة .. وفي مصر مثل على حالة خاصة واضحة الدلالة : ان الكتابات والنقوش على الحجر وعلى المعدن تختلف غالبا بمحتواها واسلوبها عن النصوص المكتوبة على ملفات من ورق البردي او على الجلد . ان فقدان هذه النصوص الاخيرة اوجد فراغاً عمل بعدئذ على تعقيد جهود علماء المصريات كثيرا من اجل اعادة صياغة ادب هذه الحضارة المصرية . ولكن اذا تورنت هذه الصعوبات بما واجهه علماء الآشوريات وجدنا ان هذه الاخيرة كانت طفيفة نسبياً . فما زالت ارض الرافدين وسورية تقدم للآثاريين المنقبين مزيداً من الالواح والنقوش المحفوظة جيدا والتي تسمح بالقاء مزيد من الضوء على حياة الناس في الماضي الغابر .

٣ ـ لماذا كتبوا ؟

في حضارات الشرق الادنى القديم استخدمت الكتابة لاغراض اهمها : ١ ـ تسجيل المعلومات لاستخدامها فيما بعد اي في المستقبل ؛ ٢ ـ من اجل الاتصال المتزامن . ٣ ـ لاغراض احتفالية . وقد وجدت وثائق تمثل هذه الانواع الثلاثة في كل حضارات الشرق القديم ، ولكن قد تكون بدرجات متفاوتة في الاهمية تبعا للحضارات والبلاد

فتسجيل المعطيات والمعلومات كان لاغراض ادارية ولتقنين القوانين ، ولصياغة تقليد مقدس او لكتابة حوليات رسمية او تحقيق او تقرير .. فقد استخدمت الكتابة منذ ان وجدت سلطة ومنذ ان وجد موظفون مسؤولون لهم مسؤولية محددة تجاه مرؤوسيهم في مدة زمنية معينة ، مما اقتضى تسجيل المحاصيل والانتاج من حبوب ومحاصيل ومصنوعات . وفي النظام الاقتصادي الرافدي الذي كان يحصر الاشراف على الفعالية الاقتصادية بين المعبد او القصر ، وهما اللذان كانا يتوليان عملية اعادة التوزيع ، كان الموظفون يقومون بتسجيل الضرائب والغنائم

والمغرامات والافتاح من ممتلكات القصر ومشاغله . وكذلك الكهان والرهبان المكلفون بالاشراف على ممتلكات المعبد ، ويقوم هؤلاء جميعا بتوزيع المواد والحصص والاجور على الصناع والعمال .

ان هذا التسجيل والحفظ كان يجري وفق صيغ معتمدة واصول مرعية في بلاد الرافدين وطريقة الكتابة والتسجيل بالمسمارية وعلى الواح الطين الا ان الوثائق المماثلة من هذا النوع من مصر ضاعت كلها تقريبا ... ويشعر المرء بفداحة الخسارة عندما نطلع على ما تبقى من ملفات البردي والكسرات الفخارية التي بقيت بالصدفة وينبغي مع ذلك الا يغيب عن النظر ان الكتابة ليست ضرورية بصفة مطلقة من اجل حفظ او مراقبة الادارة البروقراطية المعقدة لان طرقا ممكنة اخرى للمراقبة والمحاسبة بدون استخدام الكتابة ربما عرفت في مناطق لم تكن الكتابة مستخدمة فيها حتى في بلاد الرافدين نفسها اذ ينبغي ان نتصور ان الكتابة لم تكن معممة في كل المناطق والبلاد بنفس الدرجة من الامكانات والقدرة على التنفيذ .

لكن الكتابة في بلاد الرافدين كما هو الشأن في مصر طبعت كل مظاهر الحضارة بطابعها الى حد جعل من البروقراطية مظهرا اجتماعيا مقبولا واداة مقبولة وفعالة بيد المؤسسات القوية في الدولة والمجتمع ، وقد لاقى هذا كله صدى على الصعيد الفكري النظري . ففي بعض النصوص المسمارية التي تصف العالم الآخر يذكر الكاتب ملك الموت وهو يحمل قائمة بأسماء الذين كتب عليهم ان يموتوا كل يوم . وتذكر هذه النصوص المسمارية القديمة بتقاليد رافدية لاحقة تذكر المعبود نبو ، الكاتب المقدس ، الذي تنسب اليه صنعة الكتابة ... ونجد مثيلا لهذه المفاهيم في تقاليد قديمة اخرى وردت بعدذلك في سفر المزامير وفيها ان أيام المرء في الحياة معدودات في « كتاب الرب » قبل ان يخلق : « رات عيناك اعضائي وفي سفرك كلها كتبت يوم تصورت اذ لم يكن واحد منها » (مزامير ١٣٩ : ١٦)

ولقد نقل تطور المفاهيم الثورية هذا التصور لدور الكتابة في قدر الانسان من المعنى الاداري البيروقراطي بحيث يقوم المسؤول فيه برعاية من هم في حمايته الى معنى الادراك الحتمي المتضمن خضوع الانسان الى مصير لا يمكن الفرار منه رسمته واقرته القدرة الالهية.

اننا نعرف كيف عملت حضارات الشرق القديم على حفظ القوانين بصياغتها وسنها ونشرها. وقد جاءتنا بعض هذه القوانين من بلاد الرافدين ومن غيرها: ومنها قوانين سومر واكد وبابل واشور وحاتي ونصوص قانونية من إبلا وأوجاريت وكلها مكتوبة بخط مسماري، ونصوص قانونية اخرى من العهد القديم، ومن الوثائق الارامية(٦) وهي مكتوبة بحروف ابجدية. وهناك ما يدل على وجود قوانين خاصة بمصر القديمة(٧). فبعد ان ساد العرف زمانا طويلا سجلت القوانين بالاستناد الى معطيات ضمن شروط اجتماعية واقتصادية وسياسية مناسبة لتوقيت اصدارها. وقد اضحت هذه القوانين هي الوعاء الذي صبت فيه التطلعات الهادفة الى تعديل الاوضاع في المجتمع او الى تاكيد الاهتمام الذي كانت توليه الآلهة ويوليه الملك لمصلحة الناس. وقد يمكن ان يطرح سؤال هو: الى اي مدى كانت تطبق هذه القوانين؟ وفي اية ظروف كانت نصوص القوانين ضرورية لتنظيم الحياة الجارية للناس؟. ولئن كان من التسرع الاجابة عن هذا السؤال فان ما ينبغي تاكيده هو ان الادارة كانت تتم وفق قواعد مرسومة وان القضاء ينفذ احكامه بالاستناد الى تشريع موجود وبخاصة في سومر وبابل وآشور(٨).

وليست القوانين هي ما حفظ بالتسجيل وحسب، بل هناك ما يمكن ان ندعوه بالمعرفة المقدسة. وهو ما يتصل بأسرار الآلهة. وان الكتابات التي يمكن تصنيفها في هذا النوع كان القصد منها المحافظة على التقاليد والمعتقدات والتعليم في شروط اجتماعية متغيرة او واقعة تحت تأثيرات خارجية. انها النصوص والوثائق التي يمكن ان نتحدث من خلالها عن عقائد دينية في حضارة بلاد الرافدين(٩)

هكذا استخدمت الكتابة من اجل هدف ادى بالاساس الى تقنين القوانين في المنطقة ، الى تجميد التقاليد لا الى تعديلها وتصحيحها لكي تتوافق مع الواقع . فالصيغ التي وضعت كان الهدف منها هو الحيلولة دون تضخم السجل القانوني تحت ضغوط داخلية ولمنع الكهان واللاهوتيين من الانفراد بتفسير التاريخ وتكرار تفسيره على طرائقهم وتعقيده باضافاتهم وتحميله زيادات تثقله في الوقت الذين يتهيأ لهم فيه انهم يقومون بتجميله لكنهم بالحقيقة كانوا يقومون بتشويهه وتعقيده . وبين ايدي الباحثين امثلة عما يمكن ان ينشأ عن مثل هذه الظروف من اوضاع ونتائج قد تمس الوثيقة الاصلية . فيمكن ان يظهر نص يعكس في طياته التنازع بين نفوذ الضغط نحو التغيير وبين نفوذ الضغط المعاكس للمحافظة على اصالة النص . ويقدم نص العهد القديم كما وصل الى الدارسين بوضوح علامات على هذا التنازع(١٠) كما يمكن ، من جهة اخرى ، لنص ما ان يبقى كما هو من حيث الاساس لكن يمكنه ان يتعايش مع ما قد يطرا من تغيير في التقاليد بحكم تغير في الاحوال والظروف . وهكذا ينظر الى ملحمة الخلق البابلية مثلا نظرة خاصة باعتبارها انها تصلح لتكون اثرا خاصا بحضارة الرافدين(١١) ومميزا لما كتب بالمسمارية . كما ينظر الى نصوص منفيس(١٢) الدينية على انها تمثل روح الحضارة المصرية القديمة . وبهذا الاعتبار درست ملحمة الخلق البابلية من زوايا مختلفة ومن ابعاد مختلفة ايضا : اسلوبها وشكلها وصيغها اللاهوتية . .

ويرفض **ليو اوبنهايم** ان يعطي لملحمة الخلق البابلية هذ الدور(١٣) ، لان هذا الراي الذي اوحت به نصوص العهد القديم ليس مقبولا في قصة الخلق المسماة (إنوما إليش) ، اي (عندما في العلى) على ما جاء في المقطع الاول من الملحمة . ويعرض اوبنهايم وجهة نظره بقوله ان « ملحمة الخلق » على الرغم من كونها متأثرة على الارجح بنصوص من تقاليد قديمة لكنها كتبت فيما بعد وبصورة خاصة من اجل تسبيح مردوخ في بابل . وهي تمثل على الصعيد الادبي تحولا من اساليب قديمة وربما محلية ، كالممارسات التي كانت تجري بمناسبة اعياد راس السنة

(اكيتو) . ويلخص اوبنهايم رأيه بقوله : « ان هذه الملحمة على الرغم من كونها تمثل قصة مردوخ وتقدم تفسيراً ثيولوجيا للعالم ، فانها كانت واسطة وحسب للعلاقة بين الكاهن والمعبود . لان القصة لم تكن تتلى على الناس المؤمنين للبرهنة على قدرة الاله لكنها كانت ترتل امام الرب . كانت الملحمة ـ القصة تراتيل لتسبيح مردوخ كان يؤديها الكاهن متوجها الى معبوده .

وعلم الرغم من توفر الوثائق المبكرة عن تاريخ الشرق القديم ، فـان **الحوليات الرسمية** التي تحتفظ الاحداث المعاصرة لزمن تسجيلها بصورة منظمة لم تظهر الا في وقت متاخر وبكمية قليلة ايضا . فكثير من الوثائق الشهيرة التي توصف بانها تاريخية تسجل احداثا لهدف مختلف تماما عن التاريخ ، حتى ان حجر بالرمو وهو من الاثار القيمة والنادرة يبدو انه كان في الاصل مجرد قائمة على شكل حوليات تتضمن جردا مرتبا بالاعطيات والتقدمات التي اهداها الفراعنة الى المعابد . والامر نفسه في سفر الحرب ليهوه ، وهـو سفر مفقود لكنه أشير اليـه في سفر العدد(١٤) . وبعض وقائع الحروب بما فيهـا من انتصارات وهزائم **والاخبار الاخرى مما اضحى له مضمون تاريخي لم يكن ليسجل في بابل** او في آشور الا بتعابير ثيولوجية واحيانا بخطـاب موجه الى الاله ، كالخطاب ـ التقرير الذي وجهه الملك الاشوري شروكن الثاني (القرن الثامن ق.م) الى الاله آشور بعد حملته على اورارتو (٧٠٨ ق.م) .

ومع ذلك يفترض وجود تقليد قديم في التسجيل الحولي تطور من ممارسات بروقراطية كانت مطبقة في المعبد والقصر . ان الكتابات التي تتضمن معطيات يمكن استخلاصها من هذا التاريخ الاساسي ، مثل **قوائم التاريخ البابلية القديمة وقوائم التقويم الاشورية كانـت مخصصة** بالاصل لاغراض عملية وسياسية ولكنها قـد تكون مخصصة كذلك لاغراض عملية او يمكن الاستفادة منها في تاليف اعمال ادبية .

وقد استخدمت الكتابة في بلاد الرافدين ايضا من اجل تسجيل ما يمكن ان نسميه الآن **معطيات موسوعية** ، وبقي هذا الصنف من التسجيل تقليديا قرونا عديدة . فالباحث يصادف تقارير موضوعية ونموذجية من العصر البابلي القديم كتبها وسجلها الكتاب والكهان عن وقائع واحداث وقعت في حينها . وكانت تأتي ملاحظة بعض الملامح الخاصة بالحدث او الواقعة منفصلة تماما عن تفسيرها الذي كان يسجل مباشرة ، او بناء على صيغة سابقة كانت معروفة من قبل .. وقد تطور الاهتمام بتسجيل مثل هذه المعلومات الى ان اضحى بعد الف عام اكثر دقة واوفر تنظيما ، فصار بوسع المراقبين للنجوم والكواكب في هيئة الفلك ان يلاحظوا بعض الكواكب السيارة بين النجوم الثابتة وان يسجلوا بدقة رؤية القمر وغيابه ، وشروق الشمس وغيابها . ويحتمل ان تكون قد اتخذت هذه الملاحظات وما كان يسجل منها مادة سمحت للفلكيين في بابل واور وحران بتحويل حركات الكواكب في السماء حسابيا الى جداول وصيغ رياضية .. وكانت هذه المعلومات الاولية وما اضيف عليها فيما بعد رصيدا ثمينا مفيدا لعلماء الفلك والرياضيات اليونانيين في الاسكندرية في العصرين الهلنستي والاغريقي ـ الروماني ساعدهم على تطوير بحوثهم وبخاصة فيما بين القرنين الثالث والاول ق . م .

وهناك غرض آخر لاستخدام الكتابة المسمارية هو **توصيل المعلومات** ومنها الرسائل والقرارات الملكية واوامر الدولة وتعميماتها . ان طابع الديمومة لحامل الكتابة الذي استخدم في الكتابة المسمارية وهو اللوح الطيني وضع بين ايدي الباحثين آلافا من الرسائل المكتوبة بالخط المسماري ، وهي رسائل ادارية وخاصة محمولة على الواح قد تبلغ اكثر من خمسين الف لوح عثر عليها المنقبون من علماء الآثار في عدد من مواقع التنقيب في ارض الرافدين والشام التي حملت لنا واعطتنا تراث حضارة سومر وأكد وماري وإبلا واوغاريت ...

ومما بقي من اثر الكتابات والنقوش المسمارية نصوص استخدمت لاهداف سياسية وقانونية ظهرت على مسلات من الحجر بشكل متميز في مصر وسورية وبلاد الرافدين او على كودورو وهي حجارة الحدود التي تعتبر من آثار بابل المميزة والخاصة .

ولم يعثر على نصوص جنزية من بلاد الرافدين ، بينما هي نقوش مهمة جدا في بلاد حوض المتوسط ، على الساحل السوري والقرطاجي ، وتوجد نقوش تبعرية كثيرة جدا من هذا النوع . والنص الجنزي يتوجه الى المار عابر السبيل يذكر له اسم الفقيد وتتردد عبارات وادعية ولعنات لتاكيد حماية القبر والنقش المكتوب ، كما هو الحال في نعش احيرام . اما النقش الجنزي الرافدي الوحيد المعروف حتى الآن فهو نقش يخص ام الملك البابلي نابونيد(١٥) . تتكلم الفقيدة عن نفسها بضمير المتكلم ثم يتحدث ابنها عن جنازتها ودفنها . ولهذا النص قيمة تاريخية خاصة في صيغته ووظيفته واسلوبه .

ومن الصعب حصر الابواب الاخرى للكتابة في بلاد الرافدين . فبين النصوص التي عثر عليها مجموعة من النصوص التعليمية التي اعدت من اجل تعليم الكتاب والنساخين للعمل على تامين استمرار مهنة الكاتب وتقاليدها .

وهناك نصوص احتفالية وتذكارية لتخليد المناسبات الدينية والسياسية وقد نقشت على مسلات وموشورات ومخاريط واسطوانات والواح وهي ليست موجهة الى اي شخص من الاحياء لكنها موجهة الى التاريخ . ان هذه الآثار الرائعة المنقوشة بالكتابات هي اهم ما نعرفه من معلومات عن الماضي التليد من حضارات المشرق العربي القديم .

لقد كتب الكتاب وحفروا خطوطهم وآثار اقلامهم حيث استطاعوا ، حتى على مفارق الطرق والممرات ، وهذه النقوش تهدف الى الربط ما بين الآلهة وهي السلطة الاعلى في ايديولوجية الحكم والملكية في بلاد

الرافدين ، وبين الملك الذي كان يعتبر ممثلا للاله ونائبا عنه . وهناك نصوص هي من نوع التمائم والحجب والطلسمات التي كان يعتقد بأن لها قوة سحرية ، ومنها ما كان يحمل للاطفال لحفظ صحتهم وحمايتهم من الاخطار . كما كان يعتقدان لبعض النصوص الادبية قوة خاصة التي كان من المألوف وضع نصوص منها في البيت لحمايته كملحمة « إرّة » ، ربة النار . ولا شك ان الدراسة المنهجية لهذه النصوص يمكن ان توضح جوانب كثيرة من العقلية الرافدية التي تحكمت في مسيرة حضارة عاشت قرونا في ارض المشرق العربي القديم واستمر تاثيرها طويلا وربما حتى الآن .

الكتابة والكتبة :

هكذا نرى ان **الكتابة نظام فكري تعليمي تربوي** وضعت له قواعد سهر على تطبيقها المختصون من المربين والمعلمين والكتاب والنساخ . وقد اوجدت من اجل ذلك المؤسسات الضرورية واقدمها في المشرق العربي . وما تزال تشكل هذه المؤسسات البنيات اللازمة لاية حياة ثقافية في اي بلد وهي المدارس ودور الكتب

لقد اتحدت المدرسة بالمكتبة في بلاد الشرق العربي القديم بلاد الرافدين وسورية ومصر . ففي مصر القديمة عرفت المدرسة باسم هو « بيت الحياة(١٦) » وما اروعه من اسم . لان المعرفة حياة والعلم حياة والجهل ضياع وموت وفناء . اما في المحيط الذي انتشرت فيه الكتابة المسمارية فقد عرفت المدرسة ــ المكتبة باسم إ ــ دب . وهي كلمة سومرية ــ اكدية مركبة من مقطعين مسماريين كل منهما يقابل وحده كلمة لكنهما يكونان معا كلمة تعني « بيت الالواح »(١٧) . ويبدو لي ، كما كنت قد ابديت في مناسبات ثقافية سابقة ، ان هذه الكلمة قد تكون الاصل البعيد لكلمة ادب في العربية الشمالية والتي لا نجد لها في هذه اللغة جذرا فعليا بسيطا ينضوي على مواد المعرفة المسطورة والمكتوبة

سوى تفعيل الاسم بالتضعيف كقولهم : ادبّه فاحسن تأديبه ، وكلمة مادبة التي تدل بالاصل على الطعام يصنع لدعوة

لقد وجدت أقدم هذه المكتبات في بلاد الرافدين : سومر وبابل وآشور ، في مدن اورونيبور ونينوى وفي ارض الشام إيبلا وماري واوغاريت وجبيل .. وفي مصر في اون ومنف وطيبة .. وغيرها .

كانت المدرسة ـ المكتبة = بيت الإلواح في حضارات الرافدين والشام هي المؤسسة الفكرية التعليمية المركزية ، هي المدرسة والجامعة في إيامنا هذه . فيها يتعلم الطلاب تقنيات الكتابة . وكان ينصرف الى هذه المهنة الرفيعة المتخصصة شباب وشابات ينحدرون من اسرات طيبة في المجتمع ولكنها ليست غنية ، ويشرف على تعليم الاولاد معلم وله مساعد يقوم بالنسخ والتصحيح والى جانبه مشرفون مدربون وملاحظون . اي ان التعليم كان نظريا وعمليا . وكان اليوم المدرسي طويلا والنظام صارما والضرب مباحا للعقاب ولتقويم اعوجاج التلميذ الكسول ومن يحيد عن جادة الصواب . وأساس طرق التعليم التدرب المستمر المتواصل والمواظبة وكان المعلم يوجه النصائح الشفوية ويصحح مع مساعديه اخطاء تلاميذه ، ياخذ بيدهم من السهل الى الصعب ومن القليل الى الكثير . وقد عثر على وثائق تربوية تعليمية كثيرة في مراكز التنقيب في سورية : كما في تل مرديخ إيبلا ، وفي ماري واوغاريت .

كان يطلب من التلميذ ان يتعلم في البدء مقاطع بسيطة بي ، با ، بو إب . اب اب . ثم مصطلحات تدل على معان وكلمات تامة . ثم يتعلم التلميذ العلامات المسمارية بادئا بالعلامات البسيطة لينتهي الى المعقدة . ويدرس القوائم المعجمية والنصوص الموسوعية ويتعلم كتابة اسماء الارباب والمعبودات واسماء المدن واسماء الملوك والقابهم . ثم عندما ادخلت الاكدية واعتمدت لغة رسمية للدولة كان على الكتاب تعلم المصطلحات الجديدة ومعرفة مقابلها بالسومرية وقد نقلت عن السومرية الى الاكادية آداب السومريين وعلومهم في اقدم عملية بعث ثقافي في

التاريخ قبل حركة الترجمة العربية وقبل عصر النهضة الاوربية بقرون عديدة . ومعنى ذلك ان الترجمة كانت معروفة في الالف الثالث ق.م . يؤكد ذلك ما عثر عليه من قوائم معجمية سومرية إيبلائية في إيبلا وفي غيرها . وعندما تعددت اللغات وتشابكت العلاقات الاقتصادية والسياسية والدبلوماسية كان لا بد من تعلم بعض الكتاب في الدواوين لعدد من اللغات . وقد انشئت دواوين رسمية للعناية بالمراسلات . ووجدت وثائق العمارنة المكتوبة بالمسمارية في مصر . وكتبت المعاهدة المصرية ــ الحثية على نسختين بلغتين بالمصرية والحثية وعثر في اوغاريت على وثائق مكتوبة بأكثر لغات العصر اهمية . واوجد الفرعون المصري مدرسة للترجمة بعد تنامي العلاقات التجارية بين مصر والعالم الهليني في القرن السادس ق.م .

وقد وجدت في مصر والرافدين صفوف متقدمة للدراسة العليا بعد ان يكون التلميذ قد قطع اشواطا في تعلم الكتابة والقراءة . عندها يتعلم الامثال والقصص والخرافات والاساطير والملاحم والنصوص التاريخيـة والتذكارية . ويطلع على المعارف العامة في الرياضيات والمقاييس . . ويمكن ان تلحق بالمدرسة وبخاصة تلك التي يشرف عليها الكهان في المعابد صفوف لتعليم الموسيقى والعزف . هكذا كانت المدرسة مؤسسة عملية لادارة الحياة اليومية .

اما المكتبات فكان يشرف عليها قيمون امناء يجمعون النصوص المسطورة على الالواح او على لفائف البردي ويصنفونها ويضعونها في اوان واوعية فخارية او خشبية . . . كانت توضع عليها علامات مخصصة لتمييزها والتعرف عليها بسهولة عند طلبها . ولكن كانت تتبع طرق اخرى للتصنيف والترتيب ، فتصف الالواح على رفوف خشبية الواحد بجانب الآخر او يمكن ان يصف بعضها فوق بعض كما في مكتبة نينوى العاصمة الآشورية .

وقد اضحت مكتبة نينوى اهم مكتبات الامبراطورية الآشورية لما شملها به الملك آشور بانيبال اشهر ملوك آشور من رعاية (١٨) . فقد حشد عددا كبيرا من الكتاب والنساخ ، وأمر باعادة نسخ كل النصوص التي وضع يده عليها فاجتمع لديه عشرون الف نص او مقطوعة بكتابة رائعة وبخطوط جميلة متناسقة ومتقنة . واهم عناوين مكتبة نينوى تتعلق بالكهانة وفيها معاجم وقوائم متنوعة ونصوص دينية . اما الادب فيمثل الجزء الاقل وكذلك النصوص ذات الصفة التاريخية .

الا ان اهم مجموعة من النصوص الآشورية التاريخية هي التي وجدت في مكتبة كلحو في معبد « إزيدا » وتشمل نصوصا ووثائق وحوليات عن اعمال الملوك من زمن شمشي أدد الرابع الى آشور بانيبال ، نشرها لوكمبل عام ١٩٢٧ .

وعثر على مكتبات اخرى كانت تضم نصوصا طبية ودينية على الاغلب ، اما مكتبة حران فقد ضمت نصوصا متنوعة ادبية ودينية وتاريخية .

وكان الكتاب يوقعون اعمالهم باسمائهم ومن إشهر كتاب آشور : نابو - شالمشونو Nabu Salimsunu الذي كتب تقريرا مفصلا موجها الى الاله آشور عن الحملة التي قادها شروكين الثاني على بلاد اورارتو في اواخر القرن الثامن ق.م . وهو من اعظم النصوص المكتوبة بالمسمارية فصاحة وبراعة ودقة . وقد نشر هذا النص العلامة فرانسوا تورو دانجان ، أحد اساطين الدراسات المسمارية في مطالع هذا القرن(١٩) . لقد كانت الآشورية لهجة من اللغة الاكادية كما كانت البابلية لهجة اخرى . ولقد قدر لهذه اللغة الاكادية ان تسود بلاد الجزيرة والرافدين وان تنتشر في كل الاوساط المتعلمة وفي قصور الشرق الادنى القديم والى جانب لغات اخرى في سورية وفلسطين ومصر .

اما مكتبات اوجاريت فهي صورة واضحة على ثقافة العصر فهي تحمل آثارا محلية ورافدية وشمالية اناضولية ومصرية ومتوسطية ،

ووجدت في مكتبتها الملكية ومكتباتها الخاصة معاجم للغات السومرية والاكدية والحورية والحثية الى جانب الاوجارتية .

وكانت المكتبات في مصر القديمة ملحقة بالمعابد . ففي معبد دندرة مثلا توجد قاعة تدعى قاعة الكتب وعلى بوابتها نقشت صورة تمثل لوح الكاتب . وفي معبد إدفو قاعة مماثلة وعلى الجدار نقشت اسماء الكتب الموجودة في القاعة . وكانت ملفات البردي تحفظ في جرار او في مغلفات ودروج من الآجر وتحفظ في الطابق الارضي .

هكذا نستطيع ان نقدر وجود وحدة ثقافية تاريخية في هذا الشرق العربي القديم اساسها هذا التراث الثقافي المكتوب في الالف الثاني ق.م باللغة الاكدية والخط المسماري . **هذه اللغة الاكدية التي ينبغي ان نعتبرها اقدم ما كتب من لغات المجتمعات العربية** القديمة ، من هذه اللغة اعني الاكدية يمكن ان نستخرج اقدم كلام عربي انتقل من الخطاب الشفوي الى اللغة المكتوبة المدونة . وهذه مهمة خطيرة ودقيقة تدعو الباحثين للاهتمام بها للتعمق في تاريخ اللغة العربية ومفرداتها والفاظها وعندئذ سنجد ان لهذه اللغة العربية تاريخا حقيقيا لا يعود الى ما قبل الاسلام ببضعة قرون وحسب بل يرتقي الى ما قبل ذلك بقرون عديدة تصل الى حوالي منتصف الالف الثالث ق.م . ان معاجم اللغة الاكدية وهي مطبوعة الآن تؤيد ذلك وترفدها المكتشفات المدهشة في إيبلا وغيرها.

ولكن **العصر الهلنستي** ، اي عند التقاء الشرق بالغرب بعد فتوحات الاسكندر المقدوني هو الذي شهد تاسيس المكتبات المستقلة بالمعنى الحقيقي ، شيدت لها مبان مستقلة واقيمت الى جانبها مؤسسات علمية ومنشآت لمساعدة الباحثين والعلماء على القيام بالبحث العلمي الحقيقي بعيدا عن اي ارتباط بالغيبيات كما كان الامر في الشرق القديم . واهم هذه المكتبات هي مكتبة بطلميوس الاول في الاسكندرية التي جمع فيها العلماء الذين قاموا على انشائها وتنظيمها ٨٠٠,٠٠٠ مجلدا اي ملفا من البردي وكانت تضم ٣٠,٠٠٠ عنوانا ولها فهارس مبوبة . كانت المكتبة الكبرى في العالم الهلنستي كله . وهنا يتساءل المرء لماذا اقيمت المكتبة العظمى في ذلك العصر على ارض مشرقية لو لم يكن التراث الشرقي هو

الاغنى والاعظم . ثم ان مصر كانت حينئذ بلد البردي ، البابيروس ، ورق ذلك العصر . لكن المكتبة احرقت وسرقت مرات متعددة كان اخطرها عندما التهمتها النيران عند مهاجمة القائد الروماني يوليوس قيصر مصر كليوباترة وانطونيوس ضاع بعدئذ ذلك المعلم الحضاري العظيم وضاعت الكتب والملفات وزالت من الوجود .

وقد نافست مكتبة الاسكندرية مكتبة مدينة برغام على ساحل بحر ايجه التي شيدت على عهد الملوك الاتاليين خلفاء روما ، وفي هذه المكتبة عمل النساخون على نسخ المؤلفات على الرق لاول مرة وعلى ترتيبها وتجليدها ، ثم كانت هذه المدينة مصدر الرق الذي صار ينافس البردي في حمل الكتابة ونشرها وعرف باسم المدينة بارشمان .

ثم ورثت الامبراطورية الرومانية إرث الشرق العظيم وحضارات البحر المتوسط وازدهت روما بمكتباتها العظيمة في العصر الامبراطوري(٢٠) : مكتبة اوكتافيوس ومكتبة البالاتين ومكتبة ترايانوس

حتى بلغ عدد مكتبات روما عشرين مكتبة هامة وعامة في اواخر القرن الخامس للميلاد اي قبيل سقوط الامبراطورية . هذا عدا عن مكتبات نيرون وكركلا الخاصة . ومن اهم المكتبات في المدن الاخرى : مكتبة اثينة في اليونان وتمغات في شمال افريقية . وعلى الرغم من النكبات والمآسي فقد زاد عدد المكتبات في القرن السابع الى ٢٨ مكتبة عامة . لكن الغرب غرق بعدئذ في ظلام دامس طوال العصور الوسطى

ولا حاجة الى تكرار القول ان اعظم المكتبات في العالم خلال تلك العصور هي مكتبات العالم العربي الاسلامي : في بغداد والقاهرة وقرطبة وحلب وطرابلس وبخارى ، ونيسابور . . .

وبينما قفزت العلوم والمعارف والاداب قفزات واسعة الى امام في مدارس وجامعات ومكتبات العالم العربي الاسلامي التي تلاقى فيها ما

خلفه الاوائل من السريان واليونان والهنود والفرس والاقباط مـن التراث القديم بما ابدعه المبدعون من الشعراء والعلماء واللغويين والمفكرين العرب والمسلمين ، بينما كان يجري كل هذا على ارض الوطن العربي بقيت القسطنطينية هي موئل التراث الاغريقي ـ الروماني في العاصمة الروماقية الشرقية وبقيت مكتبتها خزانة الثقافة الكلاسيكية القديمة المتدهورة .

اما في الغرب فقد انتقل عبء التعليم والكتابة والنسخ الى الاديرة والجامعات التي تولى أمورها الرهبان ورجال الدين اللذين كـان هدفهم توفير افضل الوسائل لاعداد القانونيين والمفسرين والمعلمين في الدول والامارات التي تكونت في اعقاب الغزوات الجرمانية

وينبغي أن يُعرف بالطبع ، وان كان من الصعب الاحاطـة بكل التفاصيل : ان المكتبات كانت معروفة وموجودة في حضارات الشرق الكبرى : في الهند والصين وبلاد الخمير .

ولكن في حين اخذ الشرق يتدهور متراجعا لاسباب لامجال الآن لعرضها كان الغرب يتقدم بخطى قصيرة وئيدة ولكنها ثابتة وراسخة . كانت البدايات محدودة وصغيرة ولكنها عظيمة في حينها . اخذت تتكون المكتبات الى جانب المدارس والجامعات ففي القرن الثالث عشر كانت مكتبة السوربون مثلا ، بفضل مؤسسها روبر دوسوربون تضـم الف كتاب ، وهو رقم لا يقارن بما كانت تضمه مكتبات المدن العربية الكبرى آنذاك ويقل كثيرا عما تضمه كثير من المكتبات الشخصية ولكن الرقم مهم بالنسبة لذلك العصر .

ثم عند قيام عصر النهضة في اوربة ظهـر اتجاه قوي للتجديد اثر تأثيرا قويا في نشر الكتابة والمعرفة باحياء التقاليد الكلاسيكية الاغريقية الرومانية ، فعمل رواد النهضة وبخاصة بترارك وبوكاشيو على تأسيس اثنين من اعظم مؤسسات العصور القديمة : الاكاديمية والمكتبة في البندقية

وفي جامعة براغ (اواسط القرن الرابع عشر) والفاتيكان ، والمكتبة الامبراطورية في فينا (القرن الخامس عشر) ومكتبة فرانسوا الاول ملك فرنسة التي كان من اعظم امنائها الانساني الكبير غيوم بوديه ، ثم مكتبة فلورنسة التي وضع مخططها ميكيل انجلو ، (من القرن السادس عشر) ، ومكتبة اوكسفورد (من القرن السابع عشر) . واخذت تتحدد بعد ذلك مهمة الكتاب والمكتبة في الحياة الفكرية : توفير دراسة المصادر ونشر النصوص والمؤلفات الكبيرة والهامة ، وقد ساعد على ذلك انتشار الطباعة وتزايد اهمية الكتاب في صناعته واعداده وصناعته ونشره وتسويقه وظهور الصحف والمجلات العلمية ..

ثم ظهرت المكتبات الوطنية في القرن الثامن عشر واقدم مثالين عليهما : مكتبة مازاران وزيرلويس الخامس عشر التي اضحت مكتبة المجمع الفرنسي ومكتبة المتحف البريطاني اعظم مكتبتين في اوربة في ذلك العصر .

ان تطور وسائل المعرفة والثقافة يطرح على المكتبة في هذا العصر مسؤوليات جسيمة بعد تنامي انتاج الكتب والمجلات والدوريات والوثائق والصور والبطاقات الفهرسية باشكالها المختلفة والاختام والمخططات والنقود والمخطوطات والنقود والميداليات .

وقد اقتضت الحاجة في عصرنا تزويد المكتبات بادوات واجهزة للمراجعة واعداد الافراد المختصين بالمكتبات للقيام بكل الاعباء الموكولة اليهم ، ولتوجيه القارىء والباحث ومساعدتهما .

وان تأخر اي بلد في اعداد المكتبات اللازمة للاغراض المعرفية والثقافية والعلمية المختلفة يعود بالضرر الكبير على المجتمع في عصرنا الراهن وفي المستقبل لان ابناء اليوم هم مواطنو المستقبل وهم الذين سيصبحون مسؤولين عن مستقبله لاجيال قادمة

ان دراسة واعية وموضوعية ورقمية لمحتويات المكتبات في قطرنا العربي السوري ولحجم الافادة من مخزونها ومستودعاتها بالقياس الى

مكتبات العالم الانكلوساكسوني والجرماني والاسكنديناڤي والاشتراكي ليظهر لنا ما يتوجب علينا القيام به من اعمال كبيرة ايضا لتدارك ما نحن فيه على صعيد الكتابة والقراءة والمطالعة واستهلاك محصلات الكتابة .

الا ان المرء لا يسعه ونحن نتحدث في هذا الصرح الثقافي العظيم ونحن نشهد بأم العين الجهود الجبارة التي تبذل ونرى الى الثمار اليانعة التي تثمر الى ان يرى في ذلك بارقة الامل في تحقيق كل ما نصبو اليه واللحاق بركب الحضارة والثقافة الذي تأخرنا عنه حينا ولكننا نهضنا لنسترد دورنا بين المتسابقين اليه ترمقنا عيون التاريخ المجيد .

لم تعد الكتابة تأهيلا فرديا وكسبا شخصيا يعود بالنفع على صاحبه انها اداة تعليمية ثقافية لا يمكن لاي انسان الاستغناء عنها حفاظا على كيانه وشخصيته وحريته في هذا العصر الذي يلقي على كل انسان تجاه اي قرار يتخذه مسؤولية كبرى . واضحى تملك هذه الاداة على الوجه الافضل مرتبطا بمؤسسات منها التعليم وصناعة الكتاب والمكتبة .

ان المكتبة بالمعنى الذي نقصد اليه ليست ترفاً وليست من الكماليات التي يمكن الاستغناء عنها هي المدرسة والجامعة ، مدرسة التعليم الذاتي والجامعة الحقيقية لتكوين الانسان المثقف والمواطن الرشيد والمفكر الباحث . . .

ان المكتبة بوظيفتها الحقيقية يمكن ان تكون مؤسسة التجهيز العلمي والثقافي في المجتمع ، لتسوية المجتمع وتوحيده لغة وثقافة وعقلية عندما يمكن اعدادها وتوظيفها لتحقيق هذا الغرض وعندما يجد فيها الانسان أمام التساؤلات التي يطرحها على نفسه ويطرحها العصر الراهن على الانسان ، المكان الافضل الذي يعثر فيه على الجواب الافضل عن كل سؤال مطروح .

كانت مكتبة الاسكندرية تمثل عصرا وارثا ثقافيا هو التراث الوثني الاغريقي والروماني ، ومثلت مكتبات العواصم العربية التاريخية عصراً

آخر تلاقت فيها محصلات الثقافات الانسانية كلها حين عمل فيها الكتاب والنساخ والمترجمون والمفسرون بروح من التسامح الرائع لم تستوعبه حتى الحداثة المعاصرة على حد تعبير الباحث الفرنسي جان بيير باردو .

هكذا نجد لكل من المكتبات العظمى في هذا العالم المعاصر لونا مميزا كتميز الثقافات الخاصة بالامم الكبرى ، المكتبة الوطنية في باريس ، مكتبة المتحف البريطاني ، ومكتبة الكونغرس الامريكي ومكتبة لينين في موسكو . فهل يكون لمكتبتنا العربية السورية دورها الرائد الذى نلمس تباشيره في تكوين ثقافة عربية معاصرة مميزة ؟

ان الكتابة بعد أن تضاعف حجمها بتطورها من المخطوط الى المطبوع غدت مؤسسة ضرورية أساسية لنشر المعرفة في المجتمع المعاصر ، المعرفة اللازمة والضرورية والمطلوبة للمجتمع كله : للباحثين العلميين والدارسين ولطلاب المعرفة العامة . لا بد للمكتبة من ان تواكب بمحتوياتها مقتضيات العصر . فلقد تنوعت المعارف واتسعت وتمادت حتى شملت العالم واضحت منذ الحرب العالمية الثانية العامل الاساسي في كل هذه التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي اصابت هذا العالم الذي نعيش فيه وما تزال تحركه .

ولقد اضحى استيعاب التراث الثقافي الماضي وتنظيمه وتقديمه للقارىء والمتعلم والباحث ، لكل فئات المواطنين ومن كل الاعمار في كل بلد عملا اساسيا له مردود اقتصادي لانه يسهم في تكوين الانسان وفي تربيته اي في اعداده لكي يكون مواطنا وانسانا مفيدا ومنتجا . اننا عندما نفكر في موقعنا على مدرج الزمن ونحن على ابواب القرن الحادي والعشرين لا يفصلنا عنه سوى اربعة عشر عاما ، تغدو مسؤولية الجيل الحاضر امامنا مضاعفة تجاه الاجيال المقبلة ، عندما يكون على هذا الجيل اعداد المكتبات وتجهيزها وتزويدها بما انتجه عصرنا الراهن من انتاج فكري وعلمي هائل للاجيال القادمة .

وبعد هذا ، اسمحوا لي ، ان انتقل الى جانب آخر من جوانب هذا الموضوع التي نعالج فيه الارتباط التاريخي ما بين الكتابة والحضارة ، وهو الحديث عن الطباعة بوصفها عملية تصنيع الكتابة . لكن سيكون من المتعذر تناول كل فروع الموضوع وشعبه ولذا سأقصر حديثي على عرض مشكلة تاريخية يشار اليها برفق ولكن آن الاوان لطرحها بقوة .

من اخترع الطباعة ؟

اجاب ايتامبل وهو باحث قدير في تاريخ الكتابة مقالة هامة عن « الكتابة » في الموسوعة الفرنسية (١٩٨٥) قال فيها : لقد آن الاوان للخلاص من هذه الخرافة القائلة بان الالماني جان غوتنبرغ هو الذي اخترع الطباعة . ان الطريق طويل من الاختام الاولى التي استخدمها حكماء الطاوية وكهانها في الصين والتي استخدمت لاغراض سحرية الى الاختام المحفورة على الحجر والمرسومة بعد ذلك عند الكونفوشيوسيين ثم الواح الاخشاب المحفورة عند الرهبان البوذيين الى المطابع الحديثة التي تطبع يوميا في طوكيو عشرة ملايين نسخة من جريدة « اساهي » أهم جريدة تصدر يوميا على هذه الارض (٢٢) .

طريق الطباعة من الصين الى اوربا :

لقد عرف الورق في الصين قبل الميلاد بقرن على الاقل وكان يصنع من الخرق ووصل في القرن الثالث الى تركستان . وفي القرن الخامس حل الورق محل البامبو ومحل الحرير كحامل للكتابة ، وانتشر في ذلك الوقت استخدام الحبر الاسود الذي يصنع من سناج (سواد الدخان) خشب الصنوبر . فمع الخاتم والحبر وكبريتور الزئبق (الزنجفر) الاحمر والورق اوجدت اذن كل العناصر اللازمة لفن الطباعة . ومن الجدير بالملاحظة ان العلامة الدالة على الختم البدائي البسيط في الكتابة الصينية

هي نفسها التي تدل على الآلة الطابعة الحديثة . علامة واحدة تدل على الختم والطابعة .

ووصل الورق الى المشرق العربي ، الى مصر في القرن الثامن ، وبعد قرن اي في القرن التاسع وصل الى اسبانية ، وفي القرن الثاني عشر الى ايطالية ، وفي القرن الثالث عشر الى المانية ، وفي القرن الرابع عشر الى انكلترة . وقد استأثر الصينيون والعرب بصناعة الورق الف عام . فقد استطاع الصينيون الاحتفاظ بسر صناعته خمسة قرون ، ونقل سره الى العرب اسرى صينيون في سمرقند واحتفظ العرب بهذا السر خمسمائة عام . ولكن منذ القرن الرابع عشر استطاعت دول اوربية عديدة ان تصنع الورق في معامل خاصة بها ، (فرنسا في ١١٨٩ ، ايطالية ١٢٧٦ ، المانية ١٣٩١) . لكن المطبعة لم تكن حينئذ قد اوجدت بعد في اوربة .

ولكن الصين كانت تعرف الطباعة منذ زمن اسرة تانغ (٦١٨–٩٠٧) وعلى نطاق واسع ، وهي الفترة الموازية لازدهار الحضارة العربية . وكانت تطبع كتب السحر والمعارف الدقيقة والتعليم . وقد عثر البحاثة الفرنسي بول بلليو في الصين على كتاب بعنوان « حكم من الماس » وهو يضم مجموعة من الحكم تلخص التعاليم الهندية « سوترا » تلخص التعاليم الهندية في الدين والحكم والحياة اليومية .. يعرف من خاتمته ان طابعه هو وانغ جيي ، وتاريخ طباعته ١١ ايار ٨٦٨ ، وقد طبعه لكي يوزع مجاناً على كل الناس لكي تخلد بكل احترام ذكرى ابويه » . يتساءل ايتامبل مستغرباً ، ونحن نسائل انفسنا معه : كيف استأثر جان غوتنبرغ اذن بالشهرة ، واهمل « وانغ جيي » الذي ينبغي ان يكون اكثر شهرة منه ؟

وهناك شاهد تاريخي آخر : عندما طبع في اليابان عام ٧٧٠ على الورق ، وبقالب خشبي مليون تعويذة بنفس اشكل والصورة مخصصة لمليون هيكل ومزار ، مر هذا الحدث بكل بساطة مع انه ينبغي ان يعتبر

حدثاً تاريخياً من احداث التاريخ العالمي . وهو مع اهميته فان احداً من غير المختصين في العالم الغربي كله لا يتحدث عن هذا الموضوع ، ولا يسجل هذه الحقيقة وهي اختراع الطباعة في الشرق وبصورة محددة في الصين وانتقالها منها الى أوربة .

ومع ذلك فان الحقيقة لا يمكن ان تحجب الى النهاية . فقد نشر مؤلف منصف ومبدع هو فرانسيس كارتر(٢٣) كتابا ممتازا عن تاريخ الكتابة . وقد لفتت انتباهي الى هذا الكتاب اشارات مرجعية منذ سنوات دون ان اتمكن من الاطلاع عليه . وقد اشير فيه الى كتاب الفه بالصينية تاي تنج بعنوان تاريخ الكتابة الصينية ونشر في القرن الثالث عشر .

ويعلق اتيامبل على هذه الحقائق تعليقا صارخا ، بلسان الوسط العلمي الغربي كله : « اننا نقف رغم ذلك بجهلنا وتبجحنا الى جانب جوتنبرغ(٢٥) » .

ولا يقف الامر عند هذا الحد . اذ يمكن متابعة سلسلة انتشار الطباعة في الصين والشرق . ففي القرن العاشر نشر الصيني فنغ داو اول طبعة من تعاليم كونفوشيوس ، واخترعت الحروف المتحركة من الخزف . وازدهرت الطباعة في عصر اسرة سونغ (٩٦٠ – ١٢٧٩) ونشرت تعاليم البوذية وكتب متنوعة في التاريخ .

ويبقى التساؤل الذي يطرحه بعضهم : ان العرب وجدوا باعداد كبيرة في كانتون وغيرها في عصر اسرة تانغ ثم في عصر اسرة سونغ ، لكنهم على الرغم من اهتمامهم باشياء عملية كثيرة فانهم لم يلتفتوا الى طريقة الكتابة الصينية والى ادواتها . الا انه من الصعب ابداء الراي بهذا الموضوع الآن وهو أمر جدير بالمتابعة .

والحق ان المغول الذين اكتسحوا العالم القديم واقاموا في الصين والهند وايران أسرات حاكمة ووصلت جيوشهم المدمرة الى حوض البحر

الاسود واطراف اوربا الشرقية ، كانوا عاملا هاما في نقـل الحضارات وتفاعلها وتبادلها ففتحوا ابواب الصين لتاثيرات حضارات الشرق الادنى ونقلوا معطيات الشرق الاقصى الى مدن اوربا ، ومنها اللوحات المطبوعة ، المرسومة والمنقوشة ، ومنها كتب في التقاويم التي تتضمن معلومات عامة جغرافية وتاريخية واجتماعية ومواد مغريـة ومشوقـة كسلسلة اللوحات المعنونة بالعنوان الطويل « النساء الجميلات اللائي عملن من اسرة حاكمة الى اخرى على انهيار الامبراطوريات »

لم تستخدم الطباعة في اول امرهـ الثقافة بالدرجة الاولى ، بـل استخدمت للاثارة والترفيه ، كاثارة الدهشة والاستغراب او الجنس ، وقد كانت تتداول في الاوساط الارستقراطية العليا . وهكذا نرى ان هـذا الاختراع العظيم في تاريخ الثقافـة الانسانية قـد اسيء فهمـه واستخدامه في بادىء الامر ، فكما استخدمت الطباعة في بداياتها لاغراض هامشية او سلبية في حياة الانسان الثقافية نشهد الان في ايامنا استخداما تعـسفيا وتافها احيانا لاجهزة الحساب والتسجيل والاعلام المصـرفي الالكترونية كالمسجلة الزيائية والفيديو والحاسب الآلي .

اننا ونحن نتحدث عن الكتابة والطباعة ينبغي علينا الا ننسى ان فكرة الطباعة قديمة في التاريخ فلقد استخدمت الاختام باشكالها المختلفة ، وعلى الاخص الاختام الاسطوانية المنقوشة والمحفورة والمزينة بالرسوم والكتابة في المشرق العربي في الالف الثاني ق.م وان تطبيق الطباعة عرف في الصين قبل ان يعرف في اوربا بزمن طويل . فقد وصف الرحالة الاوربيون طباعة النقد على ورق كاغد بخاتم مخصوص ومنهم ماركو بولو (القرن الثالث عشر) ، والرحالة العرب (ابن بطوطة) (في القرن الرابع عشر) وذكروا ايضا كيف شنت اقسى العقوبات لضمان حماية النقـد من التزوير وسوء التصرف به

وجاء وصف مهنةالطابع عندرشيد الدين مؤرخ عصر المغول في القرن الرابع عشر فيما كتبه بالفارسية والعربية قبل ان تصل الطباعة الى

مرحلة الحروف المتحركة . وفي هذه المرحلة جرت محاولات اولية في اوربة لتطبيق وصف لطريقة استخدام الحروف المتحركة في رسالة للكاتب الصيني وانغ زينغ . لكن الشرق بقي متفوقا على الغرب في مجال الطباعة فبينما بدىء في الغرب بصنع حروف متحركة من الخشب ، كانت كوريه تصنع الحروف من المعدن .

وليس عبثا ، كما تشير الدراسات حول تاريخ الطباعة ، أن تكون المطابع في براغ والبندقية وبافاريا (جنوب المانية) ، اي في المناطق الاقرب الى الشرق والاكثر احتكاكا به تجاريا وحربيا عن طريق الاتراك والمغول . ويلاحظ الباحثون المختصون ان بين المطبوعات الاولى المعروفة في هذه المرحلة مطبوعات عديدة بالصينية والسنسكريتية ولغة الاويغور التركية . وامام هذه المعطيات المهملة يصرح ايتامبل قائلا « انه يلزم قدر من الحماقة والتمركز الاوربي حول الذات لنفي الحقائق وانكارها ، فقبل غوتنبرغ اخترع الورق والحبر واستخدمت الطباعة بضغط الاختام وبنقش صفحات الكتب على الخشب وطبعها بالضغط ، واخترعت الحروف المتحركة الخشبية والمعدنية ، كل هذه المراحل اخترعت في الصين وطورت وحسنت في كورية . »

وينبغي الا يغيب عن البال ، ان الحبر وورق البردي (بابيروس ، ومنها الكلمة الدالة على الورق في معظم اللغات الاوربية) كانا معروفين في مصر منذ الالف الثالث ق.م . وما تم في اوربة انما هو تحسين للورق الذي صار يتحمل الطباعة على الوجهين ، وتحسين تركيب الحبر الذي صار يمكن استخدامه مع الحروف المعدنية المتحركة .

بعد هذا الاستعراض الواسع للكتابة ونظمها وتطور مؤسستها هل يمكن ان نطرح السؤال المستقبلي : **هل تحل كتابة عالمية محل الكتابات المتعددة لكي** توجد وسيلة للتواصل مابين البشر بالكتابة ، ان لم يكن بالمستطاع ايجاد لغة مشتركة . لقد حاول ديكارت (١٥٩٨ ــ ١٦٥٠) تعريف هذه الكتابة ثم حاول لايبنتز (١٦٤٦ ــ ١٧١٥) الكشف عنها

ومعرفتها واعتقد انها الكتابة الصينية ، والمح بفلسفته المستقبلية المتفائلة الى امكانات التفاهم الانساني تكون من وسائلها كتابة مشتركة ربما تكون الصينيّة اداة لها

وليس ما تحدث عنه لايبنيتز مجرد فكرة عابرة . فقد قدم الدليل على امكاناتها بأمثلة منها : ان العلامة المكتوبة بالصينية يمكن قراءتها أيضا بكل لسان آخر بالاضافة الى اللسان الصيني ، لان العلامة ـ الرمز تمثل معنى ولها قيمة صوتية . فالعلامة الصينية الدالة على معنى « كبير » مثلا تقرا بالصينية « دا » . ولكن ليس ما يمنع ان تقرا هذه العلامة نفسها باللغة العربية « كبير » أو « طويل ».. وبالالمانية «gross» وبالانكليزية «tall» او «high» او «big» . وهي كلمات تنطق بلغات مختلفة لكنها تؤدي المعنى نفسه .

ويقول كارلجرن الباحث السويدي المختص بالصينية معقبا : ان الصينية تكتب وتمثل ، وهي الكتابة التي يمكن ان تصبح كتابة الغد بشرط الا يتخلى الصينيون عن العلامات الفكرية في كتابتهم ، اي تلك العلامات التي تقرا كل منها كلمة ولها قيمة صوتية ، وعلى الا يعدل الصينيون نظام كتابتهم .

ويمكن ان نذكر بهذا الصدد ان هناك وسائل عالمية للتعبير منها « لغة» الموسيقا ، و « لغة » الارقام . فالارقام ترسم بأشكال مصطلح عليها وتقرا بلغات مختلفة . هل يمكن للعقل ان يتوصل يوما ما الى وضع قواعد لكتابة عالمية ؟ ربما تكون اولى الخطوات نحو هذا الهدف الاتفاق على توحيد كتابة ونطق اسماء الاعلام والاسماء الجغرافية التي تتداولها الاخبار العالميــة .

والآن ونحن في خاتمة المطاف حول هذا الموضوع ، الكتابة والحضارة، **ما شان الكتابة في الثقافة بعد دخول الوسائل السمعية البصرية في حياة الناس اليومية والعلمية ؟** هل تبقى الكتابة اداة لا يستغنى عنها من اجل

المحافظة على المعارف وعلى قيم الماضي ، ان لم نقل على التراث الحضاري للانسان ؟ انها على الاغلب لن تموت بعد أن بقيت عصورا واسطة للتعلم والتعليم ولتحصيل المعرفة وللتربية والثقافة لدى كل الشعوب . وستبقى مهما طرا على اشكال استخدامها من تطوير في الاساليب ومهما ادخلت عليها من آليات وتقنيات اداة للتواصل بين الافراد والجماعات فكريا وثقافيا . الا انه لابد من الاعتراف بالطبع ، بأن كتابات بعض الاقوام والامم الضعيفة ثقافيا قد تتأثر بالغزوات الثقافية وتحركاتها وآلياتها .

انه مهما يكن من أمر فان المشكلات المطروحة حول الكتابة في حاضرها ومستقبلها ضمن اطار حضارة اليوم والغد تستدعي من كل جيل التفكير والبحث طالما ان كل مظاهر الحياة الانسانية تتحرك وتتطور وتتغير في عالم تتراجع فيه الثوابت امام المتغيرات الغالبة .

لنذكر ، اخيرا ، انه منذ فجر التاريخ وفي كل ادواره المتعاقبة احتل العارفون بالقراءة والكتابة مكان الصدارة وتجاوزوا مواقعهم في مدارج السلم الاجتماعي التي كانوا ينسبون اليها بحكم التصنيف الاقتصادي المادي للطبقات والفئات الاجتماعية . فهل يتخلى الانسان في عصرنا الراهن عن الكتابة بوصفها عامل امتياز واداة فذة للاتصال الوثيق والتعامل الايجابي المباشر مع مصادر المعرفة ليصبح متلقيا سلبيا امام الصورة والصوت ، وليقف كما كان يقف المتعلم في عصور مضت ليتلقى المعرفة شفهيا من الراوية والخطيب والشاعر ؟

الحواشـي :

(١) Charles HIGOUNET, L'Ecriture, P.U.F. (Paris 1969). p. 7.

(٢) G. R. DRIVER, Semitic Writing.. (London 1948, Oxford 1954).

(٣) حول تطور الكتابة والخط الى الابجدية انظر
D. DRINGER, The Alphabet, (London 1948)

(٤) الرجع السابق .

(٥) L. OPPENHEIM, La Mesopotamie, (Original : Ancient Mesopotamia 1964), (Paris 1970) p. 238.

(٦) انظر النصوص الارامية القانونية في :
B. PORTEN, Archives from Elephantine, (Berkeley 1968)
Y. MUFFS, Studies in the Aramaic Legal papyri from Elephantine(Studia et Documenta ad Iura Orientis Antiqui Pertinentia, VIII, Leiden 1969).
P. GRELOT, Documents araméens d'Egypte, (Paris 1972).

(٧) انظرحول الادارة والقانون في مصر في الدولة المصرية الوسطى والحديثة :
H. W. HELCK, Zur Verwaltung des Mittleren und neuen Reiches (Leugen & Köln 1958);
محمد حرب فرزات ، محاضرات في تاريخ الشرق الادنى القديم، مصر القديمةوحضارتها (دمشق ١٩٨٢) ص ٢١٩ – ٢٢٦ . والحاشية ١ ، ص ٢٢٣ .

(٨) فوزي رشيد ، الشرائع العراقية القديمة ، بغداد ١٩٧٩ ،

A. FINET, Lecode de Hommurapi, (Paris 1973).

(٩) انظر حول الديانة في بلاد الرافدين :

E. DHORME, Les Religions de Babylonie et d'Assyrie, 2 vols. (Paris 1945); J. BOTTERO, La Religion Babylonienne, (Paris 1952); L. OPPENHEIM, La Mésopotamie, op. cit p. 182-192.

(١٠) L. Oppinheim, op. cit. p. 241.

(١١) A. HEIDEL, The Babylonian Genesis,(Chicago,1942-1951)

(١٢) H. Junker, Die Götterlebre von Memphis, Berlin (1940).

(١٣) L' OPPENHEIM, La Mésopotamie ... opcit 241-242.

(١٤) سفر العدد ، الاصحاح ٢١ ، العدد ١٤ : « لذلك يقال في كتاب حروب الرب ... »

(١٥) L. OPPENHEIM, op. cit p. 242.

(١٦) F. Daumas, La civilisation de l'Egypte pharaponique (Les grandes civilisations, Arthaud, Paris (1977), p. 380-381.

انظر ايضا حول التعليم في مصر القديمة بالالمانية :

H. Brunuer, Altägyptische Erziehung, wiesbaden, (1957)

(١٧) D. Arnaud, Le Proche Orient ancien Bordas, Paris (1970), p. 40.

(١٨) H. W. F. Saggs Assyria, London (1984) p. 279.

(١٩) F. Thureau - Dangim, une relation de la huitieme Campagne de Sargon (714 avant J. Chr.), Paul Geuthner, Paris (1912)

(٢٠) Guy Rachet, Dictionnaire de l'archeologie (Bibliothèque).

(٢١) J. P. Bardot, Biblothèque in Encyclopadia usiversalis, (1985).

(٢٢) Etiemble, Ecriture, E. U. 1985.

انظر ايضا كتابه :

L'Ecriture, Paris, (1961).

(٢٣) A. W. Macdonald, La Chine dans Histoire Universallez p. 1467-1477.

(٢٤) F. Carter, The inventing of Printing and its spread Westward. 2e ed. rev. par L. C. Goadrich, New York (1955)

(٢٥) Etiemble, ibid.

* * *

أمين الجندي
رائد الحركة الشعرية في البلاد الشامية

عبدالفتاح قلعه جي

مناخات العمل الادبي ـ حياته وديوانه

مقدمة :

يتناول اغلب النقاد والدارسين الفترات الاكثر وضوحا في تاريخ الادب ، والادباء الاكثر شهرة ممن نالوا قسطا وافرا من الدراسة،ومما لاشك فيه ان لدراساتهم واضافاتهم قيمتها ، لكن فترات اخرى من تاريخ الادب بقيت غامضة لم تكتشف ، وادباء آخرين لم تسلط عليهم اضواء الدراسة .

لهذا فان اختيارنا هذه الفترة الانتقالية بين عصرين ادبيين ، والممتدة من النصف الثاني من القرن الثامن عشر الى النصف الاول من القرن التاسع عشر كان مقصودا ، وقد اخترنا من ادبائها المخضرمين الشاعر الشيخ امين الجندي ابرز شاعر في المنطقة العربية في هذه الفترة .

ومن المثير للدهشة حقا ان يكون امين الجندي امير شعراء الشام بلا منافس ، والنجم الاكثر سطوعا ، مالىء الدنيا وشاغل الناس بسيرتـه . فهو متنبي عصره ـ كما وصفه معاصروه ـ وما يحفظه الناس من اشعاره اكثر مما دون في ديوانه ، وفي اطار القيم النقدية السائدة كان مدرسة في الشعر يحتذى ، ومع ذلك فانه لم يحظ باية دراسة ، شانه في ذلك شأن باقي الشعراء في عصره ، كانما سقطت هذه الفترة الغنية مـن الذاكرة الادبية .

لقد حظي مطلع عصر النهضة بالدراسة من خلال نتاج أدباء مصريـين ولبنانيين ، وتعودنا ان نعتبر البارودي نموذجا اعلى للشعر في بداية هذا العصر فنقول : انه اعاد للقصيدة العربية متانتها وجزالتها ، وكان شعره تقليدا للقدماء من وقوف على الاطلال ووصف مشاهد التحمل والارتحال ، وانه كان جسرا لظهور الكلاسيكية الجديدة عند شوقي وحافظ ، ولكننا عندما نطلع على ديوان شاعر شامي مخضرم ، هو اقدم من البارودي ، نضطر الى تصحيح هذه المعلومات فنرى الجندي يبدأ القصيدة بالغـزل الصوفي أو العادي ، أو يطرق موضوعه مباشرة في اسلوب يتميز بالرقـة والطلاوة والعذوبة الغنائية ، كانت حياته شعرا ، وكان شعره حياة ، يقول عنه الناقد والمؤرخ الادبي لويس شيخو : « كان شاعر زمانه ... سيال القلم ، طيب القريحة ، لم يمض عليه يوم خاليا من نظم أو نثر ، يحرر في يوم ما يعجز عنه غيره في سنة » .

لم تكن الفترة التي عاش فيها الجندي فترة عماء ثقافي كما يخيـل الينا ، فقد كانت حلقات البحث العلمي ، والمساجلات والمناظرات الادبية قائمة في المساجد والمدارس والبيوت ، وكان الابـداع الفني الموسيقي المرتبط بالحركة الادبية الناهضة برنامج السهرات الفنيـة الحافـل ، وموضوع الحوارات في البيوت العربية ومضـافات الزعماء ، ويكفي ان نشير الى ان تراثنا الموسيقي بألحانه وقدوده وموشحاته واغلب قصائده يعود الى تلك الفترة الاليقة من تاريخنا .

وحين نتساءل عن سبب الاهمال الذي لحق ادب هذه الفترة تبرز امامنا جملة امور ، نشير اليها باختصار :

١ ــ الاهتمام باحياء التراث القديم ونشره كان الشاغل عن أدب هذه الفترة .

٢ ــ ظهور حركة الاستشراق ، وبصرف النظر عن غاياتها السياسية، فقد اولى المستشرقون جهدهم لنشر التراث القديم ودراسته وترجمة اعلامه ، وعنهم اخذ دارسونا مناهج البحث وموضوعاته .

٣ ــ خلو هذه الفترة من حركة نقد حقيقية تقيم بناء الادب وعمارته، وتسهل للدارسين المعاصرين تناوله ، وهكذا بقي ادب هذه الفترة منتشرا في حالة الرواية الشفوية ، او مدونا في مخطوطات ضاع معظمها ، أو مطبوعا في دواوين قديمة لم تعد طباعتها .

٤ ــ وقوع الكثير من الدارسين المعاصرين في اصدار احكام قيمة بدلا من الدراسة الموضوعية والتحليل واستقصاء الحقائق عن ادب هذه الفترة ، وهي احكام لم تكن في صالح هذا الادب ، وهذا الموقف شبيه بالموقف القيمي الخاطىء الذي اتخذوه تجاه الحركة الفكرية والادبية في العهود التي تلت سقوط بغداد ، متأثرين بآراء المستشرقين ونعتهم اياها بأنها عصر انحطاط .

وحين يعود الدارس الى ادب فترة ماضية لها مناخاتها وقيمها الاجتماعية والثقافية والسياسية فانه يصبح من الخطورة بمكان اصدار احكام قيمة مبنية على شروط نقدية معاصرة منبثقة من واقع ثقافي تتداخل فيه المحلية والعالمية الى حد بعيد ، وتتبع فيه الاحكام من مواقف أيديولوجية متباينة ، بحيث يصبح مجرد النظر الى الماضي لتوثيقه واستجلائه لدى بعضهم رجعة الى الوراء .

على اية حال ، فان ادب هذه الفترة هو جزء من تراثنا الادبي ، لا يمكن ان نهرب منه او نلغيه ، واهماله لا يعني عدم وجوده ، ولابد من حركة جادة لجمعه قبل الضياع الكامل ، وتوثيقه ، ودراسته دراسة منهجية ، كي تتصل حلقات التاريخ الادبي ببعضها ، والشجرة التي تريد ان تسمق وتزهر وتثمر ، ولا تعصف بها الرياح العاتية ، لابد ان تكون جذورها مغروزة في تراب التراث . . . تراب الوطن ، نسغها منه ، وحياتها فيه ، وعطاؤها له . وانا لنامل ان تكون هذه الدراسة خطوة نحو ارتياد حقول ادبية تقع في منطقة الظل ، تزاور عنها النور ، وحلقة في سلسلة نريد لها ان تتصل ، فتصل الماضي بالحاضر .

مناخات العمل الادبي :

المناخ الثقافي : ما كاد القرن الثامن عشر ينتصف حتى بدات ظعون عصر مديد باضوائه وظلاله ترتحل، وتقدم في نهاية القرن ظعون عصر جديد، يحمل معه النور والحياة الدافئة .

انه عصر النهضة حيث ستشهد المنطقة فيما بعد تبدلات جذرية في البنى الاجتماعية والسياسية والفكرية .

استانفت الحياة الثقافية في الشام الانتاش والنمو بعد فصل شتائي طويل ، وبدات حركة ادبية محافظة بالظهور في الشارع الثقافي تحت مناخ صعب انقدته سنوات الجمود الطوال اسباب الصحو ، لكن هذه الفترة بقيت غامضة لان ادبها لم يحظ بالجمع والتوثيق والدراسة المنهجية .

وكان لظهور المطابع التي كانت دينية او مدرسية او رسمية او خاصة الاثر الحميد في تحسين مناخات العمل الثقافي ، كما نشطت حركة الاستشراق ، وكانت العربية تدرس في جامعتي كمبردج واوكسفورد ، غير ان مطبوعات اوربا في العربية لم تكن ذات جدوى لعدم انتشارها ، كما ان المخطوطات العربية بقيت نادرة وغالية لا تملكها الا صفوة النخبة .

الكتاتيب ، والمدارس العربية الدينية ، وحلقات الدرس في المساجد ، ومدارس الاديرة ، استطاعت ان تحافظ على بذرة العربية الاولى والتي ستنتش من فلقتها شجرة الثقافة التي يمتد ظلها وارفا اليوم .

ومع سريان الدفء في المناخ الثقافي بدات تظهر في الساحة الادبية اسماء لامعة نذكر منها : الشاعر احمد بربير البيروتي ١٧٤٧ ـ ١٨١١ م، الشاعر الشيخ عمر اليافي ١٧٥٩ ـ ١٨١٨ م ، الشاعر المؤرخ نقولا الترك ١٧٦٣ ـ ١٨٢٨ م ، الشاعر الحمصي بطرس كرامة ١٧٧٤ ـ ١٨٥١ م ، الشاعر حسن العطار ١٧٦٦ ـ ١٨٣٥ م ، المسرحي الشاعر مارون النقاش ١٨١٧ ـ ١٨٥٥ ، الشاعر واللغوي ناصيف اليازجي ١٨٠٠ ـ ١٨٧١ م ، الشاعر واللغوي والصحفي احمد فارس الشدياق ١٨٠٤ ـ ١٨٨٧ م .. وغيرهم كثير .

في هذا المناخ عاش الشاعر امين الجندي ، مما يؤكد ان الفترة لم تكن مجدبة ، غير أن الحكم عليها يجب ان يتم في اطار القيم النقدية واللغوية والادبية السائدة فيها ، ولا يغرب عن بالنا ان الثقافة كانت خصوصية جدا ، محصورة في أسر معينة ميسورة الحال ، أو ذات مركز سياسي واجتماعي مرموق ، اما غالبية العامة فقد كان الجهل يسيطر عليها ، واقصى ما تستطيعه النخبة منها الحصول على المبادىء الاولية للقراءة والكتابة ، كما أنها كانت تعيش في مناخ ديني اتصف بالمحافظة وسيادة الطرق الصوفية من نقشبندية ومولوية وقادرية ورفاعية وخلوتية وبكرية وبكتاشية .

اما النخبة الدينية المثقفة فكانت تجتمع في البيوتات الادبية والفنية شتاء ، وعلى ضفاف العاصي في الميماس صيفا ، اما الجامع الخالدي حيث ضريح الصحابي الجليل خالد بن الوليد ، والجامع النوري الكبير فقد كانا مركزين من مراكز الاشعاع الثقافي في حمص مدينة الفن والادب في تلك الفترة . ولابد ان نشير الى ان فن الغناء والموسيقى قد ازدهر لارتباطه بالطرق الصوفية ، وبخاصة المولوية المنسوبة الى جلال الدين الرومي ، حيث تقام الاذكار وتنشد الموشحات والقدود والقصائد في الحب الالهي ومدح النبي « ص » .

المناخ السياسي والاجتماعي :

كانت الاجواء السياسية في هذه الفترة مشحونة بالتوتر الناجم عن الحركات الاستقلالية من جهة ، والغزو الخارجي من جهة اخرى ، وايـة معارضة سياسية شعبية كانت معرضة للقمع في منتهى العنف ، واذا كان بعض الولاة قد عرفوا باعتدالهم وسيرتهم الحسنة فان آخرين كاحمد باشا الجزار مارسوا اقسى أنواع الظلم السياسي .

في هذه الفترة بدا نفوذ اليهود الاقتصادي والسياسي يتعاظم ، وكان لهم تأثير على بعض الولاة والوزراء ندد به شاعرنا امين الجندي كاشـفا بعين مرهفة خطورة ما يحيكون في فلسطين .

الاحداث والنزاعات السياسية التي شهدتها الشام كانت تستدعي من الادباء اتخاذ مواقف معينة ، وان حدثا هاما كزحف نابليون على الساحل السوري وحصاره عكا نجده يقابل بموقفين متباينين ، ففي الوقت الـذي يعتبر فيه بعض شعراء لبنان نابليون مخلصا نجد الآخرين ـ كالجندي ـ يتصدون للغزو الاستعماري بالسلاح والقلم . كما أن النزاع المصـري العثماني على الشام سمح بظهور شعر المعارضة السياسية ، وزحزحت عن موضع القداسة صورة السلطان العثماني في الاذهان كظل الله علـى الارض الذي لا يخطيء ولا ينتقد ولا تنهزم جيوشه ، ووجد بعض الشعراء في الحركة الاستقلالية الجديدة صرخة عربية القت في التربة الدينية أولى بذور الوعي القومي ، وكانت تصريحات الفاتح المصري ابراهيم باشا تخاطب الناس بلغة جديدة وتؤكد عزمه على اعادة المجد العربي ، وان من حـق العرب أن يحكموا انفسهم ، يقول بارو (مجلة الكتاب م ٦ س ٣ ج تشرين ١٩٤٨/٢) : « سئل ابراهيم باشا عما سيفعل بعد سقوط عكا فقال : سانطلق الى حدود البلاد التي تتكلم باللسان العربي » وهذا ما فعل بعد أن اجتاح كيليكيا ووصل الى قونية .

هذا الامل هوالذي دفع امين الجندي الى تأييدالحركة الجديدة وملازمة

ابراهيم باشا والاشادة بانتصاراته ، ودفع ببطرس كرامة الشاعر الحمصي الى ملازمة الامير بشير الشهابي الشريك الثاني في الحركة الاستقلالية ، بينما بقي اغلب الشعراء عثمانيي الهوى ورأوا في حركة ابراهيم والشهابي خروجا على الجماعة وطاعة الخلافة الاسلامية في الآستانة .

ونظرا لانعكاس الاحداث السياسية على الحياة الادبية في الشام فاننا نجمل اهم الاحداث الكبرى التي شهدتها المنطقة العربية في هذه الفترة :

ـ ما بين عامي ١٧٧٠ ـ ١٧٧٥ م استقل ضاهر العمر بحكم عكا ، وعلي بك الكبير بحكم مصر ، وانتهت حركتاهما الى الفشل ، وقتل ظاهر العمر بيد قائد جيشه احمد باشا الجزار الذي كافاته الآستانة بتوليته على عكا وصيدا ثم دمشق فاصبح طاغية دمويا ، قتل الاعيان واصطنع ادوات التعذيب في السجون ، وكان مثار رعب للاطفال والنساء والرجال .

ـ مابين عامي ١٧٩٠ ـ ١٨٤٠ م استقل الامير بشير الشهابي بحكم جبل لبنان وهيأ لابراهيم باشا حماية جناحه الايسر في غزوه للشام ، وقبل ان تنتهي حركته بالفشل كان الجبل موئلا للشعراء والادباء

ـ ما بين عامي ١٧٩٨ ـ ١٨٠١ م تعرضت البلاد ـ مصر وساحل فلسطين لغزو خارجي متمثل بالحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت ، واستطاع شعب عكا الصمود في وجه الحصار ، وانتهت الحملة بالرحيل اثر الثورات الشعبية التي ارهقتها .

ـ في عام ١٨٠٥ م اصبح محمد علي باشا واليا على مصر وراح يعزز قواته البرية والبحرية وفي عام ١٨٣١ م زحف ابنه ابراهيم باشا على سورية ووصل الى اواسط اسيا الصغرى ، وفي عام ١٨٣٩ حقق انتصاره الكبير في معركة نزيب على حافظ باشا وتوفي السلطان محمود الثاني وخلفه ابنه عبد المجيد ، وفي عام ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ م انسحب المصريون من سورية بعد فشل سياستهم في الشام وقيام الثورات الشعبية ضدهم وتألب الدول الاوربية عليهم .

ـ في عام ١٨٢٦ م استقل داود باشا بحكم العراق وتحصن في بغداد، مجاريا محمد علي باشا ، وفي عام ١٨٣١ م اضطر الى الاستسلام أمام القائد العثماني علي باشا اللاظ بالرغم من تفوقه العسكري بعد ان فتك الطاعون بجيشه وبعشرات الالوف من أهالي بغداد .

ـ في عام ١٨٢٦ م قام السلطان محمود الثاني بتغييرات جذرية في نظام الجيش ، وفتك بالانكشارية بعد ان اصبحوا مصدر اخلال بالامن .

في هذه الاجواء السياسية المحمومة عاش الشاعر متفاعلا مع الاحداث متوقعا الخلاص في النهاية على يد ابراهيم باشا ، معتبرا النصر على الاتراك نصرا عربيا ، لكن الامل بالخلاص على يد ابراهيم باشا خاب ، واشتعلت الثورات ضده ، وكانت أسباب التذمر كثيرة منها : سوق الناس الى الحرب مكرهين ، وفرض ضريبة سنوية باهظة على كل فرد ، واحتكار بعض الزراعات ، وتحويل الكثير من المباني الوقفية والدينية الى ثكنات عسكرية .

ولم تحمل عودة الحكم العثماني الى الشام أي انفراج سياسي ، فقد شهدت ملاحقات سياسية لكل من تعاون مع الحكم المصري ، كما ازدادت أطماع الدول الاوربية في المنطقة ، وحاولت الاستانة احكام قبضتها على الشام ، لكن النار الثقافية التي اشتعلت في هذه الفترة اتسع لظاهـا ، وكان لابد لهذه المتغيرات السياسية أن تترك فيما بعد آثارها ، وتطلق الكمون العربي من سكونيته ، فقد اعقبها بروز الوعي القومي الذي تجسد في نشوء الجمعيات والاحزاب التحررية ، واصدار الصحف والنشرات المناوئة للحكم العثماني ، وانتهى بالثورة العربية الكبرى .

الاضطرابات والاحداث السياسية في هـذه الفترة كانت مقدمـة لمتغيرات اجتماعية ، وايذانا بولادة جديدة ، فالمدارس التي افتتحت في عهد ابراهيم باشا ـ على قلتها ـ لم تنتزع الناس من الجهل ولكنهـا فتحت الاعين بعد طول اغماض على بزوغ جديد لشمس العلوم العصرية .

اغلب الكتاتيب التي كانت تعلم القرآن الكريم لم تكن تعلم الكتابة ، وكان التعليم مرتبطا بالخاصة القادرة عليه ، والمثلة للاقطاع السياسي والاجتماعي ، وقد عطلت الادارة العثمانية على تكريسه فساد الفقر والجهل طبقة السواد ، ولم يكن مستوى دخل الفرد العادي يتناسب والغلاء المعيشي ، وانعدمت الرعاية الصحية ، واهتزت البلاد الشامية بوافدات مرضية كالطاعون ، اضف الى ذلك فساد الادارة العثمانية وضعفها مما نتج عنه اضطراب الامن والخصومات بين الاحياء ، وتعرض القرى واطراف المدن وقوافل الحجاج لهجمات الاعراب ، وقد أرهق نظام الالتزام ، وحروب الاستانة المستمرة العامة بالضرائب وفقدان البلاد خيرة الشباب وهم الايدي المنتجة ، ولم تكن الحال أفضل في العهد المصري ، فقد اصبحت البلاد نفسها ساحة للصراع العسكري ، وازدادت الحالة الاقتصادية سوءا وتحمل الشعب رهقا ، وكان للتحالف الجديد بين الامير بشير الشهابي وابراهيم باشا أن نبه الغرب الاستعماري الى خطر الوحدة السياسية والعسكرية التي تحققت بين مصر والشام والتي أخذت تتهدد الاستانة نفسها ، ورأى الغرب في تحقيق بعدها الابعد القومي خطرا على الاطماع والمصالح الغربية في المنطقة ، فعمد الى اجهاضها بالقوة ثم الى محاولة تفتيتها باثارة الفتن الطائفية التي ستشهدها المنطقة فيما بعد .

في هذه المناخات عاش امين الجندي ، متأثرا بها ، متفاعلا مع الاحداث والمتغيرات التي شهدتها المنطقة ، نجد في شعره انعكاسا لصحوها واكفهرارها ، لتأزمها وانفراجها ، وغادرها وهو ينظر بعين حزينة الى الامل الذي أضاء يوما وهو يخبو ثانية .

حياته وديوانه

هو امين بن خالد بن محمد الجندي العباسي حيث يرقى نسبه الى العباس بن عبد المطلب ، اما الجندي فلقب غلب على جده السادس لانتظامه في سلك الجندية .

ولد في حمص عام ١١٨٠ هـ ــ ١٧٦٦ م ؛ تلقى فيها العلم على شيوخها من آل الجندي وآل الاتاسي والشيخ محمد الطيبي ومصطفى الحموي ، وكانت حلقات التدريس تعقد في الجامعين النوري والخالدي ، وقد ساعد الشاعر على التفرغ لشؤون الثقافة مكانة والده الذي آلت اليه حاكمية حمص ، ثم سلمها الى ابن اخيه عثمان بن عبد الرزاق عام ١٧٨٥ م .

تابع الشاعر تعليمه في دمشق فقرا على علمائها وصاحب ادباءها ، من اساتذته في هذه الفترة : يوسف الشمسي عمدة العلماء ، احمد العطار ، محمد الكزبري ، عبد الرحمن المرادي ، محمد الغزي مفتي الشافعية ، وهم شيوخ دمشق آنذاك وعلماؤها ، كما لازم الشاعر والصوفي الكبير الشيخ عمر اليافي امام الطريقة الخلوتية البكرية ، واستضافه في حمص ، واجازه اليافي في الشعر قائلا : اذهب فانت اشعر اهل الغرام .

عاد الشاعر الى حمص عام ١١٩٤ هـ ــ ١٧٨٨ م ولازم صديقه الشيخ عبد الستار الاتاسي مفتي حمص ، وكانا يتحاوران في شؤون الثقافة والعلم ويتبادلان المدح الشعرية ؛ وفي عام ١٧٩٩ م اشترك في حماية بحرية لرفع الحصار الفرنسي على عكا

ويغاضب الشاعر جارة العاصي ويلجأ الى طرابلس قاصدا علي باشا الاسعد والي عكار قائلا :

لقد عفت حمصا وخلفتها تعض علي بنان اليد
وهاجرت منها لبرج العلا فعوضني الله عن معهدي

وخلال عشر السنوات الاولى من القرن التاسع عشر كان الجندي شاعر عكار بلا منازع ، ربما التجأ اليه بعد اندلاع الثورة في حمص عام ١٨٠١ م ضد حاكمها عثمان الجندي ، وقد اراد الشاعر بهذا الانتقال ان يفعل ما فعله المتنبي حين تحول عن حلب ، كلاهما لم تقدرهما المدينة حق قدرهما ، ولم تستطع الاحتفاظ بهما .

لا بد من الاشارة الى الصداقة الكبيرة التي كانت تربط الشاعر بآل الكيلاني في حماه ، وكان ينظم لهم الموشحات والقدود التي ينشدها ارباب الطريقة القادرية في جلســاتهم .

في عام ١٢٣٩ هـ ــ ١٨٢٤ م مدح الشاعر السلطان محمود الثاني بقصيدة مطلعها :

وافتك بالعز خود زانها الطول بديعة لحظهــا بالســحر مكحول

وفيها يشير الى دور اليهود التخريبي في فلسطين ويتهم بعض الولاة والوزراء بالتواطؤ معهم ، ويبدو ان انتقادات الشاعر ومعارضته للحكم العثماني بدأت تزداد في هذه الفترة .

وفي عام ١٢٤٦ هـ ــ ١٨٣٠ م قدم الى حمص عامل من قبل السلطان محمود الثاني ، ويبدو ان الشاعر تعرض له بالهجاء لســوء ممارساته ، فأمر العامل بنفي الشاعر واخراجه من حمص بشكل مذل ، ففر الشاعر هاربا يطلب حماية اصدقائه آل الجيلاني في حماه ، ولكن القي عليــه القبض في تلبيســه واعيد الى حمص وسجن في اصطبل للدواب ، ومنــع عنه الطعام والشراب الا ما يسد به الرمق ، وبعد اربعــة ايام هاجم الدنادشة بقيادة الثائر سليم بن باكير حمصا وقتلوا الوالي واطلقــوا سراح الشاعر .

وفي عام ١٢٤٧ هـ ــ ١٨٣١ م زحف ابراهيم باشا على سورية ، وكانت شهرة امين الجندي شاعر الشام الاول قد عمت ، واصبحت اشعاره على كل لســان ، وقدوده وموشحاته تنشد في السهرات الفنية . وكانت قصائده التي قالها في ظلم الاتراك وفســاد عمالهم بمثابة المنشورات السرية ، فكان ان استدعى الفاتح المصري الشاعر الداعية الى تحرير العرب من ظلم الاتراك ، وقربه اليه ، وجعله من خاصة مستشاريه ، ولم يكن يفارقه ، ولا يرد له طلبا ، وقد شهد الشاعر معه النصر الحاسم على حسين باشا في قونية ، فنظم قصيدته الشهيرة التي يقول فيها :

من يخبر الاتراك ان جيوشبهم ... هزمت وان حسينهم ولّى الى

اصطحب ابراهيم باشا معه امين الجندي حين سافر الى مصر بعد اتمام فتوحاته ، وقدمه الى والده قائلا : « لقد اتيت لك باعز هدية من البلاد الشامية » ، وكانت شهرة الشاعر قد سبقته الى مصر ، فهرع شعراء مصر وعلمائها لاستقباله ودارت بينهم مساجلات ومناظرات . كما اصطحب ابراهيم باشا معه الشاعر اثناء زيارته لنصيره الامير بشير الشهابي وهناك التقى الشاعر بصديقه بطرس كرامة شاعر الامير الذي رحب به قائلا :

لله خير مهذب باهت بـه حمص ونور الحق عنه يبين
لاغرو ان فاق الجميع فانه شهم على درر النظيم « امين »

في عام ١٢٥٠ هـ — ١٨٣٤ م اصيب الشاعر بمرض شديد شارف فيه الهلاك ، وفي منتصف رمضان اصيب بالفالج ، ويئس الاطباء من شفائه فالتجا الى التوسل بالشعر فكتب قصيدته التوسلية ومطلعها :

توسلت بالمختار ارجى الوسائل نبي لمثلي خير كاف وكافل

وفيها يتوسل بالنبي واصحابه ويصف ما آل اليه من ضعف وبلوى ، معرضا باعدائه الشامتين الذين طعنوا في سلوكه وشوهوا سمعته ، واتم قصيدته في آخر رمضان ، ونام ليلة عيد الفطر ، فرأى النبي « ص » في منامه ، ولما افاق صبيحة العيد وجد نفسه معافى ، وهذه الحادثة تذكرنا بالظروف التي احاطت بنظم قصيدة البردة للبوصيري .

اضطر ابراهيم باشا ان يجعل حلب قاعدة لعملياته العسكرية في الاناضول ، فاصطحب معه صديقه الشاعر ، واسكنه دارا بجانبه في حي الفرافرة ، وكانت حلب آنذاك مدينة الفن والادب ، من اعلامها الشاعر والفنان محمد ابو الوفا الرفاعي ، والحاج مصطفى بن ابي بكر الحريري الرفاعي الملقب بالبشنك ، واحمد عقيل الذي احيا رقص السماح ونسق اوزانه وضبط قواعده ، اضف الى ذلك شيوخ العلم امثال : حسين

المدرس ، واسماعيل المواهبي ، وقاسم المغربي وغيرهم ، وقد اتصل الجندي بهؤلاء الاعلام ، وحضر مجالسهم ، واعطى الملحنين قصائده وموشحاته وقدوده فغنوها ، وما تزال بعض موشحاته وقدوده يتناقلها المغنون في حلب الى الآن .

بعد انسحاب الجيش المصري وعودة الشام الى السيادة العثمانية كان في راس قائمة المطلوبين للقبض عليهم الشاعر امين الجندي ، وقد ارسل السلطان عبد المجيد احد وزرائه الى الشام من اجل هذه الغاية ، وعلم الجندي أن الوزير نزل ضيفا على نقيب الاشراف من آل الكيلاني في حماه فغادر حمص مسرعا الى حماه ودخل على الوزير قائلا : « انا هو امين الجندي الذي جئتم للقبض عليه » وجم القوم خوفا ، ونظر الوزير الى هذا الشيخ المهيب الذي جاء غير مكترث بما ينتظره من مصير ، وما هي الا ساعة خلا فيها الوزير بالشيخ الشاعر حتى خرج بعدها مبهورا بحنكته السياسية ، وبلاغة قوله ، وقوة حجته ، وتوقد ذكائه ، وجرأته في الحق ، متهيبا زعامته ونفوذه ومكانته في قلوب أهل الشام ، فاصطحبه معه مكرما من حمص الى دمشق ، واستصدر قرارا من السلطان بالعفو عنه .

وعاد الشيخ الشاعر الى حمص منقطعا في داره ، يتردد بين الحين والآخر على اصدقائه في حماه من آل الجيلاني ، حتى الح عليه المرض فلزم داره ، وفي شوال عام ١٢٥٦ — أو ١٢٥٧ هـ — ١٨٤١ م اشتد عليه المرض حتى يئس الاطباء من شفائه ، وتوفي ، ودفن بجوار الجامع الخالدي .

نستطيع ان نقسم حياة الشاعر الى ثلاثة فترات :

١ — الفترة الاولى : ١٧٦٦ — ١٨٠٠ وهي فترة التكوين الثقافي ، كان يتردد خلالها على دمشق ، اشترك مجاهدا في حصار عكا ، مدح بعض شيوخه

٢ ــ الفترة الثانية : ١٨٠١ ــ ١٨٣٠ م اتصل بعلي باشا الأسعد والي عكار ، واقام فترة في لبنان ، ثم عاد الى حمص ، اشتدت معارضته وانتقاداته لفساد الادارة العثمانية .

٣ ــ الفترة الثالثة : ١٨٣١ ــ ١٨٤١ م اتصل بابراهيم باشا ورافقه في تنقلاته ، اصبح الشاعر الاول في المنطقة العربية بلا منازع ، بعد الانسحاب لزم داره حتى توفي .

بعد وفاته اصبح رمزا خالدا من رموز الشعر الذين عرفتهم حمص في تاريخها الطويل ، بل ان حمصا لتفخر بأهم علمين للشعر في تاريخها هما ديك الجن وأمين الجندي ، وقد ذكرهما الشاعر نسيب عريضة في قصيدته « أم الحجار السود » قائلا :

انسيم وعرك ما سمعت مهينما ام روح ديك الجن من خلف الحمى
شيخنا الجندي جن وزنما متغزلا بمعاطف وقدود
بيضاء في ظل الحجار السود

ديوانه :

صدرت ثلاث طبعات من ديوان الشاعر هي :

١ ــ الطبعة الاولى صدرت عام ١٨٧٠ م ، جمع الديوان وطبعه الاديب سليم مدور بالمطبعة السليمية ببيروت .

٢ ــ الطبعة الثانية جاءت بعنوان : كتاب منظومات الشاعر الفاضل أمين الجندي الحمصي اصدرها ابراهيم صادر صاحب المكتبة العمومية ببيروت ، وقد نشر في خمسة اجزاء صغيرة وعلى فترات : الجزء الاول طبع عام ١٨٨٣ م ــ ١٣٠٠ هـ ، الجزء الثاني والجزء الثالث طبعا عام

١٨٨٣ م ـ ١٣٠٠ هـ ، الجزء الرابع والجزء الخامس طبعا عام ١٨٨٥ م ـ ١٣٠٢ هـ .

٣ ـ الطبعة الثالثة صدرت عام ١٣٢١ هـ ـ ١٩٠٣ م ملتزم الطبع ومحقق الديوان محمد كمال بكداش ، وقد طبع لصالح المكتبة الأنسية في مطبعة المعارف ببيروت . ويقع الديوان في ٤٤٨ صفحة ، ويضم مقدمة حسنة ، وهو مقسم الى ثلاثة ابواب :

١ ـ الباب الاول : القصائد من ص ١ ـ ١٤٢ ، ٢ ـ الباب الثاني : التخاميس والتشاطير من ص ١٤٣ ـ ٢٦٧ ، الباب الثالث : القدود والاناشيد من ص ٢٦٨ ـ ٤٤٨ .

وهناك بعض القصائد المنشورة في الكتب لم يضمها الديوان ، واخرى محفوظة يتناقلها الناس وقد نشر ميخائيل بطرس في كتابه عن الشاعر عام ١٩٦٣ بعض قصائد الشاعر وقدوده حسب اغراضها معتمدا على الطبعة الثالثة من الديوان .

وللشاعر شعر كثير ونثر جيد ضاع اغلبه لانه لم يكن يحفل بتسجيل ما يكتبه ، وما وصل الينا هو ما جمعه او حفظه تلامذته والمعجبون بشعره .

واهمية الديوان بالنسبة للباحث تكمن في انه يقدم لنا صورة حسنة للحركة الادبية والثقافية والفنية في تلك الفترة ، كما يعطينا فكرة عن مستوى الشعر واحتذائه النماذج الاولى ، ويكشف لنا جملة من العلاقات الثقافية والاجتماعية والسياسية بين الاديب من جهة وبين مجتمعه من فنانين وسياسيين ومثقفين وعامة من جهة اخرى ، كما انه يضع بين ايدينا نتاجا غنيا ومتنوعا لشاعر مخضرم عاش أفول عصر الجمود وبزوغ عصر النهضة .

امين الجندي

الشعر السياسي

مواقف الجندي السياسية وافكاره يجب ان نتتبعها في قصائده التي مدح بها بعض الشخصيات السياسية والدينية ، فالقصيدة السياسية لم تكن قد ظهرت بعد في تلك الفترة ، والشعور القومي لم يكن قد نما ، وكانت العاطفة الدينية هي السائدة ، ونصرة الدين ، واقامة العدل ، والسهر على مصالح الناس ، واخماد الفتن ، والتصدي للعدوان الخارجي ، هي بعض القيم والصفات الواجب توفرها في الممدوح ليكون اهلا للمديح ، والشاعر يتوسل بالشخصية الممدوحة ليصل الى كشف الايجابيات السياسية ، او فضح السلبيات والممارسات من جور وفساد وطغيان وتخاذل .

١ ــ موقفه من الاضطرابات والفتن السياسية

* ثورة حمص عام ١٨٠١ م هي الحدث الاهم في هذه الفترة ، وقد اضطرت المعارضة حاكم حمص وابن عم الشاعر عثمان الجندي الى الهرب ، واقامت مكانه « جندلا » ، والتجا عثمان الى حماه ثم دمشق وعاد مدعوما بجيش من الوزير ، وحاصر حمصا ورماها بالمدفعية ، ودخلها ، وفر جندل الى حلب .

موقف الشاعر قرابي ، يصف الثائرين بانهم سفهاء حمص ، ويصف أبن عمه بالباس والثبات ، وهو لا يبين لنا الاسباب الحقيقية للثورة ، ولكننا نعلم ان اغلب الثورات الشعبية آنذاك تعود لاسباب اقتصادية واجتماعية :

لما عليه بغت به سفهاؤها ... والبغي اقرب ما ترى آفاته
واستبدلوه بجندل من بعد ما ... قامت بهم نفقاته وصلاته
واخو الضلال بهم مطاع امره ... واخو الهدى لم تستمع كلماته
امضى رواحله الى وادي الحما ... فاستقبلته كماته وحماته
من بعد ذاك سرى لمعهد جلق ... فتهللت فرحا به وجناته

يبدو ان الحصار كان شديد الوطأة على اهل حمص ، وان القتل استحر بالناس قبل ان يدعم حاكم السلطان مركزه من جديد ، ولم تكن حال الناجين بافضل ممن قضى في الحرب

حتى ارتمت حمص بنار حصاره ... واستمطرتها بالرصاص رماته
فسل الكئيب بحي حمص اذ غدت ... ترثي لاحيــاء بـه امواته

* هجوم الاعراب على اطراف المدن والقرى ، وثورات دنادشة البقيع وبعض الطوائف كانت مستمرة ، وكثيرا ما كانت حملات دمشق التاديبية تلقى الهزيمة ، كالهزيمة الساحقة التي لقيها الوزير عبد الرحيم العظم وقائده عبد الرزاق الجندي عام ١٧٧٥ م وقتلا في معركتهما مع العربان .

كانت غارات البدو تقض مضاجع الحكومة ، تنشر الفوضى ، وتقطع الطرقات ، تنهب وتسلب ثم تفر عائدة الى الصحراء ، من اجل هذا بنيت قلعة تلبيسة ، ووجهت الحملات التاديبية ، وكان الفدعان اشد العربان خطرا يقودهم زعيمهم ابن هذ ال ، وكان الشاعر يرى في خضد شوكتهم توطيدا للامن ، وحماية للناس من شرورهم ، وكان الوزير في دمشق يستعين بالامراء المحليين في النصرة ، وكان الشاعر آنذاك منقطعا الى علي باشا الاسعد والي عكار يمدحه ويشيد بتصديه لهجمات البدو وبعض الثائرين في الجبال . يقول من موشح طويل :

(دور)

فاسالوا الاعـراب اذ عبي الكماة بـين جمعيهم وقـد عـز النصـير
ولت الفدعان من تلك الجهـات وابن هذّال اختفى خلف البعـير
فـرّ جيش الشـام كالمستنفرات وتولـى هاربـا نحـو الوزيـر
وعلـيّ مـدّ راي الخطب انتضى سـيف عـزم بالوغـى لـم ينثن
وعلـي الحـرب اذ مـا حرّضـا كـل ليث لـم يـرع بالـوهـن

لم ينقل لنا الجندي وجهات النظر الاخرى المعارضة لنعرف اسباب تمردهم وحججهم ومطالبهم ذلك لان مواقفه من هذه الاحداث كانت صادرة عن موقعه في احد جانبي الصراع ، وعن كونه يحمل ـ في هـذه الفترة ـ استمراوية لمهمة قديمة كان يضطلع بها شاعر القصر .

٢ ـ موقفه من الغزو الاستعماري :

كان الشاعر في الثالثة والثلاثين حين اشترك في القتال بسلاحه وقلمه ضد الحملة البونابرتية التي حاصرت عكا ، وشهد هزيمة نابليون امـام اسوارها ، لاشك أن هذا الحدث التاريخي قد هز الشاعر فكتب اكثـر من قصيدة ضاعت كلها ولم يصلنا غير بضعة ابيات ، ونميل للاعتقاد انها نسيت لبعد العهد وهو الذي لا يسجل شعره ، او انها اسقطت عمدا من طبعتي الديوان الاولى والثانية لان فيها ما يمس بعضهم ممن كانوا يصلون من أجل انتصار نابليون مغلبين العاطفة الدينية ـ الطائفية على العاطفة الوطنية ـ القومية ، على اية حال الابيات توحي بانها بقيـة قصيدة لم تصل

سلكت الى الجهـاد فجـاج بحـر وقد سارت بنـا خيـل الريـاح
ومركبنـا متـى هبت جنـوب يكـاد يطيـر وهـو بلا جنـاح

وفي بيتين آخرين مماثلين من قافية اخرى يذكر مسيره نحو عكا في حملة بحرية .

في قصيدة وصلت شبه كاملة قالها في الوزير نصوحي باشا العظم ، وفي اخرى قالها في ابنه احمد مؤيد باشا العظم ، نجده يثني على نصوحي نضاله من اجل اخراج الجيش الفرنسي من فلسطين ومصر ، هادفا الى بث روح النضال والتحريض على القتال وطلب الشهادة ليتحقق للوطن النصر والحرية ، متكئا في المبنى والمعنى على حكيبات وصور ابي تمام والمتنبي :

الشهم في الشدة لا يضجر	وان رات علياه ما يحذر
والحر ان حم عليه القضا	فشرط حريته يصبر
فعش عزيز النفس او مت فلا	ترضى بذل فيه تستحقر

وبعد ما افنى جيوش العدا	يا للهزيمات التي يشهر
اركزها فيهم وقال البتي	نفي غد من تحتك المحشر

٣ ـ موقفه من الظلم والطغيان والفساد السياسي

انتقادات الشاعر السياسية كانت موجهة في عمومها الى الادارة التركية في البلاد والى ممارسات الولاة والعمال .

للاسف فان غالبية شعره في ذلك طالته يد الحذف والتضييع ، فالرقابة العثمانية على الصحف والمطبوعات في الفترة التي نشر فيها ديوانه كانت شديدة ، ولهذا فاننا نتلمس الشواهد في بعض قصائد المناسبات التي افلتت من الرقابة مقاطع منها ، وفي مقطوعات اخرى لم تنشر في الديوان ومتفرقة في كتب الادب .

يستعمل الشاعر كلمة « الترك » في نقده السياسي للحكم العثماني لتكون كلمة « العرب » المقابل لها ، كانه بذلك يريد تعميق شعور العرب

بوعيهم القومي ، وهو يصف الاتراك بالجور حتى صارت سياسة الظلم اشكالية ، ويتهمهم بسلب البلاد واقطاعها لعملائهم ناشرين الفقر بين الناس .

هذا ولما فاض جور الترك في ظلم العباد وصار امرا مشكلا
وتظاهرت اعمالهم بمقاصد ومظالم ، وحوادث ، لن تقبلا
سلبوا البلاد من العباد فلا ترى في حكمهم ذا نعمة متمولا
والملك ملك الله يؤتيه لمن قد شاء ، لا هو بالوراثة والولا
من يخبر الاتراك ان جيوشهم هزمت وان حسينهم ولى الى

ووقوف الشاعر ضد عامل حمص عام ١٨٣٠ م انتهى به الى السجن، ويبدو أن الشاعر لم يتعرض الى شخص العامل بقدر ما تعرض الى وضع سياسي مترد ، واذا كنا لا نعرف الابيات التي قالها في ذلك العامل فان في الديوان أبيات ربما تكون هي جزء من تلك القصيدة، فمضمونها يدل على موقف انتقادي من وضع سياسي مترد .

وقوم غض طرف الدهر عنهم فاذوا كل ذي عرض وعادوا
وفي ظلمات ظلم الخلق ساروا فسادوا عندما ظهر الفساد
وانقالوا رجوعهم سترجع حيث كنا مخافة ان تدمهم العباد
وان طلبوا رجوعهم عنادا فما صدقوا ، ولو ردوا لعادوا

واذا كان الشعراء قد درجوا على التشكي من الزمان بمعناه القدري فان الزمان عند الجندي هو هذا الوضع الفاسد الذي ينتج الظلم والجور وتقديم الصغار على الكبار .

صغار زماننا صاروا كبارا وقد جار الزمان على الكبار
كان زماننا من قوم لوط له ولع بتقديم الصغار

وقد يستغل الشاعر حادثة فردية كعزل صديقه الشيخ عبد الستار الاتاسي عن الافتاء ليعيدها الى اسبابها الاجتماعية الناظمة ، ويقدم في قصيدة طويلة ما كانت عليه حمص من امن وعدل وحسن وعلم وما آلت اليه وقد اصبحت مرتعا للفساد السياسي وجبروت الحاكمين .

عهدي بحمص حمص كل محاسن ... واليوم حمص السوء والانكاد

ويتوعد الشاعر القائمين على الحكم بمصير انكد كمصير كل الطغاة الذين سبقوهم فلم ينفعهم طغيانهم ولا جبروتهم ولا اموالهم .

اين الجبابرة العتاة ومن بنى ... اهرام مصر ، اين ذو الاوتاد
اين الذي قال من طغيانه ... الارض ملكي ، والبلاد بلادي
ام اين عنترة الشجاع وماله ... في حربه من شدة وجلاد
ولدتهم الدنيا وقد اكلتهم ... فمضوا ، وضمتهم بطون وهاد

٤ ـ موقفه من النفوذ اليهودي في فلسطين وبلاد الشام

يعتبر الجندي الصوت الشعري الاول الذي حذر من دور اليهود التخريبي في المنطقة وذلك في القصيدة التي وجهها الى السلطان محمود الثاني عام ١٢٣٩ هـ ـ ١٨٢٤ م ، ودعا فيها الحكومة بلهجة غاضبة الى ردعهم والحد من نفوذهم .

كشف الشاعر في هذه القصيدة ما يقاسيه الشعب من جشعهم ، وتغلغل نفوذهم فيّ الادارات السياسية وفضح علاقتهم بالوزراء ولاة الشام وابتزازهم الاموال منهم ، وحصولهم على المراتب والوظائف ومكرهم بالمسلمين ، وخياناتهم المستمرة ، ونبه الى امر خطير هو اصرارهم على الكتابة بالعبرية في السجلات الرسمية ، فقد كانوا يقومون بأمور الحج آنذاك ، واستنكر ان يكونوا المتصرفين في اموال عكا ، واستخدام هذه الاموال في تنفيذ مآربهم ، كما فضح دورهم الاجتماعي والاقتصادي التخريبي ، حيث اشار الى انعزالهم عن المجتمع الام ، والى شحهم ، والى تعاملهم بالربا الذي اودى بالاقتصاد الى الخراب ، واحكموا به السيطرة على البلاد والعباد

نشكو لعلياء ما قاست رعيته ... من اليهود وعقد الصبر محلول
حيث استطالت بقطر الشام طائفة ... على البلاد ، وهم قوم مناكيل

وعظمتهم موالينا وما علموا ... بان تعظيمهم فسق وتضليل
مدوا من المكر اشراكا وطبعهم ... على الخداع،وقول الزور مجبول
هم في التقلب ك الافعاء ثم وفي ... تلوينهم قل هم الحرباء والغول
قد كان من سحرهم ان الوزير متى ... اصغى لهم قال : مهما شئتم قولوا
كم مرة مكروا بالمسلمين وكم ... خانوا وزيرا له بالعدل تجميل
حبث الدفاتر عبرانية رقمت ... خلاف السننا والحال مجهول
وليس تعلم اتراك ولا عرب ... ما خط فيها ولا المنقول معقول
وكل ما تحتويه باطل كلب ... لانهما كلهما زور وتحييل
شيدت على الشحوالشحنا بيوتهم ... فليس فيها لضيف قط ماكول
اموال عكة ماذا يصنعون بها ... ما آن اخذ لها ، ما آن تحصيل
لمال كل وزير قد مضى ورثوا ... حيا وميتا فهل في ذاك تحليل
فيا اولي الامر ما هذا التهاون في ... امر عظيم به للدين تذليل
فكيف ترجون صدقا باليهود وهم ... قوم لئام ملاعين مناكيل
كم بالربا سحبوا ذيل الخراب على ... تلك البلاد وكم قالوا لهم زولوا

٤ ـ موقفه من الصراع بين الآستانة والقاهرة

يبدو ان انتقادات الشاعر للحكم العثماني في الآونة الاخيرة وقبل مجيء المصريين قد اشتدت حتى أودت به الى السجن عام ١٨٣٠ م ، ولهذا نراه مع قدوم ابراهيم باشا ينحاز الى الحكم الجديد ويتفاءل باقامة العدل وخلاص الناس من الجور ، وقد الح الشاعر في فضح مساوىء الادارة العثمانية ، وكانت تلك اولى المؤشرات في زعزعة الايمان بها وبسلطانها ، والبذرة الاولى في نمو الوعي القومي ، وقد شهد الشاعر اغلب معارك ابراهيم باشا ،ولازمه ملازمة تامة،غير ان شعره فيه قد ضاع معظمه بسبب الرقابة السياسية الصارمة بعد عودة الحكم العثماني الى الشام ، وربما اسقطه الشاعر عمدا ايثارا للسلامة بعد ان حصل على قرار بالعفو عنه من السلطان عبد المجيد

لم تكن صلة امين الجندي بابراهيم باشا صلة شاعر بسيد نعمة ، فقد كان يذكره دائما بأن مهمته الاولى هي كشف ظلام الجور عن الناس ،

وإقامة العدل ، وتوفير الامن وإعزاز الاسلام ، لئلا يكون حكمه استمرارا لحكم سابقيه ، كان يصارحه بأن الشعب يريد حكما شوريا عادلا تتحقق فيه حريته وعزته ، لا دولة قيصرية او كسروية

ولسنا اذن في دولة قيصرية ولا اهل ملك كسروي كما اشتهر
ومن مصر قد سرنا بامر عزيزها كشفنا ظلام الجور والبغي والضرر

ليس بين ايدينا من النصوص ما يتيح لنا معرفة رأي الشاعر بالحكم المصري في أواخر عهده في سورية ، بعد ان كثرت الاضطرابات والفتن ضده ، وتململ الناس لعدم تحقق آمالهم .

ومع عودة الحكم العثماني من جديد الى الشام يجد الشاعر نفسه مضطرا الى مهادنة الحكم الجديد مراعيا التغيرات السياسية في المنطقة وكان قد رفض طلبا من ابراهيم باشا بمرافقته الى مصر ، كما رفض السماح لابن عمه عبد الله الجندي بالذهاب مع ابراهيم باشا .

بعد رحيل المصريين حفظ الشاعر جميل العفو عنه فمدح الوزير نجيب باشا بقصيدة عرج فيها على ذكر السلطان عبد المجيد فمدحه بأبيات لا يخفى فيها برود العاطفة . وقيم المديح عنده لا تعدو رفع الجور وإقامة العدل ، وتوفير الامن ، والرحمة بالفقراء والمساكين .

يقول في مديح نجيب باشا :

الوزير المشير في كل صعب الحميد الفعال والايسار
يا له من مدبر ووزير عدله عم سائر الأقطار
رحمة جاء للفقير وللمساكين حقا من غير ما انكار
ارسلته يد الخلائق للشام وزيرا متوجا بالوقار

الحاح الشاعر على مقولات اساسية : اقامة العدل ، رفع الجور ، تحقيق الامن ، نصرة الدين والحكم بشرعه ، الوقوف الى جانب الفقراء والمساكين ، هو بالنسبة له موقف لا يتخلى عنه يعبر عنه بإشارة لطيفة خفيفة حينا ، او في مجابهة فاضحة صريحة ، وهذا الموقف هو الذي كان يحدد طبيعة العلاقة بين الشاعر والسلطة .

امين الجندي
الشعر الوجداني

اللذة والالم هما المحركان الاساسيان لوجدان الشاعر ، والمفجران لطاقاته الشعرية ، وعندما يكون الشعر فيض الوجدان فهو الشعر الحقيقي الذي يتسم بالصدق ويتحقق به التواصل بين الذات ـ ذات الشاعر ـ كمعط والآخر ـ الناس ـ كمتلق . اذا لم يتحقق ذلك فان الشعر يفقد خاصيته كاداة وصل ويصبح اداة قطع .

يستثير اللذة في نفس الشاعر عاملان : الجمال والنشوة ، وفي كليهما لابد أن يتحقق عامل الاتصال لتحصل اللذة ، وعن الاتصال بجمال الانسان يصدر شعر الغزل ، وعن الاتصال بجمال الطبيعة والاشياء يصدر شعر الوصف ، أما الاتصال بلحظة النشوة فيصدر عنها شعر الخمرة والغناء .

ويستثير ألالم في نفس الشاعر عاملان : خاص وعام ، وفي كليهما لابد أن يتحقق عامل القطع ليحصل الالم .

يفتقد الشاعر صديقا او حبيبا بالموت او الفراق فيتالم ، وعن هذه الحالة ينبثق شعر الرثاء . ويفتقد الشاعر الصورة المثالية التاريخية للمجتمع السليم القوي فيتالم ، ويصدر عن المقابلة في وجدان الشاعر التاريخي المدعم بالثقافة والتجربة ، بين الامس القوي والحاضر المتردي شعر الحكمة والأسى الغاضب اللذان يولدان في نفس المتلقي اثرا تحريضيا مباشرا .

واذا كانت اللحظة هي فسحة اللذة ، والذاكرة هي فسحة الالم ، فان لصدق المعاناة ، والتعبير عنها ، الدور الاكبر في اقناعنا بلذة الشاعر وألمه ، وفي الارتقاء عن طريق التواصل من الذاتي الى الكلي

شعر الالـم

اكثر رثائياته صدقا وحزنا ما قاله في استاذه العارف عمر البابي ، والجندي في شعره الرثائي ليس بشاعر يفلسف الحياة والموت كالمعري ولكنه يبقى ذلك المنشد العاطفي : المغني في الافراح ، النداية في الاحزان وشعره لا يخرج عن القيم والبنى التقليدية للقصيدة الرثائية ، فالخطب جلل ، والمصاب عظيم ، والنفس جزعة لفقد الالف ولكن سهم الموت لا يرد ، وقلب الشاعر متردد بين الغرام والحزن واللوعة ، والاقـلام تبكي للشمس التي واراها الثرى ، والاسلام اصيب بثلمة لا يرجى سدها ، ثم يعدد مناقب الميت فهو الشريف والبحر والروض والسيف والقطب ، وقد ذهب من الفقيد ما هو فان ــ لجسم ــ وبقي ما هو خالد السر ــ

يقول في رثاء الشاعر الصوفي عمر البابي :

قسـي المنايـا ما لاسهمهـا رد	فما حيلتي والصبر قد دكه البعد
دهيت برزء لا يطـاق عنــاؤه	وكـرب وحـزن ما لغايته حـد
غـرام وحـزن واحتـراق ولوعة	وتذكار عهد يستفز بـه الوجـد
وشوق اذا مـا الدهـر اطفا حره	تزايد ما بين الضلوع به الوقـد
ونفس لفقد الإلف امست جزوعة	اذا ما نحاها البين اتلفهـا الصد
وقلـب على جمر الأسـى متقلب	وطرف كليل مله الدمـع والسهد
حمام الحمى هل انت بالنوح مسعفي	فاني لفقد الإلف اشدو كما تشدو
لقد كان شملي كالثريـا فاسرعت	بتشتيته الايـام وانتثـر العقـد

بعد ثماني سنوات توفي محمد الازهري الكيلاني فرثاه الشاعر بقصيدة مماثلة لهذه القصيدة في مطلعها وايقاعها وصورها ومضمونها :

قسي المنايـا هل تطيش سهامها	وهل حادثات الدهر ينبو حسامها
دهيت بخطـب لا يطـاق ولوعـة	توالي على جسم النحيل سقامها

كيف نعلل هذا التماثل ؟ لا شك أن أحزان الشاعر الذاتية تمنعه من الخروج من الحالة الى تأملها ، ثم ان الشاعر بطبعه الطرب يضيق بالحزن وهو الذي وصف نفسه بأنه « جزوع لا صبور على البلا » فيدفعه هذا الضيق الى الانفلات من الموقف بتناول اقرب الصيغ الجاهزة سواء اكانت له ام لمن سبقه من لشعراء ، وهكذا نراه يكرر نغمات قديمات ويردد حزنا مماثلا .

فقد الصفي لم يفجر في شعره طاقة حكمية او فلسفية ، انه حزن ذاتي اغلق عليه نوافذ التأمل ، لكن فقد المثال التاريخي استطاع ان يعطفه الى الحكمة وفلسفة القوة وتوفر الشجاعة في شخص مجاهد كنصوحي باشا دعاه الى تعميم الدعوة الى القوة والتماس اسبابها في عصر اتسم بالضعف

فعش عزيز النفس او مت فلا ترضى ببذل فيه تستحقر
فالميت من لا جاه يرجى له في الحي ، لا الميت الذي يقبر
فجد ببذل النفس ان تبتغي نيل نفيس دركه يعسر
فلا ينال الـدر شخص على شرب اجاج البحر لا يجسر
وليس يجتني الشهد من يختشي من لدغ سم النحل او ينفر

عاش الشاعر في ظروف سياسية واجتماعية انقلابية مضطربة ، كانت حياته في ديناميتها مغامرة وتحديا لسكونية الاعراف والتقاليد والمفاهيم السياسية ، كانت تجربته كبيرة ، ولكن حكمياته لم تكن ترجمة مبدعة لهذه التجربة ، وانما كانت ترجمة واحتذاء لافكار وتجارب من سبقه من فحول الشعراء ، انه من جديد يقع أسير القوالب الفكرية والتعبيرية الجاهزة فلا تقع اليد في هذا المجال على معنى جديد او صياغة جديدة للمعاني القديمة

شعر اللذة

الغزل والخمرة والطبيعة هي أقانيم اللذة لدى الشاعر، وتشكل المقدمات الغزلية والخمرية والوصفية، المحطة الأولى الأكثر أهمية والتي يتوقف عندها الشاعر طويلا، وقد شهد له أهل زمانه بتفوقه في الغزل، وقال عنه الأب لويس شيخو: «وقد غلبت عليه الغزليات» وغزله رمزي صوفي، وحسي يستخدم فيه ضميري المذكر والمؤنث.

ولكل مقام مقال، فاذا كان الممدوح ذا مركز ديني فغالبا ما تكون المقدمة الغزلية رمزية تنتشر فيها المصطلحات الصوفية كقصيدته في محمد بك من اتباع الحج الشريف ومطلعها

اقبلت نشوانه والقد رمح   والمحيا فوقه ليل وصبح

وفيها يقول:

وادارت ثوب ياقوت له   بنصال الماء عند المزج ذبح
فانشح حان الانس بالبسط فقد   حان للندمان بالالحان شطح
ونغزل بعيون كل من   دب فيه السكر منها ليس يصحو
وخدود كاد ان يدميها   رقة من اعين العشاق لمح
واجعل الكل لذات الله لا   لالتذاذ النفس فيما لا يصح

واذا كان الممدوح رجل سياسة او ذا مركز اجتماعي فغالبا ما تكون المقدمة الغزلية حسية: مثلية او نسوية، وله مقطوعات لا تتجاوز الواحدة عدة ابيات في وصف الغلمان، فقد كان يتعشق الحسن، ويؤكد ان غزله عفيف تاملي «اردت بذا تسبيح من هو موجده»

والغزل المثلي لدى المتصوفة شائع في اشعارهم، يعتقدون انهم يتعبدون جمال الحق في جمال الخلق، وان الغلام اقرب الى صورة

المعبود من الفتاة . وقد يخاطب الشاعر محبوبته بصيغة المذكر وفي ذلك رفع لها الى كمال أعلى :

في الابيات التالية يصل الشاعر الى قمة اللذة الحسية ، فنتساءل : هل يصف تجربة ذاتية حقيقية ، ام انها مجرد صورة شعرية استدعتها طبيعة الغزل والتخيل .

ما زال يرشف من خمر الطلاقمر ... يبدو به من سحاب الشعر في غسق
ومنه في الثغر شمس الراح قد غربت ... حتى بدت شفتاه العسل كالشفق
وقام يخطـر والارداف تقعـده ... نشوان لم يبق منه السكر من رمق
فقلت ذا ملك للشهب يحمل أم ... غزال انس يحاكي البدر في الافق
ضممتـه لمناقـي فانثنى خجـلا ... وفاح من خالـه مسـق لمنتشق
وعندما ماء الحيا صيغت محاسنه ... وكللت وجنتاه الحمـر بالعـرق
اشار نحوي برمز من لواحظـه ... منها عن القدح استغنيت بالحدق
وقال همسا بها لي وهو مبتسم ... ان العناق حرام ، قلت في عنقي

اننا لا نملك الا ان نعجب بتلك اللوحة الحية الرائعة الزاخرة باللون والخط والحركة والوصف النفسي والجسدي ، واللمسة الفنية الاخيرة التي خطها بريشة شاعر رسام مزج فيها عدة الوان . لون القدح ، الحدق ولون اللذة « مبتسم » ، ولون التردد الرامز ، واخيرا اللون الديني الذي يرعش الوجدان « حرام » ؛ وتذوب الالوان جميعها في بوتقة النشوة « قلت : في عنقي » ، انه حقا الشاعر المبدع في غزلياته .

قد يبدا الشاعر قصيدته متغزلا وينتهي متوسلا ؛ لحنان يتناغمان عند خط الافق وشمس حياة الشاعر على الحائط . ينساب اللحن الاول من رياض الذاكرة يوم كان الصبا اخضر مورقا والزمان مزهرا بالانس والترف ، ثم يضطرب اللحن وهو يعبر اوراقه الذاكرة القريبة حيث تغزوه نغمات حزينات تبعثها خطوب الدهر وغربة الشاعـر ،

ليلتقي مع الحاضر وقد وخط الشيب مفرق العاشق القديم وهو يقف اليوم امام قبر النبي يحي ـ ع ـ « فلا يجد امامه ظلا يستظل به من ذنوب الأمس الا امتداح هذا النبي .

قفا خليلي حتى ينقضـي لهفـي … وحدثا جيرة بالشام عن شغفي
وعرجا نحو هاتيك القباب فلـي … في ربعها شادن كالدر بالصـدف
حلوالشمائل معسول الرضاب حلا … من ريقه لا من الصهباء مرتشفي
مهفهف القد ان مـر النسيم به … تخالـه غصـن بان غير منعطف
وما نسيت لويلات عهـدت بهـا … عهد الصبا وزمان الأنس والترف
حتى رايت خطوب الدهر قد وقفت … خلفي ، ولـم ار خلايقـي تلفي
فليس للنفس ظـل تستظل بـه … من الذنـوب اذا امست على جرف
الا امتداح نبـي لم يـزل ابـدا … غوث اللهيف وذخر المبتلي الدني

التداخل الهارموني في سمفونية الذنب والتوبة توقعه انملات النفس الشاعرة في قصائد أخرى ، المؤثر نفسـه : وقفة خاشعة امام مقام يوشع النبي ، انغمات المتباينات المتداخلات تتوحد شيئاً فشيأ في نغمة واحدة هي التوبة ، تعزف على وتر واحد هو التوسل

اسفا على العمر الذي ضيعته … مذ كنت في زمن الصبا اترعرع
وربيع عيشي بالمسـرة اخضـر … ورياض عمري بالشبيبة اينـع
وصباح عمري بالخلاعة مسفر … ومدام انسي بالصفاء مشعشع
يانفس قد بقي القليل فشمري … ساق اجتهادك ،ان قلبي يخشع
واذا تذكـرت الجنايات التـي … سلفت ، اكاد من الحيا اتصدع
مولاي قد كثر الخطا وتعاظمت … مني الذنوب فدلني ما اصنـع
ان كنت قداوسعت خرق جنايتي … فعظيم عفوك منه ربي اوسـع

نتسـاءل ما الذي بقي للنبي يوشع من قصيدة تعداد ابياتها خمسـة وخمسون ، لاشيء سوى بضعة ابيات اقتحمها الشاعر ايضا بتوسلاته ورجائـه

روعة هذه القصائد تكمن فيما تختزنه من صراع ، والقصيدة ذات البنية الدرامية هي القصيدة الاكثر خلودا ، وبعض قصائد الجندي تحقق خلودها بما تحمله من دراما النفس البشرية .

هل ترانا حدونا هذه النماذج لنقول : ان اشعار الجندي الغزلية لم تكن تظاهرة شعرية وانما هي حياة حقيقية عاش الشاعر تجربتها ؟

كل شيء يؤكد هذه الحقيقة : سيرة الشاعر ، اعترافاته ، ما اشاعه الناس عن هناته ، حتى التدفق في اسلوبه ، والحرارة في مشاعره ، وراحة اللذاذة الاخاذة في صوره واوصافه .. كل ذلك يشير الى ان العشق كان نسيج حياته وشعره .

وعشق المراة امر آخر ، انه ذو نكهة خاصة ، بالعشق تتحقق انسانية الانسان ، ويكون لوجوده معنى ، ذات يوم تحدثوا في الحب امامه فانكر بعضهم هذه العاطفة فقال الشاعر :

اذا انت لم تعشق حبيبا ولم تذق ... حلاوة وصل او مرارة هجران
فما انت الا صورة لم يكن بها ... اذا اختبرت معنى ،ولست بانسان

والمراة في شعره قد اهيف ، ولحاظ ذات فتك بالعاشقين ، وطلعة كانها الشمس يزيدها الحلي حسنا ، انها الجميلة بين لداتها ، حديثها حلو ، حركاتها رشيقة ، غناؤها عذب ، ويمتزج الوصف الحسي بلوحة الطبيعة الجميلة في مشهد حار ممتع .

من لي بهيفاء يبدولنا ... منها بغصن القد رمانتان
نشوانة تختال من عجبها ... مابين اقمار غوال غوان
تزداد حسنا كلما اشرقت ... شمس الحلي في جيدها النيران
لم انس اذ زارت كغصن النقا ... تزهو ببدر العقد والطيلسان
فيروضة ترشفشمس الضحى ... كل الندى من مبسم الاقحوان

ومذ راتني مغرما في الهوى مبلبل البال عميد الجنان
قالت غريب الدار يشكو النوى شطت بك الاوطان بعد التدان

قديما كانت الراحلة تحمل الشاعر الى ممدوحه ، وخلال الرحلة يقف على الأطلال ، ينقل مشهد صيد ، يصف الناقة او الفرس ، اما الجندي فتنهض به الى ممدوحة فتاة لبنانية يشكو اليها النوى والغربة ، فتاخذه الى معاهد ممدوحة الجنائنية ليسلو همومه واحزانه « بالطرب والشرب على توحيد صوت المثان » هذه الالتفاتة الحضارية تشكل خروجا على التقليد الشعري في زمن اتسم بالجمود والتقليد

فعندها صاحت أن انهض الى معاهد تحكي رياض الجنان
ما بين نسرين وآس زهـا في وجنة حمراء كالارجوان
هناك فانس الهم واطرب وطب واشرب على توحيد صوت المثان

عندما تتملك الشاعر نشوة الغزل ، ويأسره جمال الطبيعة يرداد شعره رقة وعذوبة وغنائية ، وتسري في الابيات حركة رشيقة كانها اقدام راقصة لا تكاد تثبت على الارض ، فتسمع لها وقعا مرقصا ، وتحس لخفتها تكاد تطير ، وتساهم الالفاظ المنتقاة ، والعبارات الملونة ، والصور القريبة المتدافعة في هذا المهرجان الاحتفالي البهيج ، اما الحبيبة فأميرة في محفة الطبيعة ، وحركة انسانية رشيقة في لحن موسيقي يناغمه عشق الشاعر الطرب

بيضاء تريك اذا سفرت قمرا يتبرقع بالشعر
مرت والعنبر يسبقها كنسيم مر على نهر
وحمام الحلي يضيح على غصن قد وشع بالزهر
وقسي لحظ ما برحت ترمي الاحشاء بلا وتر
لم انس وعيشك يوم اتت تختال بموشي الطرر
فطفقت اقول لها فرحا اهلا بالغصن المزدهر

الصدق والعفوية والسهولة والعذوبة والموسيقى المنبعثة من حركة الالفاظ والصور والفعل الانساني حولت شعره الى مهرجان للغناء والرقص واعطته سيرورة واسعة ، وجعلته الشخصية المحببة الى القلوب .

اراد ان يشعر فارقص واشدي ، وافرح واحزن ، وامتع وازهد ، واغضب وارضى .

قال عنه لويس شيخو في كتابه الآداب العربية في القرن التاسع عشر « كان اهل زمانه يتزاحمون على مسامرته ، ويتنافسون في مواصلته ، ويتفننون باقواله » .

ومازلت اذكر وانا صغير كيف كان العامة يتنادمون باشعاره في مجالسهم مما لم يسجل في ديوانه المطبوع ، والمغنون ينشدون قدوده وموشحاته فتمتد السهرة حتى مطلع الفجر .

غالبا ماركون وصف الخمرة والساقي جزءا من بناء القصيدة ، ولا يمكن الفصل بين ثلاثة أغراض تتداخل وتشكل الاستهلال والقسم الاهم من القصيدة وهي : الغزل ، الخمرة ، الطبيعة ، هذا يتسق مع حياة الشاعر ، ويشكل المعادل الشعري لنسيج واقعه المعاش ، فقد كان يكتب القصائد والموشحات والقدود والمواليا للمغنين ، ويخالطهم حياتهم ، ويشاركهم حفلاتهم وسهراتهم الفنية في البيوت وفي احضان الطبيعة ، فاذا هزه الطرب ، وسكر بالجمال ، فكل شيء يدعوه الى وصف الخمرة وتعاطيها فهي تمام اللذة وكمال السعادة

عاطنيها ، فقد دعتني اليها — نغمات الجنوك والاوتار
عاطنيها ، لدى غناء حمام — ويمام وبلبل وهزار
عاطنيها ، والنرجس الفض يدنو — بلحاظ تروق للنظار

والخمرة عروس مؤنسنة ، ازدهت بالحسن ، وساقيها هلال يحمل بانامله الكاس النجمية المشعة ، وهو مغن هزاري الصوت ، وراقص متثن

بدري الجمال ، وكي تشارك جميع حواسه بادراك هذه اللذاذة فهو يطالب مغنية ان يشنف اذنيه باوصاف الحبيب ، وهكذا تشارك في خلق لحظة المتعة ثلاث حواس هي : الذوق والبصر والسمع .

ادر يـا ابـن ودي بنـت كـرم كانهـا
عـروس عليهـا الحسن دلـت دلائلـه
وروق لنـــا كاســـا كـــان مـديـــره
هــــلال تقـل النجـم منــــه اناملـــه
وطب في الهوى ، واطرب ، وشنف ،وغن لي
باوصـــاف بـــدر ليـس تخفـى مكاملـه

وللخمرة فوائد ، انها تزيل الهموم وتبعد المخاوف .

وامـــزج لـدى مدامـي واسقنـي كرمـا
ان المـــدام يزيـــل الهـــم والهلعـــا

واذا كان النواسي قد عاج يسال عن خمارة البلد نكاية بالشغي الذي عاج على رسم يسائله فان الجندي يطلب من نديمه ان يعوج الى المدام متخففا من كوابت التابو ، مبررا تعاطيه الخمرة بازالة الهموم والاحزان .

عــج للمـدام نديمي واملا لـي القدحـا
ففي الحـشاء زناد الشـوق قـد قدحـا
الام تحـــسر عنـي الكـــاس معتقـــدا
تحريـــم راح يزيـــل الهـــم والترحـــا

الشاعر نزق من هذا المنع ، يعبر عن نزقه بالاستفهام الاستنكاري : « إلام » ، والخمرة فيض ، ومنعها حسر ، ويورد كلمة « راح » في صيغتها التنكيرية ليخف من شأنها كاحدى المحرمات .

وليقنع نديمه ويغريه بتناول الخمرة فانه يسترسل في وصف الكاس والخمرة والساقي ، فيأتي بالصور البديعة المنسوجة بخيوط من الذهب والفضة والفرح وعتمة السحر وترجيع الغناء . لقد إستكمل الشاعر وصف المشهد الخمري فأبدع .

تريك في الليل انوارا اشعته
كانه من اديم الشمس قد رشحا
من كف ساق اذا ما مر تحسبه
بدرا تقلد بالجوزاء واتشحا
مدت على الكاس يمناه لنا شركا
من فضة فاصطادت الفرحا
وصب للصب من ابريقه وجلا
تبرا عليه حباب الدر قد طفحا
اذا تثنى وغنى خلته سحرا
هزار انس على غصن النقا صدحا

تلك هي الخمرة المعتصرة من اثداء الكروم ، لامراء ، ولا مجال للشك في لونها ومذاقها الحسيين ، بما كان سكر الشاعر في ايام الصبا وسنوات الشروق .

فاذا إكتهل الشاعر ، وجاءت سنوات الغروب أصبح سكر الشاعر بالخمرة الروحية . يقول من قصيدة مطلعها :

من لاحتراق حشاشتي وتالمي
ولهف قلبي المستهام المغرم

. . .

بالله شنف يا نديم وعاطنيا
كاس السلافة بالهناء وزمزم

وامــلا الكؤوس لنا من الخمر الــذي
هـــو لا بمكـــروه ولا بمحـــــرم
واطرب وطب واخلع عذارك في الهوى
واشرب وغب واشطح وغن ودمدم

كمال النشوة في البيت الاخير حيث تتناغم عناصر عديدة تحقق اللذة الروحية العليا .

وصف الطبيعة جزء من لوحة متكاملة البهاء ، فالشاعر يلتقي المحبوب دائما في روضة غناء ، او يسير به المحبوب الى احضان الطبيعة ليتعاطيا كؤوس الغرام والشراب والغناء .

والشاعر يرى المحبوب في الطبيعة ، والطبيعة في المحبوب ، كل منهما يحمل صفات الآخر ، فللحبيب قوام الغصن النضير وتاوده ، ووجه القمر المنير في الليلة المظلمة ، وللورد أكف ، وللنسيم انامل ، اما سواجع الطير فانها كالحبيب تكتحل وتختضب وتوشي اجنحتها .

يهتــز كالغصن النضــير ووجــه — قمــر يلــوح بجنح ليــل مظلــم
لــم ينسه وابيـك قلبي اذ بــدا — يختـــال في ذاك الطــراز المعلــم
في روضة قد بات زهــر غصونها — بالمــزن بـــين مدنــر ومدرهــم
والمــاء بــين تقاصـــر وتصاعـــد — والغــصن بــين تاخــر وتقــدم
وعلى الغصون سواجع قد هجن في — تغريدهــن شجــون كــل متيــم
وكحلن بالياقوت باطــن ناظــن — وخضبن بالحناء ظاهــر معصــم
ووشــين اجنحــة لهــن وهامــة — بالنــور بــين تسـرول وتعمــم

قلما نجد قصيدة لديه اقتصرت على وصف الطبيعة الجامدة او الحية، فنظرته الى الجمال كلية ولا يتكامل هذا الجمال الا بالوجــه الصبــوح والخمرة الرائقة والصوت المطرب ، غير ان الوصف قد يستغرق الشاعر

فيحتل المساحة الكبرى من عمارة القصيدة ، كتلك التي يعارض فيها الحلي في عيد كسر الخليج ومطلعها :

خلع الربيع على غصون البان ... حللا فواضلها على الكثبان

اما قصيدة الجندي فمطلعها :

قمر يتيه بقده المران ... عجبا فيبسم عن عقود جمان
قد خلته اذ لاح من افلاكه ... متوشحا بقلائد العقيان

القصيدتان تشتركان في امر :

١ ــ البحر والقافية والروى .
٢ ــ وصف الربيع .
٣ ــ اعتماد قاموس لفظي واحد .
٤ ــ الاستهلال بالوصف للوصول الى المديح .

غير ان قصيدة الجندي تتميز عن الاصل المحتذى بما يجعل لها خصوصية ، لقد اضاف الشاعر اليها عنصرين هما :

١ ــ العنصر الانساني : وهو الحبيب ، انه ملك في صورة بشرية ، ونبي حسن اقبل يدعو الشاعر الى عبادة الجمال ، وثمة حركة انسانية نحو الطبيعة ، انها حركة الحبيب وهو يسعى الى عكار متهاديا بين الزهور ليصل الى دار الممدوح الغارقة في احضان الطبيعة .

قد خلته اذ لاح من افلاكه ... متوشحا بقلائد العقيان
ملكا بدا في صورة بشرية ... يرنو بناظر اغيد وسنان
ونبي حسن جاء يدعونا الى ... حب الجمال بغرة الاجفان
قد ظللته غمامة من فرعه ... ولقده سجدت غصون البان
يسعى لعكار الصفا متهاديا ... والزهر في الاكمام ذو الوان
دار بدوحة برجها ايدي الصبا ... شقت جيوب شقائق النعمان

٢ ـ العنصر النفسي : وهو التذكر . الطبيعة الجميلة في عكار مؤثر خارجي يهيج ذاكرة الشاعر المغترب ، فيسترجع صور الطبيعة في مدينته معيدا الى سطح الشعور عهده بذات الراح والريحان ، فاذا ابتسم ثغر الارض هنا في عكار قفزت من الذاكرة صور الماضي فجرت ادمع الشاعر شوقا وحنينا ، واذا هبت عليه نسمات البحر الغربية اهاجت وجده الى ذلك البرج والايوان .

وصف الطبيعة عند الجندي في هذه القصيدة متعانق مع ذكريات الشاعر ، فثمة صورة للطبيعة مستمدة من الذاكرة واخرى مستمدة من الواقع ، هكذا يتكون النسيج الوصفي ، يسدى بخيط فيها الق الماضي ، ويلحم بخيوط فيها جمال الحاضر وبهجته ، غير أن استدعاء الصورة الحاضرة الجميلة للصورة الماضية الجميلة وتناغم الصورتين يثير في نفس الشاعر الشجن ويحرك فيها لواعج الشوق والحنين .

ولقد ذكرت بمائها وهوائها — عهدي بذات الراح والريحان
ارض اذا ما افتر بارق ثغرها — اجري سحائب مدمعي الهتان
ومتى نسيم الغرب هبَّ اهاج بي — وجدا لذاك البرج والايوان
افديه من برج زها فرياضه — خفاقة الافياء والافنان
من حيث اطلعن الغصون سوالفا — يروي الربيع لها عن الريان
وبدت ثغور الاقحوان فقبلت — صبحا عذار الآس والسوسان
والورد فتح للهناء كفوفه — فدنا يصافحه نسيم البان
وغدا خطيب الطير يفصح معربا — بالسجع فوق منابر الاغصان
وتراقصت تلك الغصون فصفقت — لغنا الحمام جداول الغدران
ومليكة الحسن البديع تظاهرت — من خدرها تختال كالنشوان
خود كان الظرف قد اهدى لها — ميل الغصون ولفتة الغزلان
فتاكة من لحظها وقوامها — تغزو النهى بمثقف وسنان
هيفاء تجلى في مطارف سندس — قد رصعت بالدر والمرجان

حب الشاعر لحمص وهو الكثير الاغتراب عنها خضب شعره بألوان التذكر وصوره ،وما يرافق هذا التذكر من حالات نفسية تتولد من التماس مع الواقع ، ومقابلة الماضي بالحاضر ، وانعكاس هذه المقابلة باحتمالاتها على لوحة النفس يأتي في قصائده كما يلي :

الماضي	الحاضر	الشعور
اضواء	أضواء	رضى وفرح مشوبان بالحنين والشوق
اضواء	ظلال	حزن ولوعة
ظلال	أضواء	فرح وأمل
ظلال	ظلال	حزن وأسى

لقد حمل الشاعر حبه المزمن لمدينته حمص في قلبه طيلة حياته كما يحمل المريض داءه الدفين المزمن في جسده ، فكان حب الوطن جزءا من ايمانه الكبير :

لا تكن لي عاذلي معترضا في الهوى ان ترني ذا شجن
حب حمص قد كساني مرضا ومن الايمان حب الوطن

اخيرا :

فان هذه التراتيل الغزلية الساحرة ، والتي تتلاحم فيها خيوط الحب والخمرة والطبيعة لتكون نسيج المشهد الغزلي الرائع المتنقل من غير ثبات بين اللذة الجسية المادية واللذة الروحية الصوفية ، هذه التراتيل كان لها التأثير الكبير في شعر من جاء بعده من الشعراء ،مضيفين الى ذلك تأثرهم الشديد به فى صناعة الموشحات والقدود أيضا ...

حتى اننا نستطيع أن نقول غير مغالين : ان أغلب شعراء حمص الكلاسيين منذ القرن والى الان انما خرجوا من تحت عمامة أمين الجندي

هل كان الجندي يدرك بعين النقد الذاتي الخصائص التي تميز بهـا شعره في عصر النظم المتكلف والتقليد المتزمت والتعبير المحنط ، وأن هذه الخصائص هي التي منحته امارة الشعر بلا منازع في الفترة الانتقالية التي عاش فيهـا ؟

نعتقد انه كان مدركا ذلك ، فبعد ان طوف في البلاد ما بين مصـر والشام واليمن وجد أن شعره قد حقق سيرورة لم يحققها شعر اي شاعر آخر عاش في الفترة نفسها ، ورغم علاقاته الايجابية او السلبية مع حكام البلاد فانه لم يحصل على زعامة الشعر بمرسوم سلطاني ، وانمـا بالحب والقبول الحسن اللذين حملهما الناس لشعره فحفظوه وتناقلوه مما جعله لا يهتم بتدوين شعره مادام محفوظا ومرويا لدى الناس .

وقد شهد له أعلام الادب والشعر في عصره بتفوقه ، يقول عنه البيطار في حلية البشر رغم نزعته العثمانية المتشددة ولومه الجندي على تاييده ابراهيم باشا : (فاق اهل زمانه بما القاه من بديع الشعر) .

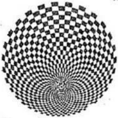
والنظرة الموضوعية تفرض علينا ان نقول : ان الجندي قد ابـدع وقلد ، وتألق وخفى ، وعفا وتكلف ، وجمح وكبا ، وحلق ورنق ، وجلى وصلـى .

ولكنه في شعره الوجداني والغنائي كان الرائد الاول في الخروج من مدرسة التحنيط الشعرية وعليها ، وكانت السائدة في ظهيرة واصيل العهد العثماني ، وكان له الفضل في حفظ جانب هام من التراث الغنائي ، وقد صار شعره هو التراث .

كان شاعرا صنعته الشعر ، اراد ان يشعر فانشد ، واراد ان ينشد فغنـى ...

حياتـه الشـعر والغنـاء
وغناؤه وشـعره هما الحياة

* * *



دراسات في علم النفس ـــــــ محوّر

لماذا الحرب؟
سيغموند فرويد
ترجمة: عبد الكريم ناصيف

طبيعة الأحلام
اريك فروم
ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

دروس علم النفس التحليلي
ك. غ. يونغ
ترجمة: نهاد خياطة

سيكولوجية اللغة
د. عبد المجيد النشواتي

السلوك المنقسم وانحرافاته
صقر خوري

لماذا الحرب؟

سيغموند فرويد
ترجمة: عبد الكريم ناصيف

لقد تدرب فرويد كطبيب كما قام بابحاث فزيولوجية قبل زمن طويل من تحول اهتمامه الى التعقيدات السيكولوجية التي يتسم بها سلوك الانسان. لذا ، لم يكن مفاجئا ، بخلفيته هذه وبالروح الداروينية التي سادت عصره ، انه كان لابد من ان يتوصل الى نظرية في السلوك البشري تمتد جذورها عميقا الى الطبيعة الحيوانية للانسان . ففي الوقت الذي يعتمد فيه الاثيولوجيون كمارأينا ، على مشاهداتهم للحيوانات الدنيا ، فقد ركز فرويد على الانسان ، مستنبطا معظم استنتاجاته من تحليل ديناميكيته الداخلية ومن المعالجة التحليلية النفسية لمرضى الاضطراب النفسي ، وكذلك انما بدرجة اقل نوعا ما ، من خلال دراسته لنتاج الانسان الادبي والفني .

. في الرسالة المفتوحة التالية الموجهة الى اينشتاين والمكتوبة في السنة نفسها التي استلم فيها هتلر السلطة ، حاول فرويد أن يستخدم نظرية التحليل النفسي لتفسير اخطر امراض الانسان النفسية : نزعة الحرب . فالحرب العالمية الاولى كانت قد خلفت تأثيرا عميقا في تفكير فرويد . وهو قبل ذلك الصراع « البشع » كان قد اكد على قوة الحياة (الليبيدو او الجنس) بوصفها المصدر البيولوجي للدافعة عند الانسان . بيد أن التدمير الهائل الذي خلفته الحرب جعل مؤسس مدرسة التحليل النفسي ابن الستين عاما ، يقتنع بان الانسان لا يسير مدفوعا بالليبيدو وحسب ، بل بجملة اخرى مجهولة من الدوافع اصطلح على تسميتها « بغريزة الموت » (جونز ، ١٩٥٥) ، الوظيفة الاساسية لغريزة الموت ، حسب اعتقاده ، هي تدمير الفرد واعادته الى حالة الجمود وانعدام الحياة ، وقد رأى فرويد في العدوان الصريح المظهر الخارجي لهذه الغريزة .

وعلى الرغم من أن لورنز قال ان الدوافع العدوانية والكوابح كلتيهما فطرية ، فقد اكد فرويد على انه رغم وجود اساس بيولوجي للدوافع العدوانية فان قوى الكبح تتطور ابتداء من مرحلة الطفولة كنتيجة لحل عقدة أوديب وما يتبع ذلك من تكون الانا العليا ، او الوجدان .

لقد قوبلت غريزة الموت المفترضة هذه ، شأنها شأن الكثير من نظريات فرويد ، بشيء من الريبة والتشكك من داخل حركة التحليل النفسي وخارجها على حد سواء . ففكرة أن الانسان يحمل في داخله بذور دماره ذاته بدت منافية لكثير من المبادىء اللاهوتية والفلسفية بل والعلمية ايضا وكما هي الحال بالنسبة الى الموقف الاثيولوجي ، لم يكن ثمة طريقة صالحة لوضع فرضيات فرويد موضع التجريب ، ولم يكن دعم وجهة نظره قائما بالاساس الا على المحاكمة المنطقية والمشاهدات الخاصة .

لنظرية فرويد دلالات عملية هامة . فكما هو الشأن مع لورنز ، فان الفكرة القائلة بان التحريض على العدوان هو صفة فطرية من صفات البشر انما تدل على أنه لا يوجد الا القليل مما يمكن أن تتوصل اليه

الجهود التي تبذل للحيلولة بين الدوافع العدوانية وبين الظهور الى حيز الواقع . بل الاكثر من ذلك ، فان الفكرة تدل بشدة على أن العنف ، ومثال عليه النزوع الى القتل ، هو الشكل الطبيعي الذي يتخذه السلوك العدواني مالم توقفه كابحة ما . من جهة اخرى ، فان نظرية فرويد القائلة بان الكوابح تنمو بنمو تفاعلات الطفل مع عائلته في مسيرته الحياتية ، انما تدل على ان ممارسات تربية الطفل الهادفة لتعزيز الكوابح ضد العدوان لديها الكثير من الامل في التخفيف من العنف .

عزيزي البروفسور اينشتاين

فيينا ، ايلول ١٩٣٢

حينما سمعت انك تنوي توجيه دعوة الي لتبادل وجهات النظر حول موضوع يثير اهتمامك ويستحق على ما يبدو اهتمام سواك . فقد وافقت على الفور . لقد توقعت ان تختار مشكلة تقع عند حدود ما يمكن معرفته في الوقت المتاخر ، مشكلة يمكن لكل منا ، انت عالم الفيزياء وانا الطبيب النفساني ، ان كان له زاوية رؤية خاصة بها ، حيث يمكن أن نلتقي عندها معا وعلى الارض نفسها بعد أن تكون قد جئنا من اتجاهين مختلفين، لكنك فاجأتني بطرح سؤال عما يمكن فعله لحماية الجنس البشري من الحرب ولعنتها . لقد فزعت باديء ذيء بدء بسبب عجزي ـ وكدت اكتب عجز نا ـ عن معالجة ما يبدو لي انه مشكلة عملية ، شان من شؤون رجال الدولة . لكنني ادركت بعد ذلك انك لم تطرح السؤال كعالم طبيعيات وفيزياء بل كانسان محب للانسانية ، وانك تتابع عمليات الحض على اقامة « عصبة الامم » تماما كما تعهد مكتشف القطب ، فريدتجوف نانسين ، على نفسه ان يعمل ما في وسعه لمساعدة ضحايا الحرب العالمية ممن حرموا المأوى والطعام . ولقد فكرت ، زيادة على ذلك ، انني لم اتلق السؤال بغية وضع اقتراحات عملية بل فقط لكي اعرض مشكلة تجنب الحرب كما تتبدى لعين عالم نفساني . هنا أجد مرة ثانية انك قلت كل ما ينبغي قوله حول

الموضوع تقريبا . لكن وعلى الرغم من انك ــ كما يقولون ــ افرغت شراعي من الريح فانه ليسعدني أن اكتفي أترك قانعا باثبات كل ما قلته وذلك من خلال توضيحه طبقا لافضل حالات معرفتي ــ او تخميني

لقد بدات بطرح العلاقة بين الحق والقوة ولا شك ان تلك هي نقطة الانطلاق الصحيحة لبحثنا . لكن هل يمكنني ان استبدل بكلمة «القوة» كلمة اقسى واصرح هي كلمة « العنف » ؟ في الوقت الحاضر يبدو لنا الحق والعنف كنقيضين متضادين . مع ذلك ، من السهل ان نبين ان احدهما انبثق عن الاخر ، واذا ما عدنا الى البدايات الاولى ورأينا كيف ظهر الاول ، فان المشكلة تحل بسهولة . ولا بد لك من ان تعذرني اذا وجدتني فيما يلي أنظر في الافكارالمقبولة لدى الناس عامة وكأنها جديدة ، فحجتي تقتضي ذلك اذا ما اردنا الامساك براس خيطها .

المبدأ العام ، اذن ، هو ان يلجأ الناس لاستخدام العنف بغية حل النزاعات بينهم حول مصالح معينة . وهذا ينطبق على مملكة الحيوان كلها ، تلك التي لا يستطيع الانسان فصل نفسه عنها . لكن مما لا شك فيه أنه بالنسبة الى الانسان تحدث ايضا صراعات في الرأي ، صراعات قد تصل الى أعلى درجات التجرد وتبدو وكأنها تقتضي اسلوبا اخر لحلها . بيد ان ذلك تعقيد آخر يأتي فيما بعد . فمنذ البداية كانت القوة العضلية المتفوقة هي التي تقرر بين افراد جماعة بشرية صغيرة ، لمن تعود ملكية الاشياء او من ينبغي ان يسيطر . هذه القوة العضلية لحق بها سريعا وحل محلها استخدام الادوات : فغدا الفائز من يملك السلاح الافضل او من يستخدمه على نحو ابرع . ومنذ اللحظة التي دخل فيها السلاح عالم الانسان ، بدا التفوق الفكري تقريبا يحل محل القوة العضلية البهيمية ، لكن غاية القتال النهائية بقيت هي ذاتها ــ ان يجبر هذاالطرف او ذاك على التخلي عن دعواه أو اعتراضه وذلك بايقاع الضرر به وتحطيم قوته . وكانت تلك الغاية تتحقق على اتم وجه اذا ما استطاع عرف

المنتصر أن يقضي على خصمه قضاء مبرما ، اي ان يقتله . فلهذا العمل ميزتان : اولاهما انه لن يستطيع تجديد مقاومته ، والثانية ان مصيره سيمنع الاخرين من احتذاء مثاله . زد على ذلك ان قتل الخصم يرضي ميلا غريزيا سأذكره فيما بعد . فنية القتل يمكن ان تقابلها فكرة اخرى هي ان الخصم يمكن ان يستخدم لتادية خدمات مفيدة اذا ما ابقي على قيد الحياة وفي حالة شديدة من الضعف والذعر . في هذه الحالة يقنع عنف المنتصر باخضاع الخصم بدلا من قتله . وهذه هي البداية الاولى لفكرة الابقاء على حياة الخصم ، لكن فيما بعد تعين على المنتصر ان ياخذ في حسبانه تعطش الخصم المنهزم للانتقام وان يضحي بشيء من امانه .

هكذا ، اذن ، هي الحالة الاصلية للاشياء : السيادة لمن يملك القوة الاكبر ، السيادة للقوة الوحشية او للعنف الذي يدعمه التفكير . وكما نعلم ، فقد تغير هذا النظام مع مسيرة التطور . اذ وجد طريق قادالانسان من العنف الى الحق او القانون . لكن ما هو ذلك الطريق ؟ باعتقادي انه كان واحدا فقط : انه الحقيقة التي تجلت لعين الانسان وهي ان القوة التي يتفوق بها فرد واحد يمكن ان ينافسها اتحاد قوى لعدد من الافراد الضعفاء : « فالوحدة تصنع القوة » . اذن العنف يمكن تحطيمه بالوحدة . وقوة اولئك الذين اتحدوا غدت تمثل القانون تجاه عنف الفرد الواحد . من هنا نرى ان الحق هو قوة الجماعة ، لكن ظل العنف على اهبة الاستعداد لان يوجه ضد اي فرد يقاومه ، انه يعمل بالاساليب ذاتها ويستهدف الغايات ذاتها . الفارق الحقيقي الوحيد يكمن في ان السيادة لم تعد لعنف الفرد بل لعنف الجماعة . لكن لكي يكون بالامكان الانتقال من العنف الى هذا الحق الجديد او العدالة الجديدة كان لابد من تحقيق شرط سيكولوجي .

هذا الشرط هو ان تكون وحدة الاكثرية ثابتة ودائمة . اذ لو أن الوحدة تحققت فقط بغية مواجهة فرد مسيطر واحد ثم الغيت بعد هزيمته ، فسيكون الامر وكأن شيئا لم يكن . ذلك ان أول من يجد في نفسه القوة الكافية سيسعى مرة اخرى لفرض هيمنته عن طريق العنف

وستتكرر اللعبة ذاتها الى ما لا نهاية . من هنا كان لابد للجماعة من أن تدعم باستمرار وان تنظم وان تضع الانظمة التي تتوقع مسبقا خطر التمرد ، كما كان عليها أن تقيم السلطات التي تشرف على تطبيق تلك الانظمة ــ القوانين ــ وتتأكد من تنفيذ اعمال العنف المشروعة قانونيا . اعتراف الجماعة بمصالح كهذه ادى الى نمو روابط عاطفية بين افراد جماعة متحدة من الناس ــ فكانت مشاعر الوحدة تلك هي المصدر الحقيقي لقوتها .

هنا ، على ما اعتقد ، تتوفر لدينا النقاط الجوهرية كلها : يتم التغلب على العنف بانتقال القوة الى وحدة اكبر ، وهذه الوحدة يتحقق تماسكها بقيام روابط عاطفية بين افرادها . ما يمكن قوله بعد ذلك ليس اكثر من توسيع وتكرار لهذا .

لكن يكون الموقف بسيطا واضحا طالما كانت الجماعة مؤلفة من عدد من الافراد ذوي القوة المتساوية فقط ، وقوانين ارتباط كهذا تثبّت بالمدى الذي يتعين على كل فرد فيه ، ان كان لابد من ضمان سلامة حياة الجماعة ، ان يتنازل عن حريته الشخصية محولا قوته الى استخدامات العنف . لكن حالة مريحة من ذلك النوع يمكن فهمها نظريا فقط . فعلى صعيد الواقع ، نجد ان الوضع يتعقد نظرا لان الجماعة من البداية ذاتها ، تتألف من عناصر غير متساوية القوة ــ رجال ونساء آباء وابناء ــ ثم بعد ذلك ، ونتيجة للحرب والغزو ، ستضم ايضا منتصرين ومهزومين يتحولون الى سادة وعبيد . عدالة الجماعة اذن تصبح تعبيرا عن درجات القوة المتفاوتة الحاصلة ضمنها ، والقوانين فيها تسن من قبل العناصر الحاكمة ومن اجلها ولا يظل فيها متسع كبير لحقوق الرعية المحكومين . من ذلك الوقت فصاعدا برز عاملان مؤثران في الجماعة كانا مصدر القلق فيما يتعلق بقضايا القانون وفي الان نفسه كانا في الغالب مصدر تطوير للقانون . اولهما هو أن بعض الحكام يحاولون تجاوز الحدود والقيود التي تنطبق على الجميع ــ اي انهم يسعون للتخلص من سيادة القانون

الى سيادة العنف . والثاني هو ان افراد الجماعة المضطهدة يبذلون جهودا دائبة للحصول على المزيد من القوة ولاحداث اية تغييرات يمكن تحقيقها في ذلك الاتجاه الذي يسود فيه القانون — اي انهم يندفعون قدما من عدالة غير متساوية الى عدالة متساوية للجميع . هذا الاتجاه الثاني يصبح هاما خاصة اذا ما حدث انتقال حقيقي للقوة ضمن الجماعة ، مثلما قد يحدث نتيجة لعدد من العوامل التاريخية . في تلك الحالة ، قد يتكيف الحق تدريجيا مع التوزع الجديد للقوة أو ، كما يحدث في الاغلب ، تمتنع الطبقة الحاكمة عن الاعتراف بالتغير فيعقب ذلك تمرد وحرب اهلية ثم تعليق مؤقت للقانون ومحاولات جديدة لحل المشكلات القائمة عن طريق العنف ، تنتهي باقامة حكم قانوني جديد . مع ذلك ثمة مصدر آخر يمكن ان تنبثق عنه تعديلات القانون ، مصدر يتم التعبير عنه باستمرار بصورة سلمية : انه يكمن في التحول الثقافي لافراد الجماعة . غير ان هذا يمت بالحقيقة لرابطة اخرى لابد من القاء نظرة عليها فيمابعد .

بذلك نرى انه لا يمكن تجنب الحل العنيف لنزاعات المصالح حتى ضمن الجماعة الواحدة بيد ان الضرورات الحياتية والشؤون المشتركة التي يتحتم وجودها حيث يعيش الناس معا في مكان واحد تميل لأن توصل صراعات كهذه الى حسم سريع وفي ظروف كهذه يكون ثمة احتمال متزايد في أن يتم التوصل الى حل سلمي . لكن نظرة سريعة نلقيها على تاريخ الجنس البشري تكشف لنا سلسلة النزاعات التي لا نهاية لها بين جماعة واخرى او بين جماعة وعدة جماعات اخر ، او بين وحدات سكانية كبيرة ووحدات اصغر — مدن ، مقاطعات ، شعوب ، امم ، امبراطوريات — نزاعات كانت بصورة دائمة تقريبا تحل بقوة السلاح . حروب من هذا النوع تنتهي اما بسلب احد الطرفين او بقهره وفتح بلاده فتحا كاملا . ومن المستحيل ان نتخذ اي حكم حاسم على حروب الفتوح ، فبعضها ، كتلك التي شنها المغول والاتراك ، لم ينجم عنه سوى الشر ، والبعض الآخر ، بالمقابل ، ساهم في تحويل العنف الى قانون وذلك باقامة وحدات بشرية اكبر غدا استخدام العنف فيها امرا

مستحيلا وادى اقامة نظام جديد فيها الى حل الصراعات . بهذه الطريقة ادى احتلال الرومان للبلدان الواقعة على البحر الابيض المتوسط لاعطاء هذه البلدان السلام الروماني الذي لا يقدر بثمن ، وادى طمع ملوك فرنسا ورغبتهم في توسيع ممتلكاتهم الى ايجاد فرنسا موحدة سلميا ومزدهرة . لكن لا بد من الاعتراف ، وهو امر قد يبدو مثيرا للمفارقة ، ان الحرب قد تكون ابعد ما تكون عن الوسيلة غير الملائمة لاقامة حكم السلام « الدائم » المرغوب فيه كل الرغبة ، نظرا لانها في وضع يمكنها من خلق الوحدات الكبيرة التي يغدو من المحال قيام المزيد من الحروب بوجود حكومتها المركزية القوية . مع ذلك فانها تخفق في هذا المجال ، نظرا لان نتائج الغزو والاحتلال تكون ، كقاعدة عامة ، قصيرة الاجل : فالوحدات المحدثة مجددا تتداعى وتتفرق مرة ثانية ؛ ويكون ذلك عادة بسبب الافتقار للحمة التي تشد الاجزاء التي تم توحيدها بالعنف . بل الاكثر هو ان عمليات التوحيد التي تتم بالغزو والاحتلال ، ورغم انها تصل الى مدى كبير من التوحيد ، فانها لا تكون الا جزئية ، والصراعات بين هذه الاجزاء غالبا ما تستدعي حلا عنيفا . وهكذا فان نتيجة هذه الجهود الحربية كلها لم تكن سوى ان الجنس البشري استبدل بالحروب العديدة الصغيرة ، التي لم تنته بالحقيقة ، حروبا ذات مقياس اكبر ، حروبا نادرة لكنها اكثر تدميرا بكثير .

واذا ما التفتنا الى عصرنا هذا ، فاننا نصل الى النتيجة نفسها التي توصلت اليها بسلوكك طريقا اقصر . اذ لن تتم الحيلولة دون الحروب بصورة قاطعة الا اذا اتخذ الجنس البشري موقفا موحدا يقضي باقامة سلطة مركزية تعطي الحق في الحكم على كل ما ينشب من نزاعات وصراعات مصلحية . هنا ، شرطان منفصلان تماما لا بد من توفرهما : ايجاد سلطة عليا ومنحها القوة اللازمة . واي شرط بغير الآخر لا يساوي شيئا . وعصبة الامم يخطط لها كسلطة من هذا النوع غير ان الشرط الثاني لم يتحقق : فعصبة الامم ليس لديها قوة بذاتها ولا يمكنها الحصول عليها الا اذا وافق اعضاء الاتحاد الجديد ، اي الدول التي تتشكل منها ،

على التنازل عنها . وفي الوقت الراهن لا يبدو ان هناك املا كبيرا في حدوث هذا الامر . غير ان اقامة عصبة الامم ستكون غامضة كلية ان تجاهل المرء حقيقة اكيدة هي انه لم تحدث محاولة جريئة كهذه من قبل (او ، بالحقيقة ، لم تحدث بمثل هذا المقياس) . انها محاولة تبتغي اللجوء الى مواقف مثالية معينة للعقل لتقيم السلطة (اي النفوذ القاسر) تلك السلطة التي تقوم في الحالات الاخرى على امتلاك القوة . اننا نعلم ان الجماعة البشرية يشدها بعضها الى بعض شيئان : القوة القاهرة التي يمثلها العنف والروابط العاطفية بين افرادها (واسمها التقني التطابق او الاندماج) . فأذا غاب احد العاملين يمكن للعامل الآخر ان يحافظ على وحدة الجماعة . وبالطبع ، لا يمكن للافكار التي يتم اللجوء اليها ان تكون ذات اهمية الا اذا كانت تعبر عن الهموم الاساسية المشتركة بين الاعضاء . والسؤال الذي يبرز هو كم يمكنها ان تمارس من قوة . ان التاريخ يعلمنا انها كانت فعالة الى حد ما . مثال على ذلك ، فكرة الهيلنية الشاملة ، اي الاحساس بتفوق الهيلينيين على من يحيط بهم من برابرة — وهي الفكرة التي تم التعبير عنها على نحو صارخ في Amphictyonies وسطاء الوحي في المعابد وفي الالعاب — وقد كانت فكرة قوية الى درجة كافية للقضاء على عادات الحرب بين الاغريق ، رغم انها لم تكن قوية الى حد يكفي لمنع النزاعات شبه الحربية بين اجزاء الامة الاغريقية المختلفة او منع مدينة او اتحاد مدن من التحالف مع العدو الفارسي بغية التفوق على الخصم المنافس. وبالطريقة ذاتها فان الشعور بالجماعة بين المسيحيين ، على الرغم من قوته ، لم يستطع في عصر النهضة ان يحول بين دول مسيحية ، سواء كانت كبيرة أم صغيرة، وبين التماس مساعدة السلطان التركي في حروبها بعضها مع البعض الآخر . كما لا توجد اية فكرة في الوقت الراهن يتوقع ان تمارس سلطة توحيدية من هذا النوع . والحقيقة ، من الواضح تماما ، ان المثل العليا القومية التي تسير بهديها الامم في الوقت الحاضر تعمل في الاتجاه المعاكس . بل ان بعض الناس يميلون للتكهن بانه من غير الممكن وضع حد للحرب الى ان تلقى الطرق الشيوعية في التفكير قبولا عالميا . لكن ذلك الهدف هو على

اي حال هدف بعيد جدا اليوم وربما لن يكون بالامكان التوصل اليه الا بعد حروب اهلية شديدة الهول . من هنا ، فان المحاولة، لابدال القوة العملية بقوة الافكار ، تبدو في الوقت الراهن وكانها محكومة بالفشل . ولسوف تكون حساباتنا خاطئة اذا ما اهملت الحقيقة القائلة بان القانون هو بالاصل عنف وحشي وانه حتى في عصرنا الحاضر لا يمكن تطبيقه بغير العنف .

الآن يمكنني ان أمضي قدما فاضيف تفسيرا لملاحظة من ملاحظاتك . انك تعرب عن الدهشة من الحقيقة القائلة انه لأمر يسير ان نجعل الرجال يتحمسون كثيرا لحرب من الحروب وتضيف الى ذلك شكلا بأن هناك شيئا ما يعمل في داخلهم ــ غريزة الكراهية والتدمير ــ ويمضي الى نصف الطريق تلبية لمحاولات صانعي الحروب . مرة ثانية ، لا يسعني الا ان اعرب عن موافقتي التامة . فنحن نؤمن بوجود غريزة من ذلك النوع ، وقد شغلنا ابان السنين القليلة الاخيرة بدراسة الاشكال التي تتجلى بها . فهل تسمح لي بانتهاز هذه الفرصة كي ابسط امامك جزءا من نظرية الغرائز التي تم التوصل اليها ، بعد الكثير من البحث والتجريب والتقلب في الراي ، من قبل العاملين في ميدان التحليل النفسي ؟

طبقا لفرضيتنا ، تتكون الغرائز البشرية من نوعين فقط : تلك التي تسعى للبقاء والاتحاد ــ والتي ندعوها الغرائز الجنسية ، تماما بالمعنى الذي استخدم افلاطون كلمة « جنس » في محاوراته او مع التوسع الشديد لمفهوم « الجنسية » المألوف ــ وتلك التي تسعى للتدمير والقتل والتي نصنفها معا تحت اسم غريزة التدمير او الغريزة العدوانية . وكما ترى ، فهذا بالحقيقة ليس اكثر من توضيح نظري للتضاد المعروف عموما بين الحب والكره والذي قد يكون له علاقة اساسية ما بمسألة الجذب والنبذ التي تلعب دورا في ميدان المعرفة الذي تخصصت به . لكن علينا الا نستعجل كثيرا في اصدار احكام اخلاقية عن أيهما الخير وأيهما الشر . اذ لا تقل اي من هاتين الغريزتين اهمية عن الاخرى ،

وظواهر الحياة انما تنشأ من عملهما كلتيهما معا ، سواء كانتا في حالة اتفاق ام حالة شقاق . بل يبدو وكأن من الصعب كثيرا ان تعمل احداهما على نحو منفصل . اذ يصاحبها دائما — او يمكننا القول ، يحالفها — عنصر من عناصر الغريزة الاخرى يعدل من هدفها ويشكل ، في بعض الحالات ، ما يتيح لها امكانية تحقيق ذلك الهدف . من هنا ، فان غريزة حفظ الذات ، مثلا ، هي بالتاكيد من النوع الجنسي لكن مع ذلك لا بد ان تتوفر لها نزعة عدوانية لتحقيق غايتها . وهكذا ، ايضا ، فان غريزة الحب ، حين توجه باتجاه هدف ما ، تكون بحاجة لمساهمة ما من غريزة السيطرة اذا كان عليها ان تمتلك موضوع حبها ذاك بأي حال من الاحوال ، على ان صعوبة الفصل بين نوعي الغريزتين في تجلياتهما العملية هي ، بالحقيقة ، ما حال بيننا وبين تمييزهما هذا الأمد الطويل .

ولسوف ترى ، اذا ما تابعتني الى مدى ابعد قليلا ، ان اعمال الانسان تخضع لتعقيد آخر ذي طبيعة مختلفة . فمن النادر جدا ان يكون العمل نتيجة دافع غريزي واحد (هو بحد ذاته مركب من النزعة الجنسية والنزعة التدميرية) . فلكي نجعل عملا من الاعمال ممكنا لا بد من ان يكون هناك ، كقاعدة ، جملة دوافع مركبة كهذه . وقد ادرك هذا منذ زمن طويل اخصائي في موضوعك هو البروفسور ج. ث ليختنبرغ الذي كان يدرس الفيزياء في غوتنجن خلال مرحلتنا الدراسية — رغم انه كان مشهورا كعالم نفساني اكثر مما هو فيزيائي . فقد ابتكر بوصلة دوافع اذ كتب « ان بالامكان تصنيف الدوافع التي تقودنا لفعل اي شيء على غرار الرياح الاثنتين والثلاثين كما يمكن اعطاؤها اسماء وفق النمط نفسه : مثال على ذلك (طعام — طعام — شهرة) او (شهرة — شهرة — طعام) . وهكذا حين تدفع الكائنات البشرية الى الحرب فقد يكون لديها العدد الكامل من الدوافع الخاصة بالموافقة — بعضها نبيل وبعضها وضيع . بعضها يعبر عن نفسه علنا ، والبعض الآخر سرا . وليس ثمة داع لتعدادها كلها . لكن من المؤكد ان من ضمنها شهوة العدوان والتدمير : والفظاعات التي لا عد لها في التاريخ وفي عصرنا الحاضر انما

انما تشهد على وجودها وقوتها. وبالطبع، فان ارضاء هذه الدوافع التدميرية يتيسر من خلال امتزاجها بالدوافع الاخرى ذات الطبيعة الجنسية والمثالية فحين نقرأ عن فظاعات الماضي ، يبدو احيانا وكأن الدوافع المثالية لم تكن الا حجة تسترت بها النزعة التدميرية ، كما يبدو احيانا ـ وخير مثال على ذلك هو الفظاعات التي ارتكبت ايام محاكم التفتيش في اوروبا (في القرنين ١٥ و ١٦) ـ وكأن الدوافع المثالية كانت تدفع نفسها الى ساحة الوعي في حين كانت الدوافع التدميرية تعززها وهي كامنة في ساحة اللاوعي ، وكلتا الحالتين قد تكون صحيحة .

لكنني اخشى ان اعمل بكلامي هذا على الحط من الموضوع الذي يشغل بالك الا وهو اهتمامك بمنع الحرب لا بنظرياتنا . مع ذلك ، بودي ان اتابع الكلام قليلا عن غريزتنا التدميرية التي تعد شعبيتها غير مساوية اطلاقا لاهميتها . لقد توصلنا ، نتيجة شيء من التخمين ، الى ان نفترض ان هذه الغريزة نشطة في كل كائن حي وانها تسعى لان تودي به الى الهلاك رادة الحياة بذلك الى حالتها الاصلية ، حالة المادة الجامدة. لهذا السبب فانها تستحق بصورة جدية تماما ان تدعى غريزة الموت ، في حين تمثل غرائز الجنس محاولة الكائن في البقاء حيا . تنقلب غريزة الموت الى غريزة تدميرية اذا ما وجهت ، بمساعدة اعضاء خاصة ، باتجاه الخارج ونحو اهداف محددة . فالكائن الحي يحافظ على حياته ، ان جاز لنا القول ، بتدمير حياة كائن خارجي . لكن جزءا من غريزة الموت يبقى رهن العمل ضمن الكائن الحي نفسه ، ولقد سعينا لتتبع عدد من الظواهر العادية والمرضية تماما الى نقطة التلويث (اضفاء الصفة الذاتية) هذه لغريزة التدمير . بل لقد ارتكبنا اثم الهرطقة حين عزونا اصل الوجدان الى هذا الانحراف داخل النزعة العدوانية . ولسوف تلاحظون انها لن تكون مسألة تافهة اطلاقا اذا ما مضينا بهذه العملية الى آخر الشوط : فهي وضعيا غير سليمة . من جهة اخرى اذا ما تحولت هذه القوى باتجاه التدمير في العالم الخارجي ، نجد ان الكائن الحي يرتاح ، وبالتالي لا بد من ان تكون النتيجة ملأى بالفائدة . اذ يقوم هذا العمل

بدور التبرير البيولوجي لجميع الدوافع البشعة والخطرة التي نكافح ضدها . لكن لا بد من الاعتراف بأنها اقرب الى فطرة الانسان من مقاومته لها ، وهو الامر الذي لابد أيضا من ايجاد تفسير له . ربمـا يخيل اليك ان نظرياتنا ضرب من ضروب الاساطير ، وبالنسبة الى الحالة الراهنة قد لا تبدو مقبولة قط . لكن الا ينتهي كل عالم الى ضرب من الاساطير مشابه لما انتهت اليه نظرياتنا ؟ أولا يمكن قول الشيء ذاته في الوقت الراهن عن علومك الفيزيائية ؟

اذن فيما يتعلق بغرضنا المباشر ينجم هذا الى حد كبير عما قيل : لا فائدة من محاولة التخلص من الميول العدوانية لدى الانسان . لقد سمعنا انه في بعض الاقاليم السعيدة من الارض ، حيث تقدم الطبيعة وعلى نحو وافر كل ما يحتاجه الانسـان ، ثمة شعوب تمضي حياتها بهدوء وطمأنينة ولا تعرف القسر ولا العدوان ، لكنني لا استطيع تصديق ذلك وان كان يسرني ان أسمع المزيد عن هذه الكائنات المحظوظة . الشيوعيون الروس يأملون ، ايضا ، ان يتمكنوا من دفع النزعة العدوانيـة الى الانقراض وذلك بأن يضمنوا تلبية كافة الحاجات المادية وباقامة المساواة في المجالات الاخرى بين افراد المجتمع كلهم ، لكن ، في رأيي ، هذا وهم ، فهم انفسهم مسلحون في الوقت الحاضر بأشد اشكال الحذر ريبة ولعل الطريقة التي لا تقل اهمية عن الطرق الاخرى التي يبقون بها انصارهم متلاحمين معا انما هي كراهية كل نظام خارج حدودهم . على اية حال ، وكما لاحظت بنفسك ، لا مجال البتة للتخلص تخلصا كاملا من الدوافع العدوانية لدى الانسـان ، بل يكفي ان نعمل على حرفها الى درجة لا تعود معها بحاجة لان تعبر عن نفسـها بالحرب .

ان نظريتنا الاسطورية عن الغرائز تجعل من اليسير علينا ان نجد صيغة خاصة بالطرائق غير المباشرة لمقاومة الحرب . فاذا كانت الرغبة في شن الحرب ناجمة عن غرائز التدمير فان ابسط خطة هي ان نجعـل الايروس ، عدوها الاكبر ، يعمل ضدها . اي ينبغي تشغيل اي شيء

يشجع نمو الروابط العاطفية بين الناس ضد الحرب . هذه الروابط العاطفية قد تكون من نوعين مختلفين . ففي المكان الاول قد تكون علاقات تماثل تلك الموجهة باتجاه شيء محبوب ، دون أن يكون له هدف جنسي . وليس هناك من داع لان يخجل اطباء التحليل النفسي من التحدث عن الحب بهذا المعنى فالدين نفسه يستخدم الكلمات نفسها « احب جارك كما تحب نفسك » . مع ذلك فان القول هنا اسهل من الفعل . النوع الثاني من الروابط العاطفية هو الاندماج . فاي شيء يؤدي بالانسان للمشاركة في المصالح والاهتمامات الهامة يحقق شعور الجماعة هذا يحقق الاندماج ، وبنية المجتمع البشري تعتمد الى حد كبير على هذا الشعور بالاندماج

أما الشكوى التي أبديتها حول الحط من قدر السلطة فانه يوصلني الى اقتراح آخر فيما يتعلق بالمحاربة غير المباشرة لنزعة الحرب . ذلك ان احد الامثلة على تفاوت الناس الفطري والذي لا يمكن التخلص منه انما هو ميلهم لان يصنفهم ضمن صنفين : قادة واتباع . الاخيرون يشكلون الاغلبية ويشعرون بالحاجة لسلطة تتخذ القرارات بدلا عنهم ويبدون لها في الغالب خضوعا غير محدود . نستدل من هذا على انه ينبغي الاهتمام اكثر مما فعلنا حتى اليوم بتربية طبقة عليا من الناس ذوي العقول المستقلة ، ممن لا يفت في عضدهم شيء سعيا وراء الحقيقة ، وممن ستكون مهمتهم اعطاء التوجيهات للجماهير التابعة. وغني عن القول ان الانتهاكات التي تقوم بها السلطة التنفيذيةللدولة والقيود التي تفرضها الكنيسة على حرية الفكر هي ابعد من ان تكون ملائمة لخلق طبقة من هذا النوع . ان الحالة المثالية للاشياء ، قد تكون ، بالطبع ، مجتمعا اخضع الناس فيه حياتهم الغريزية لسلطة العقل المطلقة . ولا شيء آخر يمكن ان يوحد الناس توحيدا تاما ومتينا كهذا ، حتى وان لم يكن هناك روابط عاطفية بينهم . لكن في كل الاحتمالات ليس ذلك الا املا طوباويا ولا ريب في ان الاساليب الاخرى غير المباشرة لمنع الحرب هي اكثر قابلية للتطبيق رغم انها لا تعد بنجاح سريع . هنا تخطر في ذهني صورة غير

سارة لطواحين تطحن ببطء الى درجة قد يقضي فيها الناس جوعا قبل ان يحصلوا على دقيقهم .

وكما ترى ، لا تكون النتيجة مجزية كثيرا حين يدعى لاهوتي لتقديم نصيحة حول مشكلة عملية ملحة . فالخطة الافضل هي ان يكرس المرء نفسه في كل حالة بعينها لمواجهة الخطر بالاسلحة المتاحة له ايا كانت . مع ذلك ، اود ان اناقش مسالة اخرى ، لم نتطرق لذكرها في رسالتك الا انها تعنيني بصورة خاصة لماذا ترانا انا وانت والكثير من الآخرين نرفض الحرب رفضا قاطعا ؟ لماذا لا نتقبلها كأية مصيبة اخرى من مصائب الحياة الكثيرة الايلام ؟ فهي ، بالنتيجة ، تبدو امرا طبيعيا تماما ، ومما لا شك فيه أن لها أساسا بيولوجيا اكيدا وعلى صعيد الممارسة قلما يمكن تجنبها . وليس ثمة داع لان يصدمك طرحي لهذا السؤال . فمن اجل التمحيص في مسالة كهذه ، ربما يسمح للمرء بان يلبس قناعا من التجرد المفترض فيكون الجواب على سؤالي هو اننا نقف من الحرب هذا الموقف لان كلا منا له الحق في ان يحيا ، ولان الحرب تقضي على الكثير من الارواح البشرية رغم ان حياتها ملأى بالامل ولانها تؤدي بالانسان الى مواقف الخضوع والمذلة وتفرض عليه رغم انفه ان يقتل اناسا آخرين ، كما انها تدمر أشياء مادية بالغة القيمة ، اشياء بذل الانسان الكثير من الجهد في صنعها . وثمة اسباب اخرى يمكن ذكرها ايضا ، فالحرب ، كما هي في شكلها الحالي . لم تعد فرصة يحقق فيها الانسان المثل العليا القديمة للبطولة ، كذلك وبسبب الكمال الذي بلغته وسائل التدمير ، فان الحرب في المستقبل قد تتضمن القضاء التام على احد طرفي النزاع او ربما على الطرفين كليهما . كل هذا صحيح ، وصحيح على نحو لا يقبل الجدال الى درجة لا يمكن معها للمرء الا ان يشعر بالدهشة لانه لم يتم حتى الان امتناع الدول جميعا عن التفكير بشن الحرب . لكن لا شك في ان النقاش ممكن فيما يتعلق بنقطة او اثنتين من هذه النقاط . ولربما يخطر للبعض ان يسال فيما اذا كان المجتمع لا يملك الحق في ان يتصرف بحياة الافراد وما اذا كانت كل حرب لا تخضع للادانة بالدرجة ذاتها وطالما ان هناك دولا وامما

مستعدة لان تدمر بغير رحمة او شفقة امماً ودولا اخرى ، فان على هذه الامم والدول الاخرى ان تستعد للحرب . لكنني لن اطيل البحث في أي من هـذه القضايا ، فهي ليست ما نود ان تناقشه معي ، كما ان ما يشغل ذهني امر مختلف تماماً . انني ارى ان السبب الرئيسي لرفضنا للحرب هو أنه لا يسعنا الا ان نفعل ذلك . فنحن مناصرون للسلام لاننا مضطرون لان نكون كذلك لاسباب عضوية . وبالتالي فاننا لا نجد صعوبة في خلق الحجج التي تبرر موقفنا .

هذا ، ولا شك ، يقتضي تفسيراً ما ، واعتقادي هو التالي : فخلال عصور زمنية لايمكن تقديرها ، مر الجنس البشري بعملية تطور ثقافي (وبعض الناس ، حسب علمي ، يفضلون ان يستخدموا كلمة « حضاري ») واننا لمدينون لتلك العملية بخير ما توصلنا اليه وكذلك بقسم كبير مما نعاني منه ، وعلى الرغم من ان الاسباب والبدايات غامضة كما ان النتيجة غير اكيدة ، الا ان من السهل ان نفهم بعض خصائصها . انها قد تؤدي الى انقراض الجنس البشري لانها ، وباكثر من طريقة ، تضعف الوظيفة الجنسية ، فالشعوب الاقل تحضراً او الشرائح المتاخرة من السكان تتكاثر بالحقيقة على نحو اسرع بكثير من الشعوب والشرائح الاجتماعية الارفع حضارة وثقافة ، هذه العملية يمكن مقارنتها بتدجين بعض انواع الحيوانات ، فهي ولا شك تترافق مع تغيرات جسدية ، لكننا لم نالف بعد الفكرة القائلة ان تطور الثقافة هي عملية عضوية من هذا النوع . فالتعديلات الجسدية التي تواكب العملية الثقافية مذهلة ولا لبس فيها . انها تتركز في التحويل المطرد للاهداف الغريزية والتقييد التدريجي للدوافع الغريزية فالاحاسيس التي كانت تحمل السرور لاجدادنا اصبحت جوفاء بالنسبة الينا او حتى غير محتملة وهناك اسس عضوية للتغيرات التي المت بمثلنا الاخلاقية والجمالية . لكن من الخصائص السيكولوجية للحضارة ثمة خاصتان هما ، على ما يبدو الاكثر أهمية : تقوية الفكر الذي بدا يحكم الغرائز نفسها وحيويتها وتلويث (اي اضفاء الصفة الذاتية على) الدوافع العدوانية بكل

ما في ذلك من حسنات وأخطار لاحقة . اذن ، الحرب الان هي في حالة تعارض تام مع الموقف النفساني الذي فرضته علينا العملية الثقافية ، ولهذا السبب ، نحن مضطرون لان نعترض عليها ، اذ لا يمكننا قط ان نتحملها. وهذا ليس رفضا فكريا وعاطفيا وحسب ، فنحن المناصرين للسلام - لدينا نفور بنيوي أساسي من الحرب ، او اذا جاز القول ، فرط حساسية متضخم الى اكبر درجة والحقيقة يبدو وكأن انخفاض المقاييس الجمالية في الحرب يلعب دورا في اعتراضنا عليها اصغر بكثير من الدور الذي تلعبه فظاعات الحرب وأهوالها .

لكن كم ينبغي علينا ان ننتظر الى ان تصبح بقية الجنس البشري محبة للسلام أيضا ؟ لا جواب على هذا السؤال ، بيد انها قد لا تكون طوباوية منا ان نأمل ان يؤدي هذان العاملان ، أي الموقف الثقافي والخوف المبرر من عواقب الحرب ، في المستقبل الى وضع نهاية لعمليات شن الحروب ضمن فترة زمنية قصيرة . واذا كنا عاجزين عن تخمين المسالك الرئيسية او الفرعية التي قد يتحقق بها هذا ، الا ان الامر الوحيد الذي نستطيع قوله هو التالي :

كل ما يعزز نمو الثقافة والحضارة يعمل في الوقت نفسه ضد الحرب .

هذا واني لعلى ثقة من انك ستغفر لي ان كان ما قلته قد خيب أملك . مع فائق الاحترام والتقدير .

المخلص لك

سيغموند فرويد

★ ★ ★

طبيعة الأحلام

اريك فروم
ترجمة: محمود منقذ الهاشمي

اختلفت الآراء التي اعتنقت حول طبيعة الاحلام طوال القرون وفي الثقافات المتنوعة اختلافا شاسعا . ولكن سواء آمن الفرد ان الاحلام تعبيرات حقيقية عن ارواحنا المنطلقة ، التي تغادر الجسد خلال النوم ، ام اعتقد ان الاحلام موحى بها من الله ، او من الارواح الشريرة ، وسواء اراى فيها تعبيرا عن العواطف اللامعقولة ، ام بالعكس ، عن ارفع قدراتنا الاخلاقية ، فان فكرة واحدة لم تكن خلافية : هي الراي القائل ان كل الاحلام ذات معنى وذات مغزى . ذات معنى ، لانها تشتمل على رسالة يمكن فهمها اذا امتلك المرء مفتاح ترجمتها . وذات مغزى ، لاننا لا نحلم باي شيء تافه ، ولو كان من الممكن ان يعبر عنه بلغة يختبىء فيها مغزى رسالة الحلم خلف واجهة تافهة .

ولم يحدث الافتراق الجذري عن هذا الراي الا في القرون الحديثة . اذ اقصي تفسير الحلم الى حقل الخرافات ، ولم يكن من شك لدى الشخص المثقف المستنير ، المختص وغير المختص ، أن الاحلام مظاهر من اذهاننا ليس لها معنى ولا مغزى ، وانها في خير الاحوال انعكاسات ذهنية للاحساسات الجسدية التي يختبرها المرء في أثناء النوم .

وكان فرويد ، في مطلع القرن العشرين ، هو الذي عاد فأثبت المفهوم القديم : اي ان الاحلام ذات معنى وذات مغزى ؛ واننا لا نحلم باي شيء ليس تعبيرا هاما عن حيواتنا الداخلية وان كل الاحلام يمكن ان تفهم شريطة ان نملك المفتاح ؛ وتفسير الاحلام هو السبيل الرئيسي المفضي الى فهم اللاشعور ومن ثم الى فهم أشد القوى الدافعة في السلوك المرضي والسوي . ووراء هذا الوصف العام لطبيعة الاحلام عاد فرويد فأثبت مؤكدا وبشيء من الصرامة نظرية من اقدم النظريات : هي ان الحلم تحقيق للعواطف اللامعقولة ، المكبوتة في حياتنا اليقظة .

وبدلا من تقديم نظريات فرويد والنظريات الاقدم منها حول الحلم في هذا المجال ، سوف أعود اليها في بحث لاحق وسأشرح الآن في دراسة طبيعة الحلم كما توصلت الى فهمها ، بعون من اعمال فرويد وبنتيجة خبرتي حالما ومفسرا للحلم .

وبالنظر الى انه ليس هناك تعبير عن النشاط الذهني لا يظهر في الحلم ، فانا اعتقد ان الوصف الوحيد لطبيعة الاحلام الذي لا يحرف الظاهرة او يضيقها هو الوصف الرحب بان الحلم تعبير له معناه ومغزاه عن اي نشاط ذهني في حالة النوم .

ومن الواضح ان هذا التعريف واسع لا يقدم عونا كبيرا على فهم طبيعة الاحلام الا اذا أضفنا اليه شيئا اكثر تحديدا حول « حالة النوم » والتأثير الخاص لهذه الحالة في نشاطنا الذهني . فاذا تمكنا أن نكتشف ماهو التأثير الخاص للنوم في نشاطنا الذهني ، اكتشفنا قدرا أكبر عن طبيعة الحلم .

ان النوم ، سيكولوجيا ، هو حالة التجدد الكيميائي للكائن الحي ؛ فالطاقة تتجدد حين لا يكون ثمة عمل ويكون الادراك الحسي متوقفا بكامله تقريبا . والنوم ، سيكولوجيا ، يرجىء الوظيفة الرئيسية المميزة لحياة اليقظة : استجابة الانسان للواقع بالادراك الحسي والعمل . وهذا الفارق بين الوظائف البيولوجية لليقظة والنوم هو في حقيقته الفارق بين حالتين من الوجود .

ولكي نقدر أثر النوم في العملية الذهنية ، علينا أولا ان نتفكر في مشكلة اعم ، هي مشكلة الاتكال المتبادل لكل نوع من النشاط اشركناه في عملية تفكيرنا . فالطريقة التي نفكر بها محددة الى درجة كبيرة بما نفعله وبما نحن مهتمون بتحقيقه . وهذا لا يعني ان تفكيرنا يشوهه اهتمامنا بل يعني ببساطة انه يختلف وفقا له .

ماهو ، مثلا ، موقف اناس مختلفين من الغابة ؟ الرسام الذي ذهب اليها ليرسم ، ومالك الغابة الذي يود تقدير امكانيات الربح في مشروعه ، والشرطي المهتم بالمسالة التكتيكية في حماية المنطقة ، والمتنزه الذي يطلب المتعة – ان لكل منهم مفهوما مختلفا كل الاختلاف عن الغابة بسبب الاهمية التي اولاها كل منهم لوجه مختلف منها . فتجربة الرسام ستكون تجربة الشكل واللون ؛ وتجربة رجل الاعمال تتناول الحجم ، والعدد ، وعمر الاشجار ؛ وتجربة الشرطي امكان الرؤية والحماية ؛ وتجربة المتنزه التجوال والحركة . وعلى حين انهم يستطيعون الاتفاق حول القول المجرد بانهم وقفوا عند حدود الغابة ، فان الانواع المختلفة من النشاط التي قاموا بها هي التي ستحدد تجربتهم في « رؤية الغابة » .

والفارق بين الوظائف السيكولوجية والبيولوجية في النوم واليقظة اشد جوهرية من اي فارق بين انواع النشاط المختلفة ، وعلى ذلك فان الفارق بين الانظمة المفهومية التي تصاحب الحالتين اكبر بما لا يقاس . ففي حالة اليقظة تستجيب الافكار والمشاعر اولا للتحدي – مهمة السيطرة على البيئة ، وتحويلها ، والدفاع عن انفسنا منها . والبقاء مهمة الانسان

اليقظ ؛ فهو خاضع للقوانين التي تسود الواقع . وهذا يعني أن يفكر بلغة الزمان والمكان وان افكاره خاضعة لقوانين منطق الزمان والمكان .

وحين ننام لا نهتم باخضاع العالم الخارجي لاغراضنا . نكون ضعفاء، وقد دعي النوم بحق « شقيق الموت » . ولكننا نكون احرارا ، واشدحرية منا حين نستيقظ . نتحرر من عبء العمل ، من مهمة الهجوم او الدفاع ، من مراقبة الواقع والسيطرة عليه . ولسنا بحاجة الى النظر الى العالم الخارجي ؛ بل ننظر الى عالمنا الداخلي ، المشغول حصرا بأنفسنا . حين نكون نياما قد نرتبط بجنين او جثة ؛ وقد نرتبط كذلك بالملائكة ، التي لا تخضع لقوانين « الواقع » . وفي النوم يخلي عالم الضرورة السبيل لعالم الحرية الذي فيه « انا الكائن الوحيد الذي ترتبط به الافكار والمشاعر . »

ان للنشاط الذهني في اثناء النوم منطقا مختلفا عنه في حال اليقظة . فلا تحتاج تجربة النوم الى الانتباه الى الخصائص التي لا تكون مهمة الا حين يكون المرء على مستوى الواقع . فاذا شعرت ، مثلا ، ان شخصا من الاشخاص جبان ، فقد احلم انه تحول من انسان الى دجاجة . وهذا التحول منطقي بلغة ما اشعر به نحو الشخص ، وغير منطقي بلغة التوجه الى العالم الخارجي فقط (بلغة ما بوسعي ان افعل ، واقعيا ، للشخص او معه) . وتجربة النوم لا تفتقر الى المنطق ولكنها خاضعة لقواعد منطقية مختلفة ، صحيحة كل الصحة في تلك الحالة الخاصة من الخبرة .

ان حياة النوم وحياة اليقظة هما عمودا الوجود الانساني . حياة اليقظة تتبنى وظيفة العمل ، والنوم متحرر منها . النوم يتبنى وظيفة الخبرة الذاتية . وحين نستيقظ من نومنا ، ننتقل الى مجال العمل . نتوجه حينذاك بلغة هذا النظام ، وذاكرتنا تعمل في نطاقه : فنتذكر ما يمكن ان يستدعى من المفهومات المكانية ـ الزمانية . ان عالم النوم قد اختفى . والتجارب التي كنا فيها ـ اي احلامنا ـ نتذكرها بأشد

الصعوبة[١] . وهذا الوضع كثيرا ما قدم رمزيا في الحكاية الشعبية : ففي الليل تحتل المشهد الاشباح والارواح ، والخير والشر ، حتى اذا ما انبلج الفجر تبددت ، ولا شيء يبقى من كل التجربة العنيفة .

من هذه الاعتبارات تصح بالضرورة بعض النتائج حول طبيعة اللاشعور :

انه ليس كما قال يونغ بانه المجال الاسطوري للتجربة الموروثة عرقيا ولا ما قاله فرويد من انه مركز القوى اللبيدية اللامعقولة . بل هو يجب أن يفهم بلغة هذا المبدأ : « ان ما نفكر فيه ونشعر به متأثر بما نفعله . »

ان الوعي هو النشاط الذهني في وجودنا المشغول بالواقع الخارجي — بالعمل . واللاشعور هو التجربة الذهنية في حالة الوجود التي تتوقف فيها صلاتنا بالعالم الخارجي ، فلا تعود مشغولة بالعمل بل بالخبرة الذاتية . ان اللاشعور تجربة متصلة بنمط معين من الحياة — نمط اللافعلية ؛ ومميزات اللاشعور تنشأ من طبيعة هذا النمط من الوجود . وخصائص الوعي ، من جانب آخر ، محددة بطبيعة العمل ووظيفة الابقاء على حالة اليقظة في الوجود .

ولا يكون « اللاشعور » لاشعورا الا فيما يتصل بالحالة « الطبيعية » للنشاط . فعندما نتحدث عن « اللاشعور » لا نقول بالفعل الا ان التجربة مغايرة لتلك الصورة للذهن التي توجد حين تعمل وعندما نحن نعمل ؛ فنشعر بازائها انها اشبه بالشبح ، وانها عنصر متطفل من العسير الامساك به ومن العسير تذكره . ولكن عالم النهار هو كاللاشعور في تجربة النوم وكعالم الليل في تجربة اليقظة . ومصطلح « اللاشعور » لا يستخدم عادة الا من وجهة نظر تجربة النهار ؛ وبذلك يخفق في الدلالة على ان الشعور

(١) حول مشكلة وظيفة الذاكرة في علاقتها بنشاط الحلم راجع المقالة المثيرة جدا ل :
Dr. Ernest G. Schnachtel, «On Memory and Childhood Amnesia,» Psychiatry, February, 1947.

واللاشعور كليهما مجرد حالتين مختلفتين للذهن تشيران الى حالتين مختلفتين من الوجود .

وسيكون مجالا للنقاش انه في حالة اليقظة من الوجود ، ايضا ، لا يكون التفكير والشعور خاضعين تماما لحدود الزمان والمكان ؛ وان خيالنا الابداعي يسمح لنا بالتفكير في امور الماضي والمستقبل وكانها حاضرة ؛ وفي الامورالبعيدة وكانها امام اعيننا ؛ وان الشعور المتيقظ لا يعتمد على الحضور المادي للشيء ولا على الوجود المشارك للزمان ؛ وان غياب النظام الزماني ــ المكاني ، بناء على ذلك ، ليس خصيصة وجود النوم في حالة من التضاد مع وجود اليقظة ، بل خصيصة التفكير والشعور في حالة من التضاد مع العمل . ان هذا الاعتراض المرحب به يتيح لي ا ن اوضح النقطة الجوهرية في محاجتي .

علينا ان نميز بين محتويات عمليات الفكر والمقولات المنطقية المستخدمة في التفكير . فعلى حين ان محتويات افكارنا اليقظة غير خاضعة لحدود المكان والزمان ، فان مقولات التفكير المنطقي هي مقولات ذات طبيعة مكانية ــ زمانية . ان في وسعي ، مثلا ، ان افكر في ابي وان اعلن ان موقفه في وضع ما مماثل لموقفي.. وهذا القول صحيح منطقيا . ومن ناحية اخرى، فانني اذا قلت : « أنا أبي » فالقول « غير منطقي » لانه ليس مفهوما بالرجوع الى العالم المادي . والجملة منطقية ، على اية حال ، في مجال الخبرة الخالصة : انها تعبر عن خبرة التماثل مع ابي . وعمليات الفكر المنطقي في حالة اليقظة خاضعة لمقولات لها جذورها في شكل خاص من الوجود ــ في الشكل الذي نربط فيه انفسنا بالواقع بلغة العمل . وفي وجود النوم ، الذي يتميز بافتقاره حتى الى العمل الاحتمالي ، تستخدم المقولات المنطقية التي لا ترتبط الا بالخبرة الذاتية . ويصح الامر نفسه على الشعور . فحين اشعر ، في حالة اليقظة ، بشخص لم اره عشرين سنة ، اظل مدركا ان الشخص ليس حاضرا . فاذا حلمت بالشخص ، فان شعوري يتعامل مع الشخص (ذكرا كان ام انثى) وكانه حاضر .

ولكن القول « وكانه حاضر » هو تعبير عن الشعور بمفهومات « كأن » ؛ فالشخص حاضر .

في الصفحات السابقة كانت المحاولة ترمي الى وصف حالات النوم وانتزاع بعض النتائج المتعلقة بخاصية نشاط الحلم .وعلينا الآن ان نشرع في دراسة عنصر خاص من حالة النوم سوف يتكشف لنا انه ذو اهمية كبيرة لفهم عمليات الحلم . قلنا اننا حين نكون نياما لا نهتم بأمور الواقع الخارجي . فنحن لا نراها ولا نؤثر فيها ، ولا نكون خاضعين لتأثيرات العالم الخارجي فينا . ويصح بالضرورة ان اثر هذا الانفصال عن الواقع يعتمد على خاصية الواقع نفسه . فاذا كان التأثر بالعالم الخارجي ذا نفع جوهري ، فان غياب هذا التأثير في اثناء النوم سوف يؤدي الى اضعاف قيمة نشاط الحلم ، فيصبح متدنيا في نشاطنا الذهني خلال النهار حين نكون عرضة للتأثير النافع من العالم الخارجي .

ولكن هل نحن على حق في افتراض ان تاثير الواقع هو حصرا تأثير النفع ؟ الا يمكن الا يكون كذلك وان يكون مؤذيا ايضا ، وان غياب تأثيره يتجه الى احداث خصائص اعلى من تلك الخصائص التي رأيناها حين كنا يقظين ؟

في الحديث حول الواقع خارج نفوسنا ، لا تكون الاشارة متجهة الى عالم الطبيعة في المقام الاول . فالطبيعة بحد ذاتها ليست خيرا ولا شرا . وهي قد تكون مفيدة لنا او خطرة علينا ، وغياب ادراكنا الحسي لها يحررنا حقا ، من مهمة محاولة السيطرة عليها او الدفاع عن انفسنا منها ؛ ولكنه لا يجعلنا اشد حماقة او اشد حكمة ، ولا افضل ولا أسوأ . انها مختلفة كل الاختلاف عن العالم الذي صنعه الانسان حولنا ، عن الحضارة التي نحيا فيها . ان تأثيرها فينا غامض كل الغموض ، رغم اننا ميالون الى الافتراض انها بكليتها لنفعنا .

والواقع ان الدليل على ان التاثيرات الحضارية ذات نفع لنا يبـدو ساحقا تقريبا . فما يميز المراحل العليا عن المراحل الدنيا في التطـور الانساني انما هو التنوع في المستوى الحضاري . واللغـة ، التي هـي العنصر الاساسي في الحضارة هي الشرط المسبق لكل مأثرة انسانية . والانسان قد سمي بحق حيوانا يصنع الرمز ، فلولا قدرتنا على التكلـم ، لكان من العسير ان نسمى بشرا . على ان كل وظيفة انسانية اخـرى تعتمد على احتكاكنا بالعالم الخارجي . ونحن نتعلم التفكير بملاحظة الآخرين وبالتعلم منهم . وننمي قدراتنا الانفعالية ، والفكرية ، والفنيـة بتاثير من اتصالنا بتراكم المعرفة والانجاز الفني الذي أبدعه المجتمع . ونتعلم حب الآخرين والاهتمام بهم من الاتصال بهم ، ونتعلم ان نكبح دوافع الخصومة والانانية من حبنا للآخرين ، او على الاقل من خوفنا منهم .

اليس الواقع الذي صنعه الانسان خارج نفوسنا اهم عامل ، اذن ، في تطوير افضل ما فينا ، والا يجب ان نتوقع ، اذ ما حرمنا من الاتصال بالعالم الخارجي ، ان نرتد مؤقتا الى حالة ذهنية غير عاقلة وشبه حيوانية؟ من الممكن ان يقال الكثير لصالح هذا الافتراض ، والراي القائل بانه مثل هذا الارتداد هو السمة الجوهرية لحالة النوم قد تبناه عدد من دارسي الحلم من افلاطون الى فرويد . ومن وجهة النظر هذه من المتوقع ان يكون تعبيرات عن الدوافع البدائية اللامعقولة فينا ، ونسياننا احلامنا بسهولة قد فسر باسهاب باننا نخجل من تلك الدوافع اللامعقولة والاجرامية التي نعبر عنها لا نكون تحت رقابة المجتمع . ولامراء ان هذا التفسير للاحلام صحيح ، وسوف نلتفت اليه بعد قليل ونقدم بعض الايضاحات . ولكن السؤال هو هل هو صحيح على وجه الحصر ام ان العناصر السلبية في تأثير المجتمع لا تتسبب في المفارقة وهي اننا لا نكون في احلامنا اقل تعقلا واحتشاما وحسب بل نكون كذلك اشد ذكاء ، وحكمة ، وقدرة على اتخاذ افضل القرارات حين نكون نياما منا حين نكون يقظين .

والواقع ان الحضارة لم تكن نافعة وحسب بل كانت كذلك ذات تأثير ضار في الوظائف الفكرية والاخلاقية . والبشر يعتمدون على بعضهم ،

ويحتاج بعضهم بعضا . على ان التاريخ البشري قد تأثر الى الآن بحقيقة هي ان الانتاج المادي لم يكن كافيا لاشباع الحاجات الاصلية لكل الناس . فالمائدة اعدت لعدد قليل فقط من العدد الكثير من الناس الذين يريدون ان يجلسوا اليها ويأكلون . وحاول الاقوياء ان يحصلوا على اماكن لهم ، وان يمنعوا الآخرين من الحصول على المقاعد . فاذا احبوا اخوتهم بقدر ما طالب بوذا والرسل ويسوع ، فان عليهم ان يقاسموهم خبزهم بدلا من ان يأكلوا اللحم ويشربوا الخمرة من دونهم . ولكن ، بما ان الحب ارفع واصعب انجاز للجنس البشري ، فانه لا يتغافل عن الانسان الذي لا يريد أولئك مجبرين ان يسعوا الى ان يفرضوا هيمنتهم على اولئك الذين يهددون امتيازاتهم . وهذه الهيمنة كانت في غلب الاحيان هيمنة المنتصر، الهيمنة المادية التي ترغم الاكثرية ان ترضى بنصيبها . الا ان الهيمنة المادية لم تكن على الدوام متاحة او كافية . فكان على المرء ان يسيطر على اذهان الناس ليجعلهم يحجمون عن استخدام قبضاتهم . وكانت السيطرة على الذهن والشعور عنصرا ضروريا للاحتفاظ بامتيازات الاقلية . وفي هذه العملية اصبحت اذهان الاقلية مشوهة كاذهان الاكثرية فالحارس الذي يراقب الاسير يصبح اسيرا كالاسير نفسه . و « النخبة » التي ستسيطر على اولئك الذين هم ليسوا من « الصفوة » يصبحون اسرى للحكام والمحكومين ، منحرفا عن هدفه الانساني الجوهري ، الذي هو الشعور والتفكير انسانيا ، واستخدام قوى العقل والحب المتأصلة في الانسان وتطويرها ، فهو من دون التطور الكامل لها يغدو مشلولا .

وفي عملية الانحراف والتحريف هذه تصبح شخصية الانسان مشوهة وتصبح السلطة العليا في يد الاغراض المغايرة لمصالح الذات الانسانية الحقيقية . ويكون الانسان مسلوب القدرات على الحب ، ومدفوعا الى طلب التحكم بالاخرين . وتتضاءل طمأنينته الداخلية ، ويندفع الى التعويض عنها بالتوق الانفعالي الملح الى الشهرة والنفوذ . ويفقد الاحساس بالوقار والسلامة ويكون مرغما على ان يتحول سلعة ، وان ينتزع احترامه لذاته من رواجه ، من نجاحه . وكل هذا يحدث لاننا

لا نتعلم ما هو صحيح وحسب ، بل ما هو خطأ ايضا . واننا لا نسمع ما هو خير فقط ، ولكننا دائما تحت تأثير الافكار الضارة بالحياة .

وهذا يصح على القبيلة البدائية التي تؤثر فيها القوانين والعادات الصارمة في الذهن ، ولكنه صحيح ايضا بالنسبة الى المجتمع الحديث الذي يزعم التحرر من الطقسية الصارمة . ففي الكثير من الاحوال ادى انتشار المعرفة ووسائل الاتصال الجماهيرية الى جعل تأثير الرواسم الثقافية لها من الفعالية ما للثقافة القبلية الصغيرة المقيدة بشدة . والانسان الحديث معرّض لـ « الضجة » التي تكاد لا تتوقف ، ضجة المذياع ، والتلفزيون ، والعنوانات البارزة ، والاعلانات ، والافلام ، ومعظمها لا ينور اذهاننا بل يفسدها . ونحن معرّضون للاكاذيب المسوغة التي تتنكر بالحقائق ، وللهراء الخالص الذي يتنكر بالحس المشترك وبالحكمة الرفيعة التي يقولها المختص ، وللكلام المزدوج ، والكسل الفكري ، او التضليل الذي يتحدث باسم « الشرف » او « الواقعية » حسب ما تكون الحال . ونحن نشعر بالتفوق على خرافات الاجيال السابقة والثقافات التي تدعى بدائية ، ويطرق رؤوسنا على الدوام النوع نفسه من الاعتقادات الخرافية التي تقدم نفسها على انها آخر مكتشفات العلم . أيدهشنا ، اذن ، أن اليقظة لا تمنى حصرا انها نعمة بل هي لعنة أيضا ؟ أيدهشنا اننا في حالة النوم ، حين ننفرد بانفسنا حين يمكننا النظر الى داخل نفوسنا دون ان يزعجنا الصخب والهراء اللذان يحيطان بنا في النهار ، نكون اقدر على الشعور والتفكير باصدق المشاعر والافكار واكثرها قيمة ؟

هذه هي ، اذن ، النتيجة التي توصلنا اليها : ان لحالة النوم وظيفة غامضة . وفيها بسبب عدم الاتصال بالحضارة ظهور افضل واسوا ما فينا ، وعلى ذلك ، فاننا حين نحلم ، قد نكون اقل ذكاء وحكمة واحتشاما ، ولكننا قد نكون كذلك افضل منا في حياة اليقظة .

وبوصولنا الى هذه النقطة تنهض مشكلة صعبة : كيف نعلم ان الحلم يفهم منه انه تعبير عن افضل او اسوا ما فينا ؟ هل هناك مبدأ يهدينا في هذه المحاولة ؟

للاجابة عن هذا السؤال علينا ان نتخلى عن المستوى العام الى حد ما في بحثنا وان نكتسب مزيدا من التبصر بدراسة عدد من امثلة الحلم الملموسة .

ان الحلم التالي رواه رجل قابل « شخصا بالغ الاهمية » قبل يوم من رؤيته لهذا الحلم . وكانت سمعة هذا الرجل هي انه حكيم ولطيف ، وجاء الحالم ليراه ، فانطبع بما قاله كل امرىء حول العجوز . وغادره بعد ساعة أو نحوها بشعور انه قابل رجلا عظيما ولطيفا .

(ارى السيد س [الشخص بالغ الاهمية] ، وجهه يبدو مختلفا كل الاختلاف عما كان يبدو بالامس . ارى فما وحشيا ووجها قاسيا . انه يخبر شخصا ما وهو يضحك انه افلح في ان يحتال على ارملة فقيرة ويجردها من آخر سنتاتها القليلة . اشعر بالاشمئزاز) .

وحين طلب الى الحالم ان يتحدث عما حدث له بعد هذا الحلم ، قال انه يستطيع ان يتذكر شعورا عابرا بخيبة الامل عندما دخل حجرة السيد س والقى اول نظرة خاطفة الى وجهه ، ولكن سرعان ما اختفى هذا الشعور حين بدأت المحادثة الودية الجذابة .

كيف علينا ان نفهم هذا الحلم ؟ العل الحالم حاسد للسيد س على سمعته ولهذا السبب يكرهه ؟ ان الحلم في هذه الحالة سيكون تعبيرا عن البغض اللامعقول الذي يضمره الحالم دون ان يكون مدركا له . ولكن الامر مختلف في الحالة التي رويتها هنا . ففي المقابلات التالية ، بعد ان اصبح الحالم مدركا لشكه في احلامه ، اخذ يلاحظ بعناية فاكتشف ان في الرجل شيئا من القسوة التي رآها اول مرة في حلمه . وأيدت انطباعه قلة كانت لديها الجرأة على ان تشك في رأي الاكثرية بأن س كان ذلك الانسان اللطيف . تأيد الانطباع ببعض الوقائع من حياة س لم تكن صريحة كالحلم ابدا ، ولكنها بالرغم من ذلك كانت معبرة عن روح مشابهة .

مانراه ، اذن ، هو ان تبصر الحالم في شخصية س كان أذكى في نومه منه في يقظته . تكانت « ضجة » الراي العام ، التي تلح ان س انسان مدهش ، تحول دون ادراكه لشعوره النقدي نحو س حين رآه . ولم يستطع الا بعد ذلك ، حين راى حلمه هذا ان يتذكر لحظة عدم الثقة وان يشك فيما شعر به . وفي حلمه ، حين كان محميا من هذه الضجة ومنفردا مع نفسه وانطباعاته ومشاعره ، تمكن ان يصدر حكما أدق واصوب من حكمه في حالة اليقظة .

وفي هذا الحلم ، كما في اي حلم آخر ، لا نستطيع ان نقرر هل الحلم معبر عن عاطفة لا معقولة ام عن العقل الا اذا تأملنا شخص الحالم ، مزاجه حين استسلم للنوم ، وكل ما لدينا معلومات عن وجه الحقيقة حول الوضع الذي حلم به . وفي هذه الحال يتأيد تفسيرنا بعدد من العوامل . فقد استطاع الحالم ان يتذكر انطباع الكره الاولي العابر . ولم يكن لديه اي سبب لكي يضمر اية مشاعر عدائية نحو س ولم يضمرها . والمعلومات عن حياة س والملاحظات اللاحقة اكدت انطباع الحالم الذي رآه في النوم . فلو لم تكن كل هذه العوامل موجودة لاختلف تفسيرنا . فاذا كان ، مثلا ، ميالا الى ان يكون حسودا للناس المشهورين ، وما استطاع ان يجد اي دليل على حكم الحلم على س ، وما كان في وسعه ان يتذكر شعور عدم الثقة حينما رآه أول مرة ، فسوف نميل الى الافتراض بأن هذا الحلم لم يكن تعبيرا عن التبصر بل تعبيرا عن البغض اللامعقول .

والتبصر وثيق الصلة بالنبوءة . والنبوءة تعني سير الحوادث المستقبلية من اتجاه القوى التي نستطيع ان نراها فعالة في الحاضر ومن شدتها . واية معرفة شاملة ، لا للسطح بل للقوى التي تعمل تحته ، سوف تؤدي الى خلق التنبؤات ، واية نبوءة قيمة يجب ان تقوم على مثل هذه المعرفة . فلا عجب اننا كثيرا ما نتنبأ بالتطورات والاحداث فتؤيدها الوقائع فيما بعد . وبصرف النظر عن مسالة التخاطر ، فان الكثير من الاحلام التي يتكهن فيها الحالم بالحوادث المستقبلية تقع في فئة النبوءات العقلية التي عرّفناها لتونا . ومن أقدم احلام النبوءة حلم يوسف :

(ورأى يوسف حلماً ، وقصه على اخوته ، فازدادوا له بغضا . قال لهم ، أتوسل اليكم ، اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت به : انظروا ، كنا نربط حزما في الحقل ، فاذا حزمتي ارتفعت ، وانتصبت ، وانظروا ، لقد تحلقت حزمكم حولها ، وانحنت لحزمتي . فقال اخوته له ، هل سوف تتولى الملك علينا ؟ أم سوف يكون لك سلطان علينا ؟ واشتد بغضهم له بسبب احلامه ، وبسبب كلماته .

وحلم حلماً آخر ، وقصه على اخوته ، وقال ، انظروا ، لقد رأيت حلماً آخر ، انظروا ، ان الشمس والقمر واحد عشر كوكبا قد سجدت لي . وقصه على ابيه ، وعلى اخوته : فوبخه ابوه ، وقال له ، ما هذا الحلم الذي رأيته ؟ هل سوف نأتي حقا انا وامك واخوتك وننحني لك حتى الارض ؟ وحسده اخوته ، اما ابوه فقد ادرك القول .)

تظهر لنا هذه القصة في الكتاب المقدس حالة كان الحلم فيها مايزال مفهوما بشكل مباشر من الانسان غير المختص ، ولا يتطلب العون من خبير في تفسير الحلم لفهم حلم بسيط نسبيا . (اما تفسير الحلم الاشد تعقيدا والذي يحتاج الى خبير فتظهره قصة أحلام فرعون ، حيث عجز مفسرو الاحلام في القصر عن فهم احلامه فاستدعى يوسف .) والاخوة يفهمون فورا ان الحلم تعبير عن الخيولة يوسف انه سيصبح ذات يوم ارفع مقاما من ابيه ومن اخوته وانهم سيشعرون نحوه بالرهبة . وما من ريب ان هذا الحلم تعبير عن طموح يوسف ، ولعله لولاه لما توصل الى المكانة الرفيعة التي احرزها . ولكن ما حدث هو ان الحلم قد تحقق وذلك انه لم يكن مجرد تعبير عن طموح لامعقول بل كذلك نبوءة في الحوادث التي حدثت بالفعل . كيف امكن ليوسف ان يتنبأ مثل هذه النبوءة ؟ ان تاريخ حياته في الرواية التوراتية تظهر انه لم يكن مجرد انسان طموح ، بل كان انسانا ذا مواهب فذة . وفي حلمه كان أشد ادراكا لملكاته النادرة منه في حياة اليقظة ، حيث كان مطبوعا بانه اصغر اخوته واضعفهم . فحلمه مزيج من طموحه العاطفي وتبصره في ملكاته التي لولاها لما امكن لحلمه ان يتحقق .

ان نبوءة من نوع مختلف تحدث في الحلم التالي : كان « ا » الذي قابل « ب » ليتباحث معه في اتحاد عمل مستقبلي ، لديه انطباع ايجابي بانه سوف يدخل « ب » شريكا في مشروعه . وفي الليلة التي تلت اللقاء راى هذا الحلم :

(ارى « ب » في مكتبنا المشترك . انه يراجع الدفاتر ويبدل ارقامها ليخفي انه اختلس مبالغ كبيرة من المال .)

يستيقظ « ا » ، واذ هو متعود أن يولي بعض الانتباه لاحلامه ، يتحير . وبما انه مقتنع ان الاحلام هي دائما تعبير عن رغباتنا اللامعقولة ، يقول في نفسه ان هذا الحلم تعبير عن خصومته ومنافسته لغيره من الرجال ، وان خصومته وشكه قاداه الى ان « ب » لص . وبتفسيره للحلم على هذا النحو ، اخذ يرجع الى الماضي ليتخلص من شكوكه اللامعقولة . وبعد ان باشر اتحاد المشروع مع « ب » حدثت عدة احداث ايقظت شك « ا » . ولكنه يتذكر للحلم وبتفسيره له كان مقتنعا من جديد انه تحت تأثير الشكوك والمشاعر اللامعقولة في الخصومة وقرر ان ينتبه الى تلك الظروف التي جعلته شكوكا . واكتشف بعد سنة ان « ب » كان يختلس مبالغ طائلة من المال ويخفي ذلك بقيود زائفة في الدفاتر . لقد تحقق حلمه بشكل شبه حرفي .

ان تحليل شركة « ا » يكشف ان حلمه قد عبر عن تبصر في « ب » توصل اليه في اللقاء الاول ، ولكنه لم يكن مدركا له في فكره المتيقظ . فالملاحظات الكثيرة المعقدة التي نلمحها في لحظة من دون أن ندرك عمليات فكرنا جعلت « ا » يميز أن « ب » غير امين . ولكن مادام ليس هناك « دليل » على هذا الراي ومادام اسلوب « ب » يجعل من الصعب على فكر « ا » الشعوري ان يؤمن بعدم امانة « ب » ، فقد كبت الفكرة بشكل كامل ، او بالاحرى لم تكن الفكرة مدونة في راسه حين كان مستيقظا وفي حلمه ، على اية حال ، كان لديه الادراك الواضح لشكه ولو اصغى الى هذا الهاتف الذاتي لتجنب قدرا كبيرا من المتاعب . فاقتناعه ان

الاحلام هي على الدوام تعبير عن اخايلنا ورغائبنا اللامعقولة جملـه لا يحسن قراءة الحلم ولا حتى بعض الملاحظات الواقعية بعده .

ومن الاحلام التي تعبر عن الحكم الاخلاقي حلم كاتب عرض عليه عمل يدر عليه من المال اكثر بكثير مما يكسب في وظيفته الحالية ، ولكنه سيكون مرغما كذلك أن يكتب اشياء لا يؤمن بها وان ينتهك حرمة استقامتـه الشخصية . وبالرغم من ذلك ، فقد كان العرض مغريا بقدر ما كـان المال والمقام كبيرين فلم يكن متأكدا انه سيستطيع أن يرفضه . وعـاش كل التسويفات النموذجية التي يعيشها معظم الناس في مثل هذا الوضع واقتنع ، بعد كل حساب ، انه قد يرى الوظيفة شديدة السواد كمـا ان التنازلات التي سيقوم بها واهية جدا . يضاف الى ذلك انه حتى اذا لم يستطع ان يكتب كما يشاء ، فان هذا الوضع لن يدوم الا بضع سنوات ثم يتخلى عن العمل ، وبامتلاكه الكثير من المال سيكون مستقلا وحـرا في ان يؤدي العمل الـذي لـه معناه عنده . وفكر في اصدقائه واسرتـه واقربائه وما بوسعه ان يفعله لهم . والواقع ان المشكلة كانت تتمثل لـه احيانا على هذا النحو : فقبوله العمل يبدو له التزاما اخلاقيا ، على حين ان رفضه له سيكون تعبيرا عن موقف أناني منغمس في الاهواء الذاتية . ورغم ذلك ، لم يرضه في الواقع اي تبرير من هذه التبريرات ، واستمر في شكوكه دون أن يتمكن من أن يعزم على قرار حتى راى في ليلة مـن الليالي الحلم التالي !

(كنت جالسا في السيارة على سفح جبل مرتفع حيث بداية طريـق ضيق وشاهق للغاية يؤدي الى قمة الجبل . وكنت مترددا في أن أقود السيارة ، مادام الطريق يبدو شديد الخطورة . الا ان رجلا كان يقـف بالقرب من السيارة اخبرني ان اقودها الى الاعلى والا اخاف . واستمعت اليه وقررت ان اتبع نصيحته . فقدت السيارة ، واخذت خطورة الطريق تشتد شيئا فشيئا . ومع ذلك لم استطع أن أتوقف ، لانه لم تكن هنـاك امكانية للانعطاف . وحين صرت قرب القمة توقف المحرك ، وتعطلـت الفرامل ، واخذت السيارة تتقهقر ثم سقطت الى الهاوية ! فاستيقظت مذعـورا .)

من اجل الفهم الكامل للحلم ينبغي ذكر جانب من الجوانب المرتبطة به . لقد قال الحالم ان الرجل الذي شجعه على قيادة السيارة في الطريق الجبلي كان صديقاً سابقاً ، رساماً ، باع كل ما لديه ليصبح رسام وجوه على النمط الحديث وجنى بعض المال ، الا انه في الوقت نفسه لم يعد مبدعاً . وكان يعلم أن هذا الصديق بالرغم من نجاحه ليس سعيداً ويعاني من انه يخدع نفسه . وفهم الحلم بكامله ليس صعباً ان الجبل الشاهق الذي كان هذا الرجل يود صعوده انما هو تعبير رمزي عن المهنة الناجحة التي كان سيقع عليها اختياره . وهو يدرك انه لو قبل العرض فسيفعل بالضبط ما فعله صديقه ، الشيء الذي كان يحتقره عليه ومن اجله توقف فجاة عن صداقته . وهو في حلمه يدرك ان هذا القرار لن يؤدي الا الى الخراب . وصورة الخراب في الحلم هي خراب ذاته الجسدية ، ترمز الى ان ذاته الفكرية والروحية هي التي يتهددها خطر الخراب .

رأى الحالم المشكلة الاخلاقية في نومه بوضوح وتبين انه عليه ان يختار بين « النجاح » من جانب ، والسلامة والسعادة من جانب آخر . وادرك ما سيكون عليه مصيره اذا ما اتخذ قراراً خاطئاً وفي حالة اليقظة لم يكن يستطيع أن يرى الخيار بوضوح . كان مطبوعاً ب « الضجة » التي تقول ان الابله لا يقبل فرصة الحصول على المزيد من المال والسلطان ، والهيبة . وكان شديد التأثر بالاصوات القائلة انه من الطفولية واللاعملية ان يكون « مثالياً » ، فتعلق بالتبريرات الكثيرة التي يستخدمها المرء ليقضي على نداء ضميره . وهذا الحالم ، بادراكه اننا كثيراً ما نعلم في احلامنا أكثر مما نعلم في حالة اليقظة ، روعه هذا الحلم بشدة فانزاح الضباب عن ذهنه ، واستطاع ان يرى الخيار بوضوح وحكم لسلامته ضد الاغراء المدمر للذات .

ولا يقتصر التبصر في احلامنا على علاقتنا بالآخرين او علاقتهم بنا ، وعلى ما ينجم عنه من احكام قيمة وتنبؤات ، بل يرتبط كذلك بالعمليات

الفكرية التي تتفوق على مثيلاتها في حالة اليقظة . وليس هذا بمدهش ما دام التفكير النفاذ يتطلب قدرا من التركيز كثيراً ما نحرم منه في حالة اليقظة بينما تكون حالة النوم مفضية اليه . واشهر مثال على هذا النوع من الحلم حلم مكتشف خاصية البنزين . كان قد بحث فترة طويلة من الوقت عن الصيغة الكيميائية للبنزين ، وذات ليلة مثلت الصيغة الصحيحة أمام عينيه في الحلم . وكان من حسن حظه انه تذكرها عندما استيقظ . وهناك امثلة كثيرة على اناس يبحثون عن حلول لمشكلة في الرياضيات ، او الهندسة ، او الفلسفة ، او المشكلات العلمية ، وذات ليلة يحلمون بالحل بوضوح كامل .

وفي بعض الاحيان يجد المرء في الاحلام الآراء الفكرية المعقدة جدا والمثال التالي هو مثل هذا الحلم ، رغم انه يشتمل في الوقت نفسه على عنصر شخصي جدا . والحالة امرأة ذكية وهذا هو حلمها :

(رأيت هرة وكثيرا من الفئران . وفكرت ، ساسأل زوجي صباح الغد لمَ لا تقوى مائة فارة على هرة واحدة ؟ ولماذا لا تستطيع ان تتغلب عليها . واعلم انه سيجيبني ان هذا لا يختلف عن المشكلة التاريخية وهي ان المستبدين يستطيعون ان يحكموا ملايين الناس دون ان ينهزموا منهم وعلى اية حال ، كنت اعلم ان هذا السؤال خادع وان جوابه غلط .)

وفي الصباح الذي اعقب هذا الحلم قصت على زوجها الجزء الاول من الحلم وسألته : « ماذا يعني أنني حلمت ان مائة فارة لم تستطع ان تهزم هرة واحدة ؟ » فاعطاها فورا الجواب الذي استبقته في حلمها . وبعد يومين القت على زوجها قصيدة صغيرة من تاليفها . كانت القصيدة تتناول هرة سوداء في حقول مغطاة بالثلج تحيط بها مئات من الفئران . وكانت الفئران كلها تضحك على الهرة لانها بسبب سوادها تبين بوضوح في الثلج ، وكانت الهرة تتمنى ان تكون بيضاء لكي لا تكون مرئية . واحد ابيات القصيدة يقول : « والآن افهم ما حيرني في الليلة الماضية . »

وفي ترديدها هذه القصيدةعلى زوجها ، لم تكن تدرك أية صلة بين القصيدة والحلم ورأى زوجها الصلة فقال : « حسناً ، وهكذا فقصيدتك تقدم الاجابة عن حلمك . لقد ماثلتِ نفسك ، لا مع الفئران كما ظننت ، بل مع الهرة ؛ وفي حلمك كنت مفتخرة ان مائة فارة لم تستطع ان تتغلب عليك ولكنك في الوقت نفسه عبرت عن شعور بالخزي ان الفئران الضعيفة التي تشعرين نحوها بالتفوق قد ضحكت عليك لانها كانت تستطيع رؤيتك بكل وضوح . » (ان الحالة تحب الهرر وتشعر بالتعاطف معها وبالقربى منها) .

* * *

دروس علم النفس التحليلي

ك . غ . يونغ
ترجمة : نهاد خياطة

يعتبر البحث في المشاكل المتعلقة بالمراحل التي يمر بها الانسان في نموه من أصعب المهام واعقدها ؛ لانها تعني لا اقل من نشر ما انطوت عليه صورة الحياة النفسية في كليتها من المهد الى اللحد . وفي هذا النطاق الضيق من هذا المقال ، لا يمكننا القيام بهذه المهمة الا بالخطوط العريضة ، وينبغي ان يكون مفهوما تماما اننا لن نحاول وصف الحوادث النفسية في مختلف المراحل ؛ بل سنقتصر على معالجة « مشاكل » بعينها ؛ اي على الاشياء الصعبة التي تبعث على الشك وتتسم بالغموض ؛ باختصار ، على المسائل التي تسمح لنا باكثر من جواب ؛ بل تسمح لنا بأجوبة هي عرضة للشك على الدوام . ولهذا ، سوف يكون لدينا الكثير مما يجب ان نضيف اليه علامة استفهام في اذهاننا . ولعل الادهى من ذلك ان يكون لدينا اشياء ينبغي لنا التسليم بها عن ايمان ، بينما ينبغي لنا ان نطلق لافكارنا العنان حينا بعد آخر .

لو كانت الحياة النفسية مؤلفة من حوادث ظاهرة للعيان فقط ــ وهو الذي لم يزل عليه الحال في المستوى الابتدائي ــ اذن لاكتفينا باعتماد المنهج التجريبي اعتمادا لا هوادة فيه . لكن الحياة النفسية عند الانسان المتمدن باتت حافلة بالمشاكل الى حد أننا لم نعد نستطيع التفكير فيها الا من صيغة المشاكل ، ثم ان سياقاتنا النفسية باتت مكونة من افكار وشكوك وتجارب تكاد ان تكون جميعها غريبة تماما عن الانسان البدائي وعقله الفطري الخافي (= اللاشعوري) . ان نشوء الواعية هو ما ينبغي ان نرد اليه وجود المشاكل ؛ فالواعية هبة مريبة وهبتنا اياها المدنية . وما خلق الواعية في الانسان سوى ابتعاده عن الفطرة ، ومعارضته فطرته بنفسه . فالفطرة هي الطبيعة ، وهي تسعى الى تأييدها واستدامتها . اما الواعية فلا تنشد الا الثقافة او التنكر للطبيعة . وحتى حين نرجع الى الطبيعة ، بتأثير من حنين جان جاك روسو ، فاننا « نثقف » الطبيعة . وما دمنا غارقين في الطبيعة فنحن غير واعين ونعيش في امان الفطرة التي لا تعرف المشاكل . كل شيء فينا ، مما لم يزل من الطبيعة ، ينفر من المشاكل ؛ لانها تثير فينا من الشكوك ما لو استحكم لانعدم بازائه اليقين ونهض احتمال لتفرق السبل . وحيثما تفرقت بنا السبل أو تعددت ، ابتعدنا عن هدي الفطرة ويقينها ، واسلمنا انفسنا الى الخوف . وعندئذ تصبح الواعية مدعوة الى القيام بما كانت تقوم به الطبيعة دائما حيال ابنائها ــ اي لتعطينا القرار اليقين الذي لا يتطرق اليه شك او التباس ــ وهو الفزع البروميثي ــ وتحل محل الطبيعة في القيام بخدمتنا في نهاية الأمر .

وهكذا تجلبنا المشاكل الى حالة من اليتم والعزلة حيث تتخلى عنا الطبيعة وتقودنا الى الوعي . ليس أمامنا باب مفتوح آخر ؛ وعندئذ نجدنا مضطرين الى اتخاذ القرارات واعتماد الحلول على حين كنا من قبل نكل انفسنا الى الحوادث الطبيعية . ولذلك كانت كل مشكلة تعترضنا تتيح لنا امكانية اتساع الواعية ، لكنها تضطرنا ايضا الى وداع خافية الطفولة وما كان يترتب عليها من اعتماد على الطبيعة . هذا الاضطرار حقيقة

نفسية لها من الاهمية ما جعل منها احد التعاليم الاساسية الرمزية في الديانة المسيحية ؛ وهي التضحية بالانسان الطبيعي الصرف ، اي بالكائن الساذج غير الواعي الذي بدا حياته المأساوية باكل التفاحة من الفردوس . ان سقوط الانسان الذي ترويه التوراة يظهر انبثاق فجر الوعي على انه لعنة . والحق اننا في هذا الضوء ننظر لاول مرة الى كل مشكلة تجبرنا على مزيد من الوعي وتبعدنا عن فردوس الطفولة غير الواعية . ما منا من لا يحلو له التهرب من مشاكله ؛ ولو امكنه الامتناع عن ذكرها لامتنع ؛ بل لأنكر حتى وجودها . بودنا لو نجعل حياتنا بسيطة ، اكيدة ؛ ناعمة ـ ولهذا السبب عدّت المشاكل من المحرمات (= تابو) . واننا نتخير اليقين على الشك ؛ والنتائج على التجارب ، حتى بدون ان نرى ان اليقين لا ينشأ الا من الشك ، والنتائج الا من التجارب . والحق ان التنكر للمشكلة لا يورثنا القناعة ؛ وانما تتطلب منا وعيا أكبر واعلى يمنحنا اليقين والوضوح اللذين نحتاج اليهما .

هذه المقدمة ، على طولها ، ضرورية لكي نبين طبيعة الموضوع الذي نتناوله . وعندما يتعين علينا ان نعالج المشاكل ، نجدنا مضطرين بالغريزة الى رفض تجربة الطريق الذي يفضي بنا الى الظلام او الغموض . لا نريد ان نسمع الا النتائج التي لا يشوبها التباس ، ونريد ان ننسى تماما ان هذه النتائج لا يمكن حصولها الا اذا ادلجنا في الظلام ثم خرجنا منه . ولكي ندلج في الظلام لا بد لنا من ان نستجمع جميع قوى النور التي تتيحها لنا الواعية ، اي ان نطلق العنان لتاملاتنا ، كما سبق ان قلت . ذلك اننا في معالجتنا لمشاكل الحياة النفسية نقع دائما على (مسائل مبدا) تعود الى الميادين الخاصة باكثر فروع المعرفة اختلافا ، فنزعج رجل اللاهوت ونغضبه بما لا يقل عن ازعاجنا للفيلسوف واغضابه ، والطبيب بما لا يقل عن المعلم ، بل اننا نتلمس لنا طريقا في ميدان العالم البيولوجي والمؤرخ . هذا المسلك المسرف لا ينبغي لنا ان نرده الى غطرستنا ، بل الى كون النفس البشرية مركبا فريدا من عوامل تشكل بدورها موضوعات خاصة ذات خطوط من البحث بعيدة المدى . ذلك ان الانسان ينتج علومه من نفسه ومن تكوينه المميز . فهي اعراض من نفسه .

ولذلك لو سألنا انفسنا السؤال الذي لا مفر لنا منه « لماذا كان للانسان مشاكل من دون الحيوان ؟ » ، لدخلنا في شبكة لا انفكاك لها من الافكار التي تفتقت عنها اذهان الآلاف من اصحاب المواهب العالية على مر القرون . لن اقوم باعمال « سيزيف » حيال هـذه المربكة ؛ وانما سأحاول ان ادلي بدلوي في جملة محاولات الانسان للاجابة عن هـذا السؤال الاساسي .

لا مشكلة بلا وعي . ولذلك ينبغي لنا ان نصوغ السؤال بطريقة اخرى : كيف ينشأ الوعي ؟ ما من احد يستطيع ان يجيب الجواب اليقين عن هذا السؤال ؛ وانما بوسعنا ملاحظة الاطفال الصغار وهم في سياق اكتسابهم الوعي . بوسع كل من الوالدين أن يرى ذلك لو اعاره انتباها . وهذا ما نستطيع ملاحظته : عندما « يعرف » الولد شخصا او شيئا ، نشعر ان قد صار عنده وعي . ولا شك ان هذا يفسر لنا لماذا حملت شجرة المعرفة في الفردوس مثل هذه الثمرة المشؤومة .

لكن ما هي المعرفة بهذا المعنى ؟ نقول اننا « نعرف » شيئا عندما نوفق الى ربط مفهوم جديد لسياق قائم من قبل بطريقة تجعلنا نضع في واعيتنا لا المفهوم الجديد وحده ، بل سياقه ايضا . ولذلك تقوم «المعرفة» على رابطة واعية فيما بين المحتويات النفسية . لا معرفة بلا ربط فيما بين المحتويات ، لاننا يمتنع علينا عندئذ أن نعيها . اول طور من اطوار الوعي يمكننا ملاحظته اذ يتألف من مجرد الربط بين محتويين نفسيين او اكثر . وعند هذا المستوى ، تكون الواعية شيئا متفرقا ليس اكثر ، باعتبار انها لا تمثل الا بضع روابط ؛ واما المحتوى فلا نستذكره بعد ذلك . ومن الحقائق المقررة ان الذاكرة المتصلة لا وجود لها في السنوات الاولى من الحياة ؛ وفي افضل الاحوال ، لا يوجد الا جزر من الواعية اشبه ما تكون بمصابيح منفردة ، او اشياء مضيئة ، في اعماق الظلام . لكن هذه الجزر من الذاكرة ليست هي نفس الروابط الاولية فيما بين المحتويات النفسية ؛ انها تحتوي على شيء اكثر وشيء اجد . هذا الشيء هو هذه السلسلة

البالغة الاهمية من المحتويات النفسية التي تشكل ما ندعوه « الانا » او « الانية » . والانية ــ شأنها كشأن سلسلة المحتويات الاولية تماما ــ انما هي موضوع في الواعية ؛ ولهذا السبب يتحدث الطفل عن نفسه في بادىء الامر بصورة موضوعية ، بصيغة الغائب . ولا ينشأ الشعور بالذاتية الا في وقت متأخر ، بعد ان تكون المحتويات الانية قد شحنت بطاقة خاصة بها (ويحتمل جدا أن يكون هذا نتيجة للدربة والمران) . ولا شك أن هذه هي اللحظة التي يبدأ فيها الطفل بالتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم . عند هذا المستوى تتشكل بداية الذاكرة المتصلة . ولذلك هي استمرار للذكريات الانية بصفة اساسية .

في المرحلة الطفولية من الوعي ليس ثمة من مشكلة ؛ لا شيء يتوقف على الذات ، لان الطفل نفسه يظل يعتمد كليا على ابويه . فكأنه لم يولد بعد تماما ، بل يظل محاطا بجو ابويه النفسي . انما تحدث الولادة النفسية ، ومعها الشعور بتميز الانية عن الابوين ، في مجرى الاشياء الطبيعي ، في سن المراهقة ومابرافقها من انفجار في الحياة الجنسية . فالتغير الفيزيولوجي يصاحبه تغير نفسي (ثورة نفسية) . ذلك ان مختلف الظواهر الجسمانية تمنح الانية نوعا من التوكيد يجعلها تؤكد نفسها بدون حد ولا قيد . وهذا ما يسمى أحيانا بـ « السن التي لا تطاق » .

حتى بلوغ هذا الطور تظل حياة الفرد النفسية محكومة بنوازع الغريزة ولا تصادف من المشاكل الا أقلها ، أو هي لا تصادف مشاكل على الاطلاق . وحتى حين تعترض القيود الخارجية سبيل النوازع الذاتية ، لا تجعله هذه القيود في نزاع مع نفسه . انه حتى الآن لا يعرف حالة التوتر الداخلي الذي تجلبه المشكلة . ولا تنشأ هذه الحالة من التوتر الا عندما يصبح القيد الخارجي عقبة داخلية ؛ اي عندما يتعارض مع نازع آخر . وباعتماد المصطلح السيكولوجي : الحالة التي تثيرها المشكلة ــ حالة ان يكون المرء في نزاع مع نفسه ــ انما تنشأ عندما تظهر

الى الوجود ، الى جانب سلسلة المحتويات الانية ، سلسلة ثانية تساويها في الشدة . لهذه السلسلة الثانية ، بما تشتمل عليه من طاقة ، اهمية وظيفية تساوي اهمية العقدة الانية ، حتى ليمكننا أن ندعوها « انية ثانية » ، اذ تستطيع في حالة معينة أن تنتزع القيادة من الاولى . ان من شأن هذا ان يحدث ابتعادا عن النفس ؛ وهو الحالة التي تنذر بوقوع المشكلة .

نوجز ما تقدم بمايلي : الطور الاول من الوعي الذي يتكون من التعرف او المعرفة هو حالة من الفوضى او العماء . والطور الثاني ، وهو طور نشوء العقدة الانية ، هو طور الاحادية . اما الطور الثالث فهو خطوة اخرى نحو الوعي ، ويتكون من معرفة المرء نفسه بحالته المنقسمة ، وهو طور الثنائية او الازدواجية :

وهنا نبدأ موضوع بحثنا ، واعني به مسألة مراحل الحياة أو اطوارها . قبل كل شيء ، ينبغي لنا أن نتناول مرحلة الشباب . وتمتد هذه المرحلة بصورة تقريبية ابتداء من السنوات التي تعقب سني المراهقة مباشرة حتى منتصف العمر ، يمتد بدوره بين سن الخامسة والثلاثين وسن الاربعين .

ورب سائل يقول لماذا اخترت البدء بالمرحلة الثانية من الوجود البشري ، أليس في سن الطفولة مسائل صعبة ؟ والحق ان حياة الطفل النفسية المعقدة مشكلة في الدرجة الاولى من الاهمية في نظر الآباء والمعلمين والاطباء . لكن الطفل ان كان سويا فليس عنده مشاكل حقيقية خاصة به . انما تنشأ المشاكل عندما يشب الكائن البشري عن الطوق وتخامره الشكوك حول نفسه ويغدو في نزاع معها .

نحن جميعا نعرف حق المعرفة من اين تنشأ المشاكل في مرحلة الشباب . فمطاليب الحياة بصورة عامة تضع حدا لاحلام الطفولة لدى غالبية الناس . فان كان الفرد قد اعد اعدادا كافيا ، كان انتقاله الى

الحياة المهنية انتقالا هادئا . اما ان كان متعلقا باوهام تتناقض مع الواقع ، فلا مفر عندئذ من وقوع المشاكل . ما من أحد يخطو خطوة في هذه الحياة الا وعنده مسلمات معينة ــ وقد تكون هذه المسلمات خاطئة احيانا ؛ أي ربما كانت لا تتناسب مع الظروف التي يجد المرء نفسه فيها ؛ وهي غالبا ما تكون تمنيات او آمالا بولغ فيها ، او مصاعب قللنا من شأنها ، او تفاؤلا ليس له ما يسوغه ؛ او قد تكون موقفا سلبيا . وبامكاننا اعداد قائمة بالمسلمات التي كانت سببا في أولى مشاكل الوعي .

لكن المشاكل لا تنشأ دائما عن التضارب بين المسلمات الذاتية والوقائع الخارجية وحسب ، وانما قد تنشأ أيضا عن اضطرابات داخلية ، مثلما هو عليه الحال في الغالب . فقد تنشأ حتى حين تجري الامور في العالم الخارجي بصورة طبيعية تماما ، اذ غالبا ما تنشأ المشاكل عن اختلال في التوازن النفسي سببه الدافع الجنسي ؛ وربما يساوي الدافع الجنسي الشعور بالنقص الذي ينبع من حساسية مفرطة .

وقد توجد هذه الصعوبات الداخلية حتى حين يكون التكيف مع العالم الخارجي قد تحقق بدون جهد ظاهر ؛ بل وحتى حين يبدو الشباب الذين اضطروا الى خوض كفاح مرير في سبيل الوجود لا يعانون من مشاكل داخلية . على حين ان الذين كان تكيفهم ، لهذا السبب او ذاك ، قد جرى رخوا رهوا ، يعانون من مشاكل جنسية او من نزاعات نشأت عن شعورهم بالنقص .

ومن الناس من لهم امزجة خاصة تخلق لهم المشاكل ؛ وهؤلاء ، في الغالب ؛ اناس معصوبون (= مصابون بالعصاب) . لكن من سوء الفهم الخطير خلط هذه المشاكل بالعصاب . فثمة فرق كبير بين الاثنتين : المعصوب مريض لانه يجهل مشاكله ولا يعرف بها ، بينما صاحب المزاج يعاني من مشاكل يعرفها ويشعر بها ، لكن دون أن يكون مريضا .

ولو نحن ذهبنا نحاول استخلاص العوامل الاساسية التي تتفرع عنها المشاكل التي نجدها في طور الشباب ، لوجدنا في جميع الحالات سمة

خصوصية : تعلقا متفاوت الظهور بالمستوى الطفولي من الوعي ، وتمردا على القوى الحاسمة فينا وفيما حولنا ، التي تميل الى زجنا في العالم . ان شيئا فينا يريد أن يظل طفلا ، أو غير واع ، او واعيا ــ في أبعد الاحوال ــ على الانية فقط ؛ هذا الشيء يريد ان ينبذ كل ما هو غريب ، او على الاقل يريد اخضاعه لارادتنا ؛ هذا الشيء لا يريد منا أن نفعل شيئا ، او ننغمس في شهوتنا الى اللذة او السلطة . ونلاحظ في هذا الميل شيئا اشبه ما يكون بعطالة المادة ، وهو أن نبقى على حالة ، ما زالت موجودة حتى الآن ، ذات مستوى من الوعي اصغر من الوعي في طور الثنائية او أضيق او اكثر انية منه . ذلك ان الانسان في هذا الطور مضطر لان يعترف ويقبل بما هو مختلف وغريب عنه وأن يعتبره جزءا من حياته بالذات ، نوعا من (وانا ــ ايضا) او من (وانا ــ كمان) !

ان اتساع افق الحياة هو السمة الاساسية في طور الثنائية الذي نتصدى له بالمقارنة . ومن الثابت ان هذا الاتساع يبتدىء قبل زمن من هذه المرحلة ؛ فهو يبتدىء عند الولادة ، في اللحظة التي يغادر فيها الجنين رحم امه الضيقة ، ثم يأخذ في الاتساع شيئا فشيئا حتى يبلغ نقطة حرجة من تلك المرحلة وعندئذ يبدأ بمقاومته بعد ان تحدق به المشاكل من كل جانب .

ماذا يحدث لو تغير هذا الانسان وأصبح تلك (الانية الاخرى) الغريبة ، بعد أن تكون (الانية الاولى) قد تلاشت في غيابة الماضي ؟ ولعلنا نحسب هذا الامر قابلا للحدوث . والحق ان الهدف الحقيقي من التعليم الديني ، بدءا من الحض على التخلص من (آدم القديم) رجوعا في الزمان الى طقوس الولادة الجديدة لدى الاقوام البدائية ، انما هو تحويل الكائن البشري الى انسان مستقبلي جديد ، وتهيئة فرص الانقراض أمام أشكال الحياة القديمة .

يعلمنا علم النفس انه ، بمعنى ما ، لا يوجد في النفس شيء قديم ، وفي نفس الوقت لا شيء يتلاشى نهائيا ، في الواقع . حتى القديس بولس

لم يترك بدون شوكة في الجسد . ومن يق نفسه من الجديد والغريب وينكفىء الى الماضي ، يقع في نفس الحالة العصابية التي يقع فيهما من يتواجد مع الجديد ويهرب من الماضي . والفرق الوحيد بينهما ان احدهما انفصل عن الماضي ، والآخر انفصل عن المستقبل . من حيث المبدأ ، كلاهما يفعل نفس الشيء ؛ كلاهما ينقذ حالة ضيقة من الوعي . والخيار هو كسر هذه الحالة بواسطة التوتر الكامن في اصطراع الاضداد ـ في طور الثنائية ـ وعندئذ تنشأ حالة من الوعي اوسع وأرقى .

لو امكن الوصول الى هذه النتيجة في المرحلة الثانية من الحياة لكان الامر مثاليا ـ لكن هنا المشكلة ، لسبب واحد هو ان الطبيعة لا تهتم ابدا بمستوى أعلى من الوعي ؛ وانما الامر عندها هو على العكس من ذلك . ثم ان المجتمع لا يقدر تقديرا عاليا هذه المآثر التي تجري في داخل النفس ، فهو يمنح جوائزه دائما للاعمال لا للاشخاص ـ هؤلاء يكافؤون ، في القسم الاعظم ، بعد الموت . واذا كان الامر كذلك ، كان الحل المخصوص لهذه المشكلة امرا اضطراريا : نحن مضطرون الى الاقتصار على ما هو في متناولنا واظهار استعدادات مخصوصة ، لاننا بهذه الطريقة نستطيع اكتشاف وجودنا الاجتماعي .

العمل والمنفعة وما اشبه ذلك هي المثل العليا التي يبدو انها تنتشلنا من اختلاط المشاكل المتزاحمة ، وربما تكون هي نجمنا القطبي في مغامرة امتداد وجودنا النفسي وتصليب عوده ، ولعلها تعيننا على ضرب جذورنا في العالم ؛ لكنها لا تستطيع ان تفضي بنا الى تنمية واعيتنا التي اعطيناها اسم الثقافة . على اي حال ، ان هذا هو المجرى الطبيعي في طور الشباب ، وهو في جميع الظروف خير من التخبط في مضطرب المشاكل .

ولذلك يتم حل المشكلة على الوجه التالي : كل ما يعطينا اياه الماضي يتكيف تبعا لامكانيات المستقبل ومتطلباته ، فنقتصر على ما هو في متناولنا ؛ وهذا يعني اننا نستبعد جميع الامكانيات الاخرى فالنسان يفقد جزءا قيما من ماضيه ، وآخر جزءا قيما من مستقبله . ومامنا من

لا يتذكر اصدقاء له او زملاء دراسة كانوا يبشرون بمستقبل مثالي حين يصيرون في سن الشباب ، ولكن عندما التقينا بهم فيما تلا من السنين وجدناهم قد يبس عودهم وانجحروا في قالب ضيق . هـؤلاء امثلـة على الحل الذي اشرنا اليه .

غير ان المشاكل الخطيرة في الحياة لا تنحل بصورة نهائية ابدا ، واذا بدت لنا انها كذلك ، كان معنى ذلك اننا قد اضعنا شيئا . ان معنى المشكلة وتصميمها لا يكمن في حلها ، وانما في العمل الدائب على حلها ، وهذا وحده يحفظنا من السخف والتحجر . وهذا ينطبق ايضا على حل المشاكل المتعلقة بطور الشباب ، وهو الحل الذي ينهض على الاقتصار على ما هو في متناولنا ؛ لكن مفعوله غير دائم ولا يسري الا مؤقتا بمعنى اعمق . طبعا ، ان نحتل مكانة في المجتمع ، وان نغير طباعنا تغييراً يتلاءم كثيراً او قليلا مع هذا الوجود ، لهو عمل بالغ الاهمية في كل الاحوال . انه صراع نخوضه مع انفسنا كما نخوضه مع العالم الخارجي ، وهو اشبه ما يكون بصراع الطفل دفاعا عن انيته . ويجب ان نسلم بأن هذا الصراع غير ملحوظ لانه يحدث في الظلام ؛ غير اننا عندما نرى اوهام الطفولة وسوابق افكاره وعاداتها الانانية كيف تظل تتشبث عنيدة فيما يليها من السنين ـ عندئذ ندرك الجهد الذي بذلته في تكويننا . ثم ان هذا ينطبق ايضاً على المثل العليا والمعتقدات والافكار التي ترشدنا وعلى المواقف التي تخرج بنا الى الحياة التي في سبيلها نقاتل وفي سبيلها نتالم ونحرز الانتصارات : انها تنمو بنمونا ، حتى انها لتصير ايانا ظاهرياً ، ولذلك نؤيدها مسرورين ونعدها من الامور البديهية ، تماماً مثلما يؤكد الطفل انيته في وجه العالم على رغم انفه ـ واحيانا على رغم انف نفسـه !

وكلما دنونا من منتصف العمر ، وافلحنا في تحصين انفسنا داخل منطلقاتنا الشخصية ومركزنا الاجتماعي ، بدا الامر لنا كما لو اننا عرفنا الطريق الصحيح والمثل العليا ومبادىء السلوك القديم ، فنحسبها صالحة للابد ، ونجعل من التمسك بها احدى فضائلنا . نحن نغضي كليـاً عـن

الحقيقة الاساسية ، وهي ان المآثر التي يكافئنا عليها المجتمع انما نجنيها على حساب الانتقاص من شخصيتنا . ان جوانب كثيرة جدا من الحياة ، وكان ينبغي لنا ان نختبرها ، تظل قابعة في بيت المؤونة بين الذكريات التي تراكم عليها الغبار . حتى انها لتكون في اكثر الاحيان نارا موقدة تحت الرماد .

تظهرنا الجداول الاحصائية على زيادة تكرار حالات الكآبة عند الرجال الذين بلغوا سن الاربعين او دنوا منها . اما النساء فتبدأ عندهن المتاعب العصابية بوجه عام في سن مبكرة بعض الشيء . في هذه المرحلة من الحياة – بين الخامسة والثلاثين والاربعين – نرى في النفس البشرية تغييراً كبيراً يجري اعداده . في اوله ، لا يكون التغيير شعوريا ظاهراً ، بل علاماته غير مباشره على تغير يبدو انه يصعد من الخافية (= اللاشعور) . وفي الغالب يكون اشبه بتغير بطيء في شخصية الفرد ، وفي حالات اخرى ربما تعود الى الظهور ملامح بعينها كانت اختفت منذ سن الطفولة ؛ او تبدأ تضعف بعض الميول والاهتمامات ، لكي تنهض ميول واهتمامات اخرى محلها . كذلك كثيراً ما يحدث ان تتصلب المعتقدات والمبادىء التي سلمنا بها حتى ذلك الحين وتقسو الى حد نصل معه الى التعصب وعدم التسامح وهذا يحدث عند نقطة ونحن ندلف الى الخمسين . عندئذ يبدو ان الامر لنا كما لو ان وجود هذه المبادى قد تعرض للخطر ، فيصبح من الضروري تثبيتها وتقويتها

نبيذ الشباب لا يظل صافياً مع تقدم السن ؛ بل غالبا ما يتكدر صفوه . وبوسعنا ان نرى جميع المظاهر التي ذكرناها لتونا الى الاعلى عاجلا احيانا او آجلا احياناً اخرى ، وهي على اوضح ما تكون عند الاحاديين . وعندي لا تكون ظهورها غالباً ما يرجع الى بقاء الابوين على قيد الحياة . وعندئذ لا تكون الحال كما لو ان فترة الشباب قد استمرت على خلاف الاصول . لقد عانيت هذا بصورة خاصة في حالات اناس عمر آباؤهم طويلا ، حتى اذا مات الاب كان لموته فعل النضج السابق لاوانه الذي كاد ان يكون امراً مفجعاً .

اعرف رجلا تقيا كان يعمل راعي كنيسة ؛ لما جاوز الاربعين اخذ يبدي تشددا لا يطاق في امور الاخلاق والدين ، وصار في نفس الوقت حاد المزاج بشكل ظاهر ؛ ثم امسى ليس اكثر من عمود الكنيسة، المنخفض القابع في الظلام . وظل ماضيا على هذا المنوال حتى بلغ الخامسة والخمسين حين استيقظ فجاة في احدى الليالي وقال لامرأته : « الآن عرفت اخيراً ... ما انا في الحقيقة الا وغد ! » لكن هذه المعرفة الذاتية لم تبق بدون آثار . لقد انفق سني عمره الاخيرة في حياة صاخبة بدد فيها شطرا كبيرا من ثروته . من الواضح انه شخص ظريف جدا . قادر على الاستقصاء في كلا الاتجاهين .

ان تكرار الاضطرابات العصابية هذه السمة العامة كلما تقدم العمر بالانسان : تفضح محاولة نقل الميول النفسية الشبابية الى مـا وراء وصيد سن التمييز . من منا لا يعرف اولئك الشيوخ الظرفاء الذين الزموا انفسهم دائما بتسخين طبق ايام الدراسة وايقاد شعلة الحياة من ذكريات بطولة ايام الشباب ويلتزمون جهالة ميؤوسا منها فيما تبقى لهم من العمر ؟ هؤلاء ليسوا بمعصوبين ، بل ثقيلون متجمدون ، لان المعصوب شخص لا يستطيع ابداً ان تكون له الاشياء كما يريد لها ان تكون في الحاضر ، فهو بالتالي لا يستطيع ان يستمتع بالماضي ابداً .

والمعصوب كما انه لم يستطيع ان يتهرب من الطفولة فيما مضى ، كذلك هو الآن لا يستطيع ان يتخلى عن الشباب ؛ انه يخاف من الافكار الرمادية التي تشعره بتقدم سنه ؛ وهـو اذ يشعر بأن المستقبل امامه امر لا يحتمل ، تجده يجهد دوما لان ينظر الى الخلف . وكما ان الشخص الطفولي يخشى من المجهول في العالم وفي الوجود البشري ، كذلك يخشى من تقدمت به السن النصف الثاني من الحياة ؛ اذ يبدو له الامر كما لو ان مهمات مجهولة تحف بها المخاطر مطلوب منه ان يقـوم بها ، او كما لو ان حياته تبدو له حتى الآن حياة جميلة غالية لا يمكنه الاستغناء عنها . او لعله — في العمق — خوف من الموت ؟ ان هذا يبدو

لي امراً محتملا جداً ؛ لان الموت لم يزل بعيداً ؛ ولذلك لا ينظر اليه الا في ضوء مفهوم تجريدي . تظهرنا الخبرة على ان الاساس والسبب في جميع صعوبات هذه النقلة انما ركمنان في تغير عميق ومميز يحدث في داخل النفس . ولكي اصرف هذا التغير اشبهه بمجرى حركة الشمس اليومية — لكنها شمس لها مشاعر الانسان ووعيته المحدودة . في الصباح تشرق الشمس من قلب بحر الليل ، بحر الخافية (= اللاشعور) ، وتطل على العالم المتألق الذي يمتد امامها مسافة تتسع باطراد كلما علت في كبد السماء . وهي ، اذ توسع ميدان فعلها كلما علت ، تدرك اهميتها وترى ان هدفها هو الوصول الى اعلى ارتفاع ممكن حتى تشيع بركاتها على اوسع نطاق . بهذا الايمان تواصل سيرها غير المؤمل حتى تصل الى السمت ؛ وهو سير غير مؤمل لان سرعته وحيدة فريدة ، ولا يمكن احتساب اعلى نقطة فيه مقدما . حتى اذا كان الظهر بدات بالنزول . والنزول معناه عكس الاهداف والقيم التي كانت عزيزة غالية عند الصباح وعندئذ تقع الشمس في تناقض مع نفسها ، حتى ليمسي الامر كما لو ان عليها ان تسحب اشعتها الى الداخل بدلا من اصدارها ، فما يلبث النور والدفء حتى يخفتا وينطفئا في نهاية المطاف .

كل تشبيه اعرج ؛ وهذا التشبيه لا يقل عرجا عن غيره . ثمة حكمة فرنسية توجز لنا ذلك في نوع من الاذعان الساخر : ليت الشباب يدري وليت الشيخوخة تقدر !

لحسن الحظ ، نحن البشر لسنا شموساً تطلع وتغيب ، والا لكنا رحلنا بعيداً عن قيمنا الثقافية . الا ان فينا شيئاً يشبه الشمس ؛ فالكلام عن الصباح والربيع ، وعن المساء والخريف ، ليس مجرد رطانة عاطفية . فنحن بهذا لا نعبر عن حقيقة سيكولوجية وحسب ، وانما عن حقيقة فيزيولوجية ايضاً ؛ ذلك لان الانقلاب عند الظهيرة يغير حتى من صفاتنا الجسمانية . ويمكننا ان نلاحظ عند شعوب الجنوب بصفة خاصة ان المرأة العجوز يخشن ويعمق ويطر شاربها وتقسو ملامح

وجهها وتتسم بغير ذلك من سمات الذكورة كما نلاحظ ، من ناحية ثانية ، ان الطبيعة المذكرة عندهم تخفف منها ملامح انثوية كالسمنة ونعومة قسمات الوجه .

في الادب الاثنولوجي حكاية تروى عن قائد حرب هندي لما بلغ منتصف العمر ظهر عليه « الروح الاعظم » في المنام وطلب منه منذ ذلك الحين فصاعدا ان يجلس بين النساء والاطفال وان يرتدي ملابسهن ويأكل من طعامهن ، فامتثل للامر بدون ان يفقد من هيبته . ان هذه الرؤيا تعبر تعبيراً صادقاً عن الانقلاب النفسي الذي كان يحدث للانسان في ظهيرة الحياة ، او عن بداية انحدارها . فقيم الانسان ، بل وحتى جسمه ، كل ذلك يميل الى الخضوع للانقلاب نحو النقيض .

يمكننا تشبيه الذكورة والانوثة ومكوناتهما النفسية بمخزن مواد استنفدت منه في النصف الاول من الحياة مقادير غير متساوية . فالرجل يستنفد مخزوناً ضخماً من مادة الذكورة ، ويتعين عليه الآن ان يستعمل القليل الباقي من مادة الانوثة . وما يجري مع المرأة هو العكس تماماً ؛ فهي تتيح لمخزونها المهمل من مادة الذكورة ان ينشط في اواخر ايامها .

وترجح كفة هذا التحول في مجال النفس باكثر من رجحانها في مادة الفيزياء . فكثيراً ما يصادفنا امرؤ في الاربعين او الخمسين يترك عمله وتقوم امرأته بارتداء البنطلون وتفتح حانوتاً صغيراً تؤدي فيه اعمالا تتطلب منها مهارة يدوية في بعض الاحيان . ومن النساء لا يكترثن بالمسؤولية الاجتماعية ولا يستيقظ فيهن الوعي الاجتماعي الا بعد سن الاربعين . ولقد بات من الشائع جدا في الحياة العملية الحديثة — ولا سيما في الولايات المتحدة — ان يحدث للناس انهيار عصبي في سن الاربعين او بعده . ونحن لو درسنا ضحايا هذا الانهيار عن كثب لوجدنا ان الشيء الذي انهار انما هو الاسلوب المذكر في الحياة الذي ظل يحتل الساحة حتى الآن ؛ واما الباقي فرجل مؤنث . وفي الاتجاه المعاكس

يمكننا ملاحظة النساء في نفس هذه المجالات من العمل وقد نمين في النصف الثاني من الحياة ذكورة غير شائعة وصرامة تلقي بالمشاعر والقلب على قارعة الطريق . وما اكثر ما يكون هذا الانقلاب مصحوباً بجميع انواع الكوارث الزوجية ؛ اذ ليس من الصعب أن نتصور ما يحدث عندما يكتشف الزوج مشاعره الرقيقة ، والزوجة ذكاءها الحاد .

ولعل الأسوأ من هذا كله ان تكون هذه الميول عند اناس مثقفين واذكياء لكنهم لا يعرفون شيئاً حتى عن امكانية حصول مثل هذه التحولات . فنجدهم يخوضون غمار النصف الثاني من الحياة وهم عزل من السلاح تماماً . او لعله يوجد كليات لمن هم في سن الاربعين تعدهم لما تبقى لديهم من العمر ومتطلباتهم مثلما تقوم الكليات العادية باعداد الشباب لمعرفة العالم والحياة ؟ كلا ، لا يوجد ولا واحدة . فنحن نخطو خطواتنا في « عصر » الحياة ونحن عزل تماماً . وشر من ذلك اننا نتخذ هذه الخطوات ومعنا سوابق افتراضات خاطئة بان خصائصنا ومثلنا العليا سوف تظل تخدمنا كما خدمتنا حتى الآن . لكننا لا نستطيع ان نعيش « عصر » الحياة طبقا لبرنامج « صبح » الحياة ؛ لان الذي كان كبيرا عند الصباح امسى صغيرا عند المساء ، وما كان صدقاً صباحاً امسى كذباً مساء . لقد بلغ من توليت معالجتهم ونقبت في حجرات نفوسهم السرية ، ممن كانوا في سن متقدمة ، من الكثرة حداً يمنعني من الا اتأثر بهذه الحقيقة الاساسية .

على من تقدمت به السن ان يعلم ان حياته غير سائرة صعُداً ، ولا هي ماضية في التفتح ؛ انما عليه ان يعلم ان ثمة سياقاً داخلياً عنيداً يفرض على الحياة ان تتقلص . فالشاب يكاد ان يأثم ، لا بل من الخطر عليه ، اذا هو اسرف في الانشغال بنفسه ؛ بينما الكهل من واجبه ، لا بل من الضروري له ، ان يمنح نفسه اهتماماً جاداً . فالشمس ، بعد ان تكون قد اراقت ضياءها سخية على العالم ، تعود فتلملم اشعتها لكي تضيء نفسها ، كثير من الشيوخ ، بدلا من أن يفعلوا ذلك ، يفضلون

الاهتمام بصحتهم حتى الوسوسة ، او هم يصابون بداء البخل ، او يصبحون نظريين غير عمليين ، او مهللين للماضي ، او مراهقين الى الابد ـ كل هذه تعويضات يرثى لها عن اثارة نفوسهم ؛ لكنها آثار لا بد منها تنتج عن التوهم بأن النصف الثاني من الحياة يجب ان تحكمه مبادىء النصف الاول .

قلت لتوي إن ليس لدينا مدارس لمن بلغوا سن الاربعين ؛ لكن هذا القول غير صحيح تماماً . فأدياننا كانت على الدوام هي هذه المدارس فيما مضى ؛ لكن كم منا من يعتبرها اليوم كذلك ؟ كم منا نحن ، الطاعنين في السن ، من تربى وتنشأ في هذه المدارس ، وتم اعداده من اجل النصف الثاني من الحياة ، ومن اجل الشيخوخة ، ومن اجل الخلود ؟

ان الكائن البشري ما كان ليبلغ سن السبعين او الثمانين لو لم يكن لهذا العمر الطويل معنى بالنسبة الى النوع الذي ينتسب اليه . ان عصر الحياة البشرية ايضاً يجب ان يكون له معنى خاص به ، ولا يمكن القبول به هدفاً عندما يكون الوجود بالغ الشقاء الى حد يطيب لنا معه ان نضع له نهاية ، او عندما نكون مقتنعين بأن الشمس تسعى الى غروبها ـ ، لكي تنير اقواماً بعيدين . ـ بنفس العزيمة التي تبديها وهي ترتفع في كبد السماء . لكن الايمان اليوم قد اضحى فناً بالغ الصعوبة حتى لقد بات الناس معه ، ولا سيما المثقفين ، لا يكادون يجدون طريقهم اليه . لقد ادمنوا عادة التفكير ان المسائل المتعلقة بالخلود ، الآراء متضاربة بشأنه وليس عليها براهين مقنعة . وحين اصبح « العلم » هو الشعار الذي يحمل وزن القناعة في عالمنا المعاصر ، رحنا نطالب ببراهين علمية ، لكن المثقفين القادرين على التفكير يعلمون ان البرهان على شيء من هذا القبيل ليس له محل على الاطلاق ، لاننا لا نعرف عنه شيئاً

بودي ان اشير هنا الى اننا ، لنفس السبب ، لا نستطيع ان نعرف ان كان يحدث شيء لشخص بعد موته . لا نستطيع الجواب لا سلبا ولا ايجابا . كل ما في الامر اننا لا نملك عليه براهين علمية محددة على نحو أو آخر ، ولذلك نجدنا في نفس الموقع عندما نتساءل ان كان كوكب المريخ آهلا بالسكان ام لا . وسكان المريخ ، ان وجدوا ، لا يعبؤون ان كنا نثبت او ننفي وجودهم . فقد يكونون موجودين او لا يكونون . وهذا هو موقفنا من مسالة الحياة بعد الموت ـ وهي مسالة يمكننا ان نصرف النظر عنهـا .

لكن هنا يستيقظ فيّ وجدان الطبيب ويحملني على قول كلمة جوهرية في هذه المسالة . لقد لاحظت ان الحياة الهادفة هي بعامة خير واغنى واوفر صحة من الحياة التي لا هدف لها ، وانه خير للمرء ان يواكب الزمن في جريانه من ان يسير بعكسه الى الخلف . في نظر الطبيب ، الرجل العجوز الذي لا يستطيع توديع الحياة يبدو هزيلا ومعتلا في مثل الهزال والاعتلال الذي يبدو على الشاب الذي لا يستطيع ان يعانق الحياة والحق ان المسالة في اكثر الحالات هي مسالة نفس الشهوة الصبيانية ونفس الخوف ونفس العناد والرغبة الطاغية عند احدهما كما هي عند الآخر . واني ، وانا الطبيب ، كلي قناعة بان اكتشاف هدف في الموت بوسع المرء ان يسعى اليه لهو امر صحي ـ ان كان لي ان استعمل هـذه الكلمة ـ ، وان الانصراف عنه امر مناف للصحة ، وانه امر غير طبيعي ، من شانه ان يسلب الغاية من النصف الثاني من الحياة . ولذلك اعتبر التعليم الديني المتعلق بالحياة بعد الموت موافقا لمنطلق الصحة النفسية . انا ان سكنت بيتا وانا عالم بانه سوف ينهد على راسي بعد اسبوعين ، تصبح جميع وظائفي الحيوية مسكونة بهذه الفكرة ، اما لو شعرت انني في مأمن ، فان بامكاني السكن فيه وانا مطمئن ناعم البال . كذلك مـن الامور المرغوب فيها في العلاج النفسي ان نعتبر الموت نقلة ليس اكثر ـ جزءا من سياق الحياة ذات مدى ومدة لا تطالها معرفتنا .

رغم ان معظم الناس لا يعرفون لماذا تحتاج اجسامهم الى الملح ، الا ان كلاً منهم يطلبه لكي يلبي به حاجة غريزية . نفس الشيء ينطبق على اشياء النفس . منذ الازمنة الغابرة والسواد الاعظم من الناس يشعرون بحاجة الى الايمان بديمومة الحياة . ولذلك تفرض علينا مقتضيات العلاج الا نسلك في طرقات فرعية ، بل في منتصف الطريق الذي سلكته البشرية . وبذلك يكون تفكيرنا صحيحا تماما فيما يتعلق بمعنى الحياة ، حتى وان لم نفهم ما نحن نفكر فيه .

هل لنا ان نفهم ما نحن نفكر فيه ؟ ان التفكير الذي نفهمه عبارة عن معادلة : ما يخرج منه ليس سوى ما يدخل فيه . هذا هو عمل العقل. لكن ما وراءه تفكير في الصور البدئية ، في الرموز الاقدم من الانسان التاريخي ، المركوزة فيه منذ اقدم الازمنة ، هذه الصور او الرموز حية ابدا على تعاقب الاجيال ، ومازالت تكوّن الاساس في بنية النفس البشرية ولا يمكننا ان نحيا حياتنا كاملة ما لم ننسجم مع هذه الرموز ، وانه لمن الحكمة ان نعود اليها . فالمسالة ليست مسالة ايمان ، ولا مسالة عرفان، بل هي موافقة تفكير مع الصور البدئية الخافية (اللاشعورية) . انها مصدر جميع الافكار الخافية ، ومن هذه الافكار البدئية فكرة الحياة بعد الموت . العلم وهذه الرموز لا يتكافآن . انها الشروط التي لابد منها للخيال ، انها المعلومات الاولية ــ المواد التي ليس يسع العلم ان ينكر ملاءمتها وصحة وجودها ارتجالا . اذ ليس له ان يعاملها الا على اساس انها معطيات واقعية ، تماما مثلما يفعل عندما يكتشف وظيفة كوظيفة الغدة الدرقية مثلا قبل القرن التاسع عشر ، كانت تعتبر الغدة الدرقية عضوا لا معنى له ، لا لشيء الا لانها لم تكن مفهومة ، كذلك من قصر النظر ان نقول اليوم ان الصور البدئية لا معنى لها . وعندي ان هذه الصور اشبه شيء باعضاء نفسية ، واني اعاملها باقصى العناية . يحدث احيانا ان يملي علي واجبي ان اقول لمريض متقدم في السن : « صورتك عن الله ، او فكرتك عن الخلود ، ضامرة ، وبالتالي استقلابك النفسي عاطل عن العمل » . ان علاج الخلود القديم اكثر عمقا وابعد معنى مما يخيل الينا .

وهنا أعود لحظة الى تشبيه الشمس . ان الدرجات المائة والثمانين من قوس الحياة يمكن تقسيمها الى اربعة اقسام . الربع الاول ، وهو الواقع الى الشرق ، طفولة ، وهي الحالة التي تخلق فيها المشاكل لغيرنا، دون ان تكون على وعي بمشكلاتنا الخاصة . لان المشكلات التي نعيها هي التي تملأ الربعين الثاني والثالث ، على حين اننا في الربع الاخير ، في نهاية الشيخوخة ، نعود فننحدر الى مستوى خلق المشكلات لغيرنا ، حين لا نكون فيها مبالين بحالة الوعي . الطفولة ونهاية الشيخوخة طوران مختلفان كل الاختلاف ، لكن يجمعهما عنصر مشترك : الانغماس في الحوادث النفسية الخافية (= اللاشعورية) . ولما كان عقل الطفل ينشأ عن الخافية (= اللاشعور) ، كانت سياقاته النفسية ــ وان كانت لا تفهم في يسر ــ ليس من الصعب تبينها مثلما هو من الصعب تبين السياقات النفسية لدى الطاعن في السن الذي عاد ثانية فغاص في الخافية ، واخذ يتلاشى فيها تدريجيا . الطفولة والشيخوخة طوران من اطوار الحياة ليس فيهما مشكلات واعية ، ولهذا السبب لم اتطرق اليهما في هذا البحث .

* * *

سيكولوجية اللغة

د. عبد المجيد النشواتي

يتواصل الناس فيما بينهم بطرق عديدة ومختلفة فقد تؤدي النظرات معاني لا تستطيع الكلمات اداءها وربما تعني اللمسة ما يعجز اللسان عن الافصاح به، وتشير نغمة الصوت احيانا الى عكس المعنى الذي تحمله الكلمات المنطوقة كما يختلف الحديث الدائر بين اثنين اختلافا جذريا لدى حضور فرد ثالث.

وتشغل عملية التواصل الانساني جزءا كبيرا من علم النفس الحديث، وذلك بدءا من الدراسات الفيزيولوجية التي تتناول آلية المنعكسات اللاارادية وضبط الحركات العضلية، وانتهاء بدراسات السيكولوجيا الاجتماعية، عمليات الاقناع وتغيير الاراء والمعتقدات، ومرورا بدراسات سيكولوجيا المعرفة، التي تتناول الفهم والتفكير والادراك والتذكر والحكم والاستدلال والابتكار والذكاء وحل المشكلات.

تشكل اللغة الاداة الرئيسية التي تمكن الكائنات البشرية من تنظيم تواصلهم وانتاجه . ويدعي بعض العلماء والباحثين ، ان اللغة الظاهرة الوحيدة التي تميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية الاخرى واشكال الحياة الادنى . ويستطيع كل فرد — باستثناء بعض الحالات المرضية القليلة — أن يكتسب اللغة ويستخدمها ، بحيث يمكن اعتبار اللغة انجازا انسانيا عالميا .

وتقوم اللغة باداء العديد من الوظائف ، فهي تمكن الافراد من ايصال الكثير من المعلومات والمعارف والافكار والاتجاهات والحقائق ، وتحفظ المعرفة الانسانية ، فتنقلها من جيل الى اخر . وتملك اللغة خاصية التأثير في الاخرين ، فقد تتأثر ، ومن خلال اللغة بافكار شخص ما واعماله عاش قبلنا بمئات السنين . وباستخدام اللغة ، نستطيع التعبير عن الذات ، وهو امر يبدو مستحيلا بالنسبة للكائنات الحية غير الانسانية ، وقد تستثير اللغة ، لدى استخدامها في وصف حادثة ما ، من المشاعر والذكريات ، ما لا تستطيع الحادثة نفسها استثارتها . وهناك العديد من الوظائف الاخرى التي تؤديها اللغة في حياتنا ، والتي لا يتسع المجال لذكرها كاملة هنا .

ان وضوح اللغة من حيث وظائفها ، ومن حيث كونها اداة التواصل الرئيسية ، لا يؤدي على نحو ضروري الى وضوح طبيعتها . فالفرد لم يعتد التفكير في اللغة ذاتها ، ويقتصر في معظم الاحيان على استخدامها فقط . ويثير البحث في طبيعة اللغة عددا من المشكلات ، مثل : كيف يكتسب الاطفال اللغة ؟ وما العلاقة بين اللغة والفكر ؟ وهل تحدد اللغة انماط التفكير وطرقه ؟ وهل اللغة ظاهرة ينفرد بها الانسان وحده دون الكائنات الحية الاخرى فعلا ؟ وما العلاقة بين اللغة والدماغ ؟ وما العلاقة بين اللغة والمجتمع ؟

يمكن دراسة طبيعة اللغة بطرق مختلفة ، وذلك حسب الظاهرة اللغوية التي تستثير انتباه الباحث واهتمامه . ويتجه اهتمام عالم اللغة

عادة الى دراسة الطبيعة الشكلية للغة ، فيتناول الاصوات والكلمات والجمل والقواعد والمعاني والتركيبات اللغوية المختلفة ، بحيث تشكل هذه الظواهر ميدان اهتمامه أما عالم النفس ، فيوجه اهتمامه الى طبيعة اللغة ، وذلك من خلال البحث في كيفية اكتسابها واستخدامها ، ومن خلال دراسة الدور الذي تلعبه في تنظيم البنية العقلية للفرد . وسيكولوجية اللغة ، Psycholanguistics أو علم النفس اللغة ، وهو الميدان الذي يبحث في مثل هذه الظواهر ، ويشكل جانبا من ميدان اعم ، يتناول سيكولوجية المعرفة أو التفكير ، ويدعى ، علم النفس المعرفي Cognitive Psychology . لذا تعتبر سيكولوجية اللغة ، جزءا اساسيا وهاما من الدراسات التي تبحث في تنظيم العقل وعمله .

طبيعة اللغة :

ان تنوع اللغات واللهجات الانسانية يؤدي في كثير من الاحيان الى سوء فهم طبيعة اللغة ذاتها . لذا لابد من الاشارة الى موضوعين اساسيين مرتبطين بالتنوع اللغوي ، ويشوهان في حال عدم ادراكهما على نحو موضوعي ، فهمنا لطبيعة اللغة . يتعلق الموضوع الاول بما يدعى باسطورة اللغة الخالصة The Mgth of Pure Language بينما يتعلق الموضوع الثاني بما يدعى بشوفونية اللغة Language Shavinisim

تشير اسطورة اللغة الخالصة الى وجود شكل صحيح ومطلق لكل لغة انسانية ، وان اي انحراف عن هذا الشكل يؤدي الى نوع من اللحن وبعد عن المعيار المطلق . لهذا ، يرى بعض مؤيدي هذه الاسطورة ، ان اللهجات المختلفة تشكل انحرافات عن اللغة الخالصة ، وتغدو اللهجة ذات قيمة معينة نتيجة قربها او بعدها من هذه اللغة ومدى انحرافها عنها

وهناك من يرى استحالة تفضيل لهجة على اخرى ، وليست اللهجات مجموعات مترابطة فيما بينها ، وتختلف عن بعضها من حيث قوة هذا الارتباط او ضعفه . لذا لا يمكن الحكم بوجود لهجة أولية اساسية ، لان

افتراض وجود مثل هذه اللهجة يثير مشكلة تتعلق باكتساب اللغة عند الاطفال . فالطفل الذي يولد في مجتمع محلي معين ، يكتسب لغة هذا المجتمع ولهجته ، وبذلك يتعلم اللغة الاساسية لهذا المجتمع ، وليس شكلا منحرفا عن لغة خالصة . وبهذا المعنى ، يمكن دراسة كل اللهجة في حد ذاتها ، دون وسمها بقيمة معينة ، للوقوف على طبيعة اللغة الحقيقية . وهذا لا ينفي بالطبع سيادة لهجة معينة ـ لسبب او لاخر ـ يتحدث بها افراد ثقافة فرعية معنية في المجتمع موضوع البحث .

اما الشوفونية اللغوية ، فتشير الى اعتقاد الفرد بان لغته الخاصة هي افضل اللغات الممكنة على الاطلاق ، وذلك انطلاقا من اتجاه تعصبي وغير موضوعي . ويبين التاريخ الانساني العديد من المآسي التي عانت منها بعض المجتمعات نتيجة فرض لغة قوم على قوم اخر ، اعتقاد بتفوق لغة على اخرى . واذا افترضنا جدلا وجود مثل هذا النوع من التفوق ، فكيف السبيل الى تشخيصه وتحديده ؟ وما المحكات المستخدمة للتمييز بين اللغات من حيث تفوقها او عدمه ؟

يرى البعض ان تعقيد اللغة وصعوبة تعلمها وغناها من حيث قدرتها على التعبير عن المشاعر والانفعالات والافكار ، يمكن ان تكون دلائل على تفوق اللغة ، الا ان هذه الدلائل تفترض وجود مقياس عام يمكن تطبيقه على اللغات كافة ، الامر الذي يبدو شبه مستحيل من الوجهتين المنطقية والواقعية . كما ان الدراسات اللغوية المقارنة تشير الى تمتع مختلف اللغات بقدرة كبرى على التعبير . وقد تمتلك لغة ما ، بعض المفاهيم التي لا تمتلكها لغة اخرى ، بيد ان ذلك لا يعني تفوق اللغة الاولى على الثانية ، بل يعكس اهتمام اصحاب اللغة الاولى بهذه المفاهيم ، ولا يعكس شيئا يتعلق بطبيعة اللغة ذاتها ، الامر الذي يدعونا الى الحذر من اصدار الاحكام القيمية لدى تناولنا طبيعة اللغة بالبحث والدراسة .

ان ظاهرة تنوع اللغات لم تمنع العلماء والباحثين من رؤية الظواهر المتشابهة والمشتركة بين اللغات الانسانية جميعها ، وقد اتجهت جهود

الباحثين في السنوات القليلة الماضية الى دراسة تشابه اللغات اكثر من اختلافها « تشومسكي » ، وذلك للتعرف على العناصر « العالمية » المشتركة بين جميع اللغات والمختلفة عن الصفات الخاصة والمرتبطة بلغة معينة . وتدعى هذه العناصر « عالميات اللغة »
Language Universals

، ويمكن الوقوف عليها من خلال دراسة البنية اللغوية Language Structure وتحليلها ، لان هذه البنية تشير الى تلك « العالميات » وتبين الخصائص والصفات العامة المشتركة بين اللغات الانسانية والمتنوعة والمختلفة .

يختلف عالم اللغة عن عالم النفس اللغوي من حيث الاسلوب او المنهج الذي يتبعه كل منهما في دراسة تلك الخصائص العامة او العناصر العالمية . فقد يبحث اللغوي عن التشابه بين قواعد لغتين او اكثر ، ويتساءل ما اذا كان هذا التشابه موجوداً في لغات اخرى أم لا . اما الباحث في السيكولوجيا اللغوية ، يتساءل عما يعرفه ناطقو هذه اللغات عن لغاتهم ، لارتباط هذه المعرفة بمشكلة اكتساب اللغة وفهمها وانتاجها وتطورها .

قد يوافق ناطقو اللغات المختلفة على ان لغاتهم تتكون من « جمل » وان الجمل تتكون من « كلمات » تتكون بدورها من عدد محدود من الاصوات . وقد يوافقون ايضا على ان الجمل والكلمات تحمل « معان » معينة ، بينما لا تحمل الاصوات « معنى » في ذاتها . ويبدو ان ناطقي اللغات المختلفة يستخدمون ميكانيزمات سيكولوجية متشابهة لدى انتاج لغاتهم ، وهي احدى الخصائص الهامة التي تميز الانسان عن غيره من الكائنات الحية ، فما من لغة انسانية مثلا ، تنتج كلماتها عن اصوات ناجمة عن احتكاك الساقين او الكفين .

قد تبدو هذه الظواهر واضحة وسطحية للوهلة الاولى ، الا انها تشير الى جزء هام من « عالميات » اللغات الانسانية المتنوعة ، وتبين في

الوقت ذاته أهم ما يميز اللغة الانسانية عن أنواع السلوك الاخرى ، الانسانية منها وغير الانسانية ، لذلك لا بد من تناول هذه الظواهر على نحو اكثر تفصيلا وعمقا لفهم المكونات « العالمية » للغة .

المكون الفنولوجي(١) Phonological Component

تتكون الكلمات المستخدمة لدى نطق اية لغة من اللغات ، من مجموعة من الوحدات الصوتية الاساسية ، يميزها ناطقو هذه اللغة لاتسامها بصفات معينة تجعلها مختلفة عن غيرها من الاصوات الاخرى ، كالاختلاف بين صوتي الحرفين ز و ذ ، والحرفين س و ث . ويستخدم مصطلح « فونيم » Phoneme اشارة الى الوحدة الصوتية الاساسية في لغة ما .

ان جميع اللغات الانسانية ناتجة من تركيبات مختلفة لعدد محدود من الفونيمات المستخدمة في كل لغة من هذه اللغات . وتختلف اللغات فيما بينها ، من حيث تركيب هذه الفونيمات مع بعضها ، ومن حيث عدد الفونيمات المستخدمة في كل لغة ، ويتراوح هذا العدد بين ٤٠ و ٨٠ فونيما تقريبا . ويجدر الاشارة هنا الى أن الفونيمات لا تتطابق تطابقا تاما مع الاحرف الهجائية ، ففي احيان كثيرة يستخدم حرف واحد للدلالة على أكثر من فونيم ، كما يمكن استخدام اكثر من حرف للدلالة على فونيم واحد .

تتصف الاصوات « الفونيمات » المستخدمة في اية لغة من اللغات ببعض المظاهر المميزة Distinctive Features ، يدركها ناطقو هذه اللغة ، وتشكل واقعا سيكولوجيا بالنسبة لهم . ومن الامثلة التي تشير الى هذه المظاهر ، استخدام النفس أثناء نطق بعض الاصوات ، والتمييز في نطق الاصوات الساكنة والاصوات المتحركة « اللينة » والصوت المترافق باهتزازات صادرة عن الحبال الصوتية .

(١) الفنولوجيا Phonology : علم الاصوات الكلامية .

تشكل « المظاهر المميزة » بعض عناصر العمليات اللغوية المشتركة بين اللغات كافة ، الامر الذي يعني ان ناطقي اللغات المتنوعة يستخدمون عددا محدودا جدا من المظاهر الصوتية المميزة لدى أنتاج لغاتهم . وقد يعود ذلك الى البنية التشريحية للاجهزة الصوتية ، وإلى التكوينات المخية المرتبطة بها .

وعلى الرغم من ان المظاهر الفنولوجية المستخدمة في اللغة المختلفة ، تكاد تكون واحدة ، الا ان طرق استخدامها تختلف من لغة لاخرى . والفروق بين اللغات في هذا المجال لا تعود الى « سهولة » أو « صعوبة » نطق بعض الاصوات في لغة دون اخرى ، بل تعود الى الطرق التي تستخدم فيها اللغات « عمليات » المظاهر المميزة في وضع أصناف مختلفة من الاصوات .

كيف تتطور البنى الفنولوجية اثناء الطفولة ؟ يترتب على الطفل لدى اكتسابه اللغة ، ان يتعلم المظاهر الفنولوجية المستخدمة في لغته الخاصة ، بحيث يغدو قادرا على استخدامها للتمييز بين الاصوات المختلفة ومقارنتها . ويشير البعض امثال (براون وجاكوبسون) الى ان الطفل يبدأ بتعلم التمييزات العامة البسيطة ، كالتمييز بين الوحدات الصوتية الساكنة والمتحركة ، دون الانتباه الى الفروق الداخلية الموجودة ضمن هذه الوحدات .

وتزداد قدرة الطفل على التمييز لدى تقدمه في السن ، بحيث يغدو اكثر قدرة على تصنيف الاصوات في وحدات فرعية مختلفة ، بيد أن هذه القدرة تحتاج الى عدة سنوات من حياة الطفل المبكرة حتى يصل الى مهارة الاستخدام الكلي التام للمظاهر الفنولوجية المميزة .

المكون المورفولوجي(١) Morphlogical Component :

تناولت في القسم السابق العناصر الفنولوجية للغة ، وتبين ان هذه العناصر لا تملك معنى في ذاتها ، بل تكون علاقات تشير اليه . والجملة

(١) المورفولوجيا Morphology : علم الوحدات الكلامية (الصرف) .

هي الوحدة اللغوية المستخدمة لايصال المعنى ، الا انها تتكون من وحدات اصغر منها تحمل معنى ، وهي الكلمات ، كما يمكن تقسيم الكلمة الى وحدات اصغر منها ايضا وتحمل معنى ، وهي المورفيمات « E. M. E. S » ويمكن تعريف « المورفيم » بانه اصغر وحدة كلامية ذات معنى ، فكلمة كتـاب » مثلا ، تشكل « مورفيمـا » بينما كلمـة « كتابي » تشكل « مورفيمين » ، وهما « كتاب » و « ي » التي تشير الى النسبة .

والمورفولوجيا Morphology هـو العلـم الذي يتناول دراسة الوحـدات الكلاميـة ذات المعنى من حيث اشكالها وتنوعاتها وطـرق ارتباطاتها فيما بينها (الصرف) ، لتشكيل الجمل التي يمكن من خلالها ايصال المعنى ، اذا كان المتكلم والسـامع يحمـلان المعنى نفسه لهـذه الجمل .

ان « المعنى » من اكثر مصطلحات اللغة غموضا واثارة للجدل ، ويصعب التعرف على حدوده نظرا لانتشاره الكبير فيها . فمن خلال المعنى ، تستطيع تقدير الحقائق القيمية للغة ، ويمكننا من اعادة صياغة الجمل باشكال جديدة ، كما يمكننا من فهم الغموض المتعلـق ببعض الامور ... الخ . ويتعلم الفرد أثناء طفولته طريقة استخدام الكلمات من حيث علاقاتها بالاوضـاع المختلفة وعلاقاتها فيما بينها للدلالة على المعنى . فمن اين يمكن ان نبدأ بمعالجة مثل هذه المشكلة المعقـدة ، مشكلة « المعنى » ؟

يتناول الباحثون مشكلة المعنى باسلوبين مختلفين ، الاسلوب البنيوي Structure Approach ، ويعني بتحديد ابعاد المعنى وصفاته ، ويهتم بهذا الاسلوب عادة واضعو القواميس والفيلولوجيون واللغويون والفلاسفة والانثربولوجيون وعلماء النفس . ويوجه هؤلاء انتباههم الى ابعاد المعنى المختلفة واصنافه ، كتعريف الكلمات وطرق ارتباطها فيما بينها لكي تؤدي المعنى المطلوب . ومن الواضح أن هذه الاشياء ، هي ما يجب ان يتعلمه الطفل لكي يتكلم بالفاظ مناسبة ذات معنى ، بيد انه من الواضح ايضا ان

في استطاعة المرء ان يقوم بدراسة هذه المشكلات ـ اي التحليلات والبنى اللغوية ـ دون اللجوء الى دراسة الكيفية التي يتم من خلالها تعلم اللغة ؛ اي دون تفسير وتحليل ما يجري داخل « الراس » عندما تتكلم او عندما تحاول ان تفهم كلام الآخرين . لذلك يلجأ الباحثون في سيكولوجية اللغة ، الى استخدام الاسلوب الثاني وهو اسلوب العملية Operation Approach ويعني بطرق اكتساب المعنى اللغوي وفهمه ، ويتناول بحث العمليات السيكولوجية التي تؤسس الاستخدام المعنوي للغة ، وهو ما يشكل المكون الدلالي لها .

المكون الدلالي[1] : Semantic Component

تشكل اللغة اساسا ، وسيلة لربط نوعين من اشكال او انماط التصوير ، هما الصوت والمعنى ؛ حيث يشير « الصوت » الى النظام الفنولوجي Phonological System ، وهو نمط تصوير خارجي ، بينما يشير المعنى الى النظام الدلالي Semantic System ، وهو نمط تصوير داخلي . وتشترك اللغات جميعها في هذين النوعين من النظم ، الامر الذي يشكل عنصرا آخر من عناصر « عالميات » اللغة ، ويدعى ثنائية التنميط Dualtiy of Patterning نمط التصوير الداخلي ، « المعنى » ونمط التصوير الخارجي « الصوت » . واذا كان التصوير الخارجي يتألف من عدد من العناصر لا تحمل في ذاتها اية معان ، فان التصوير الداخلي يشير الى مجموعة من الافكار والمشاعر والانفعالات والاتجاهات . فكيف يغدو التصوير الداخلي ؟ وماذا يعرف عندما نفيد بأنه يعرف معنى كلمة وجملة ما ؟ اي كيف تكتسب الكلمات المعنى وتغدو وتفيد عن التفكير ؟

تستلزم مشكلة المعنى عادة ، بحث ثلاثة عناصر مختلفة ، هي ، الرمز Symbal والفكر Thought والمدلول Referent . ومن الواضح انه يوجد ارتباط مباشر بين الرمز والفكر من طرف ؛ وبين المدلول والفكر

(١) Semantics : علم دلالات الالفاظ .

من طرف آخر . بيد أن الارتباط بين الرمز والمدلول ، هو ارتباط غير مباشر دائماً ، ولا يوجد الا في العقل البشري . وعلى الرغم من المحاولات الكثيرة التي قام بها الفلاسفة واللغويون وعلماء النفس من اجل ايجاد تفسير مناسب لمشكلة المعنى ، مشكلة الارتباط بين الرمز والمدلول ، فان البحوث والدراسات ما زالت عاجزة عن تقديم مثل هذا التفسير . وتشير الدراسات التي تناولت هذه المشكلة الى اختلافات الباحثين بصددها ، والى كثرة وتنوع الاساليب والموضوعات التي يتناولها الباحثون لدى تصديهم لها . ولا يتعلق الاختلاف بتشكيل نظرية متكاملة تفسر ، « المعنى » فقط ، بل يتعلق ايضا بالمشكلات التي تواجهها النظرية بعد وضعها .

حاول علماء النفس وضع فروض متعددة لتحديد العمليات المتوسطة التي تجري داخل الانسان ، وتربط الرموز بالمدلولات ، أي الكلمات بالاشياء . فمنهم من قال بتوسط « الفكر » (ازجود) ومنهم من قال بتوسط « الاستجابة » الصور الفكرية (لوك وتيتشنر) بينما قال البعض الآخر بتوسط « الاستجابة » (واطسن) .

لجأ علماء النفس في امريكا الى اقامة نوع من الفعل او الاستجابة بين الرمز ومدلوله . فالمدلول هو ما يبعث الفرد للقيام باستجابة او فعل ما لدى تعرضه للرمز . ويعود ذلك الى اصول الفلسفة البرجماتية ــ الذرائعية ــ التي نادى بها بيرس وجيمس وديوي ، اذ يعتقد هؤلاء ان المعنى يتحدد بما ينتج عنه من اعمال او افعال ، « فجملة هذا شيء صعب » مثلاً ، تعني انك لو حاولت اختبار هذا الشيء او القيام به فستفشل . ان المعنى ، طبقا لوجهة النظر هذه ، مرتبط بأداء عمليات معينة على المستوى الواقعي ؛ اي ان الكلمة تكتسب معناها من خلال النتائج الفعلية المترتبة على استخدامها . وتتفق الفلسفة البرجماتية في هذا المجال مع وجهة نظر علماء النفس السلوكيين المعنيين بتاكيد الجوانب العملية والسلوكية والفعالة للمعنى . وتطورت نظريات المعنى السلوكية منذ

الحرب العالمية الاولى بما يتفق مع هـذه الفلسفة ومع نظرية الاشراط الكلاسيكي لبافلوف .

لقد اقتصر السلوكيون لدى تناولهم مشكلات المعنى على بحث المرجع Reference أي ما يرجع اليه لتحديد معنى الرمز او الكلمة ، حيث يمكن تعريف الكلمة بالرجوع الى الشيء الذي تدل عليه او تسميه ، لذلك ساوى هؤلاء بين المعنى ومدلوله ، وتدعى هـذه النظرية « نظرية المرجع » Reference Theory وتسود هـذه النظرية عمليـات التعليم الصفي وأساليبه عند القول بأن الاسماء تشير الى الاشخاص والاماكن والاشياء ، وان الافعـال تشير الى الاعمال والحـالات ، وان الصفـات تشير الى الخصائص والسمات .

تواجه هذه النظرية اعتراضات كثيرة ، على الرغم من قبولها بسبب بساطتها وسهولتها ، فالكلمة تسمي الاشياء .. ولا شيء غير ذلك . قد تبدو هذه النظرية صادقة في حالة واحدة فقط ، وذلك لدى تطبيقها على بعض الاسماء المادية غير المجردة ، والتي يمكن الرجوع اليها على المستوى المادي ، مثل ، كتاب ، ولد ، مفتاح ، بيد ان هناك العديد من الاسماء التي تحمل معنى ما ، الا انها غير موجودة على هذا المستوى ، مثل ، غول ، وعفريت ، وشيطان ... الخ . وهناك ايضا عدد من الاسماء المجردة ، كالحق والخير ، والعدل والجمال ... الخ . لا تستطيع هذه النظرية تقديم اي شيء للدلالة عليها او لتفسيرها . وتواجه الافعال المشكلة ذاتها فأي عمل تشير اليه افعال مثل ، أحب ، ورغب ، وفكر ... الخ .

حاول « واطسن » وضع « نظرية بديلة » لتحديد العمليات المتوسطة بين المدلول والرمز ، وقال بأن «الاستجابة» تقوم بدور الوسيط ، وتربط الكلمة بمعناها ، ويرى أن الكلمة تكتسب معناها لان الفرد يستجيب لها بالطريقة ذاتها ، في كل مرة تعرض عليه ، بحيث يغدو وكأنه يستجيب لمدلول الكلمة ذاته عندما يستجيب لها بيد أن الاستجابات الملاحظة آنذاك والتي كانت موضع اهتمام السلوكيين ، كانت من النوع الجسدي العام ،

كحركة اليدين والفم والحنجرة وبعض اجزاء الجسم الاخرى . وقد راجع ازجود الدراسات التي تمت في هذا المجال خلال العقدين الثالث والرابع من هـذا القرن وبـين غموضهـا وفشلها ، وبدا واضحـا ان الافراد لا يستجيبون للكلمة ، بالطريقة ذاتها ، التي يستجيبون فيها للشيء او المدلول ذاته الذي تشير اليه هذه الكلمة . فالفرد لا يستجيب لسماع كلمة « تفاحة » مثلا ، باكل التفاحة مثلا ، فقد يقوم بجزء فقط من هذه الاستجابات ، وقد يقتصر على التفكير بالاستجابة فقط . وتقلصت بذلك الاستجابات التي اعتبرت معنى للكلمات ، وتحولت من استجابات « ظاهرية » يمكن ملاحظتها وقياسها ، الى استجابات عضلية « ضمنية » ومن ثم تحولت الى استجابات جزئية ضئيلة تحدث كليا في الجهاز العصبي المركزي حسب راي ازجود . وبذلك اقام السلوكيون نوعا من الاستجابات العقلية غير المرئية ، الا انها لم تعد قابلة للملاحظة والقياس بطريقة موضوعية ، طالما انها تحدث في « الراس » . كما لم تعد متوافرة للاستبطان والتامل ، طالما انها ليست « صورا عقلية » كما يدعي جون لوك .

ولكن ماذا قدم مفهوم « الاستجابة » لدى تفسير المتوسطات التي تربط المعنى بالمدلول ؟ وهل مفهوم « الاستجابة » اكثر موضوعية من مفهوم « الصورة » او « الفكر » او « الاستعداد » ؟ وهل يوضح هـذا المفهوم شيئا حول المعنى ، اكثر مما توضحه هـذه المفاهيم ؟ ربما لو استبدلنا كلمة « صورة » بكلمة « استجابة » لوقفنا على معظم وجهات النظر المتعلقة بمشكلة المعنى في علم النفس التجريبي .

يرى بعض السلوكيين « سكنر ، ستاتس ، مورر » انه يمكن اشراط معنى الكلمة بالاسلوب الكلاسيكي ذاته الذي تشرط فيـه الاستجابات الاخرى ، وبذلك يغدو معنى الكلمة « استجابة شرطية » . وطبقا لهـذا المعنى ، يغـدو الرمز او الكلمة ، مثيرا قادرا على استجرار العديد من الاستجابات الحسية المختلفة ، بحيث يغدو الفرد قادرا على رؤية او سماع مثيرات لم تكن موجودة اصـلا اثناء عمليـة الاشراط الاصلي ،

فالجرس « وهو مثير شرطي » المؤذن بتناول الطعام ؛ لا يسهل سيلان اللعاب « الاستجابة الشرطية » فقط ، بل يرتبط « بصورة » الطعام ورائحته وفوائده .. الخ . بيد ان هذا التفسير يعود بنا من جديد الى فكرة نظرية « الصورة » التي قال بها « لوك » .

ويرى « بروان » ان هذه النظرية تواجه العديد من المشكلات الهامة والملحة والتي يصعب تفسيرها في ضوء هذه النظرية ومنها :

١ ـ تشير الكلمات الى فئات واصناف ، وليس الى اشياء محددة خاصة ، فكيف تكون « صورة » الفئة او الصنف ؟

٢ ـ يفيد العديد من الناس أن بعض الكلمات التي يستخدمونها لا تملك « صورا » عقلية ، أو انهم لا يعرفون « صورا » عقلية تمثلها .

٣ ـ عندما يفيد بعض الافراد بامتلاكهم لصور عقلية كمعان للكلمات ، فان هذه الصور لا تنطوي على كافة المعلومات اللازمة لتحديد معنى الكلمة .

ان تفسير المعنى من خلال « الاستجابة الشرطية » يؤدي وعلى نحو منطقي الى فكرة « الاشباع المعنوي » Semantic Satiation ، وهي الفكرة التي تفيد بان تكرار حدوث المثير ـ اي الكلمة التي تستجر المعنى ـ يفقده الاثر الاستجابي الذي كان يستجره ، اي أن الكلمة كمثير ، قد تفقد معناها لدى تكرارها مرات كثيرة . وتشير « امستر » في نطاق ردها على هذه الحجة الى ان وجود المثير وتكراره في غياب اي سياق ، ما عدا المثير ذاته ، يؤدي الى تحول تدريجي في « مستوى تكيف » المثير ، بحيث يغدو هذا المستوى ، مساويا لقيمة المثير ذاته ، وذلك نتيجة لتكراره او عرضه بشكل مستمر دون وجود اي سياق آخر .

الا ان الكلمة « اي المثير دون سياق حسب تعبير امستر » لا تملك معنى على الاطلاق في حال انعزالها عن السياق ، والمعنى لا يوجد الا بوجود

السياق ، ويرتبط بالكلمة من خلال هذا السياق فقط وحتى لو قبلنا بالفكرة الساذجة القائلة بان المعنى محدد بمدلوله ، وان العملية الدلالية ، حدث داخلي تستثيره كلمة ما ، فلن تنجح في ايجاد حل مرض لمشكلة المعنى ، لان المعنى لا يمكن ان يكون مجرد استجابة للاشياء او المثيرات المختلفة ، وذلك للاسباب التالية :

١ ــ ان الكثير من الكلمات المستخدمة في اللغة لا تشير الى أشياء ولا تدل عليها .

٢ ــ ان الكثير من الكلمات تحمل اكثر من معنى وتشير الى أكثر من مدلول وتختلف مدلولات الكلمة الواحدة بحسب السياقات اللغوية وغير اللغوية المرافقة لها ، الامر الذي يعني ان معنى الكلمة ينجم عن السياق ، والعملية ليست عملية ربط استجابة واحدة بمصطلح فريد . ومن الواضح انه كلما ازداد استخدام كلمة ما ، في اية لغة من اللغات ، ازدادت معاني هذه الكلمة ، وكان الناس ينزعون الى استخدام كلمات قليلة تحمل معان كثيرة .

٣ ــ ان الخبرة لا تمكننا من فهم طبيعة الاشياء على نحو مباشر ، ولكن يجب تعلم هذه الطبيعة ذاتها ، الامر الذي قد يعني ، ان اللغة ذاتها ، هي التي تمكن الطفل من القدرة على تصنيف العالم الذي يعيش فيه . أي ان اللغة هي التي تساعدنا على فهم الاشياء ، وليس العكس . وهذا يعني ان نظام اللغة المعنوي يشكل الحدود المشتركة بين اللغة والتفكير ، فما العلاقة بينهما ؟

اللغة والتفكير :

لم يكن وجود الفكر دون لغة امرا غير معقول بالنسبة للعديد من الناس ، فكم من فنان يدعي عدم قدرته على التعبير عن نفسه من خلال وسط لغوي محض ، وكم من محب يدعي امام محبوبته بان اللغة عاجزة

عن التعبير عن مشاعره ، وكم من كاتب ، صناعته الكتابة ، يشكو من عدم قدرة الكلمات على حمل المعاني القائمة في فكرة .

قد تبدو فكرة الفصل بين اللغة والفكر واقعية ومقبولة ، بيد ان النظرية السائدة في ميدان علم النفس خلال السنوات الخمسين الاخيرة تشير الى الاتجاه المعاكس تماما ، اي الى النظرية القائلة بان وجود الفكر يتوقف على وجود اللغة وغير ممكن بدونها . فكيف تم الوصول الى مثل هذا الافتراض ؟ ولماذا التزم بها العديد من علماء النفس رغم تناقضها مع الحدس الطبيعي ؟ وهل يشكل الفكر واللغة كينونتين منفصلتين ومستقلتين عن بعضهما مثلا ؟

حاول « وليم جيمس » البرهنة على انفصال اللغة عن الفكر ، وان لكل منها لينيونة مستقلة ، حيث يرى ان التفكير ينزع بطبيعته الى استخدام نوع من « المواد العقلية » تسهل عليه تحقيق الهدف المطلوب ويؤكد على ان الكلمات سواء كانت منطوقة ام غير منطوقة ، هي افضل العناصر الفكرية التي تشكل عادة المواد المستخدمة اثناء التفكير . وقد ايد جيمس وجهة نظره هذه من خلال ملاحظة الصم والبكم حيث تبين له ان في استطاعة هؤلاء بناء صور حية وبصرية عن طريق الحركات ، في نظام تفكيري فعال ومعقول ، وشبيه الى حد كبير بالنظام الذي يكونه الافراد الذين يستخدمون الكلمات .

الا ان موقفا مناقضا على نحو صريح لموقف جيمس ، جاء على لسان « واطسن » مؤسس السلوكية الاميركية ، عندما ادعى بأن « العمليات الفكرية ليست اكثر من عادات حركية لعضلات الحنجرة » كانت السلوكية المبكرة في اميركا تخشى افتراض وجود اية متوسطات تتدخل بين المثير والاستجابة ، لاعتقادها بان ذلك يبعدها عن المنهج العلمي الدقيق . وادعاء واطسن بان الفكر ليس اكثر من كلام « ضمني » ، يعكس هذه النزعة بوضوح .

لم يميز واطسن بين الكلام واللغة ، فساوى بينهما ، واعتبر اللغة هي الكلام سواء كان منطوقا ام غير منطوق ، والكلام غير المنطوق ــ اي الكلام الذي يحدث به المرء نفسه ــ هو التفكير ، بينما يشير الكلام عادة الى شيء « مادي » وعملية فيزيائية ناجمة عن انتاج مجموعة من الاصوات ، في الوقت الذي تشير فيه اللغة الى شيء او حقيقة « غير مادية » فاللغة نظام من المعاني والبنى اللغوية تختلف عن الاصوات التي تشكل الكلام . لذلك يمكن القول بأن واطسن لم يبحث في مشكلة العلاقة بين اللغة والتفكير اطلاقا ، لانه لم يفرق اصلا بين اللغة والكلام .

واجهت نظرية واطسن انتقادات شديدة ومتعددة ، وكان اكثر هذه الانتقادات قوة ، هو الانتقاد الموجه الى الفكرة القائلة بأن « الانسان المحروم من الجهاز العضلي الكلامي سيفقد القدرة على التفكير » فقد قدم « كوبلر » دليلا مضادا دحض فيه هذه الفكرة وبين مدى اغراقها في الخطأ ، وذلك من خلال بيان اثر عقار « الكورار » ــ وهو مادة سامة تستخدم طبيا للاسترخاء العضلي ــ في التفكير ، حيث تطوع شخص يدعى سميث لان يكون موضوع هذه التجربة ، فزرق وريديا بهذا العقار واصيب بشلل تام ، واستخدم الاكسجين وعملية التنفس الاصطناعي للابقاء على حياته . وشلت بذلك اجهزته العضلية الخاصة بالكلام وغدا غير قادر على القيام بأية اشارة او استجابة صوتية . وقد افاد سميث بعد استرداده لحركاته الطبيعية ، بانه كان مدركا لكل ما كان يجري حوله اثناء التجربة ، واستعاد وبشكل فائق كافة الحوادث التي جرت خلال فترة الشلل العضلي الكلي الذي اصابه ، كما بين ان التخطيط الكهربائي للمخ كان سويا اثناء التجربة .

تدحض هذه التجربة على نحو لا يقبل الجدل ، فكرة المساواة الساذجة بين اللغة والكلام ، اذ ان ادعاء واطسن يقوم اساسا على « تأملات » فكرية ، حيث لم تكن ادوات القياس واجهزته متوافرة في تلك الايام ، الامر الذي حال دون قياس الحركات العضلية للحنجرة

اثناء عملية التفكير . وقد تمكن الباحثون فيما بعد من تسجيل هذه الحركات ، ولكن ما اذا كانت هذه « الحركات » تشكل « فكراً » ام لا ، ام انها مجرد حركات ضرورية للتفكير ، وهو امر اخر . فقد برهنت البحوث على عدم ضرورتها لحدوث العمليات الفكرية ، حيث تبين من دراسات « لينبرغ » ان الطفل غير قادر على الكلام بسبب تلف فطري يصيب الاجهزة الصوتية لديه ، اي الطفل المصاب باعتقال اللسان ـ يستطيع استيعاب اللغة والمفاهيم ، كما بين « فورث » قدرة الاصم على التفكير .

تشير هذه الملاحظات على عدم دقة وجهة النظر السلوكية ، الامر الذي ادى بالباحثين الى البحث عن وجهات نظر اقل تطرفا بحيث تغدو اكثر قبولا . وتساءل هؤلاء عما اذا كان في قدرة الفرد التفكير التقليدي دون استخدام وسيط لغوي ؛ اي هل يستطيع الفرد القيام بعملية التفكير دون استخدام اللغة ؟

تقف السيكولوجيا السوفيتية موقفا اقل تطرفا من موقف السلوكية الاميركية ، حيث ترى ان اللغة والتفكير مرتبطان على نحو وثيق ، وبخاصة اثناء مرحلة الطفولة ، ويشير ايفان ستشينوف ، وهو عالم فيزيولوجي شهير واستاذ بافلوف الى ان الطفل يتكلم اثناء قيامه بالتفكير ، وان اللغة تتوسط العمليات التفكيرية عبر الكلمات او الهمس ، وعبر حركات اللسان والشفاه ، وهو أمر سائد ومتواتر لدى الاطفال والراشدين على حد سواء ، والاختلاف القائم بينهم هو اختلاف من حيث الدرجة ، وليس من حيث النوع ، اي ان الاطفال اكثر استخداما لمثل هذه المتوسطات من الراشدين .

وتطور هذا الموقف على نحو هام ، على يد عالم النفس السوفيتي الشهير فيجوتسكي ، حيث طور في كتابه « اللغة والتفكير » الفكرة القائلة بوجود « توترات » الكلام غير اللفظي ، كالتفكير الاداتي المتضمن في حل المشكلات الوسيلية ، و « توترات » الكلام غير الفكري المتضمن في

الصرخات الانفعالية ، والناجمة عن تطور النوع والفرد . وحـاول فيجوتسـكي تتبع مراحل النمو التفاعلي لهذين النوعين من التوترات للوقوف على المرحلة التي تقوم فيها اللغة بخدمة الفكر عند الانسـان ، حيث يتجلى هذا الفكر من خلال الكلام واللغة .

يرى فيجوتسكي ان التفكير لا يترافق على نحو متزامن مع الكلام ، وان عملية التفكير وعملية انتاج الكلام غير متماثلتين ، حيث لا يوجد تطابق دقيق بين وحدات الفكر ووحدات الكلام ، ويتضح ذلك على نحو جلي لـدى اخفـاق العمليات الفكرية ، عندما تعجز الافكار عـن « الدخول » في الكلمات ، ان للفكر بنيته الخاصة ، والانتقال من هـذه البنية ، الى الكلام ، ليس امرا سهلا . فالفكر ليس مجرد نوع مـن التعبير الكلامي أو اللغوي ، بل يستخدم الكلام للتعبير عن وجـوده ، والكلام « الداخلي » ليس تفكيرا كما يدعي واطسـن ، بل هو نوع خاص من الكلام ، يقع بين التفكير والكلام « الخارجي » المسموع . ان التفكير ليس كلاما ، فالكلام يتكون من وحدات جزئية منفصلة ، بينما يتكون التفكير من « افكار متصلة كلية » .

وظهرت خلال العقدين الثالث والرابع من هذا القرن وجهة نظر مختلفة ، تم التعبير عنهـا بشكل رئيسي مـن خلال اعمـال كـل مـن ادوار سابير وبنيامين لي وورف وعرفت وجهة النظر هذه بفرضية سابير — وورف . اكدت هذه الفرضية على خطا الفكرة الشائعة التي تفيد بان الكائنات البشرية كافة ، تمتلك بنية منطقية واحدة وتفكيرا متشابها ، وادعت بان الافراد غير قادرين على ادراك العالم بالطريقة ذاتها ، لانهم مقيدون بانماط معينة من الفهم والادراك ، تفرضها عليهم اللغات التي يتحدثون بها ويعود اختلافهم من حيث التفكـير ، الى اختلافهم من حيث اللغات التي يستخدمونها ، وان قواعد اللغة التي يتكلمها الفرد ، تؤدي به الى انماط مختلفة من الادراك والفهم ، والى انماط مختلفة من الاحكام على الخبرات الخارجية . ويقول « وورف »

في هذا الصدد ، باننا نصف ونصنف جريان الحوادث واتساعها بالطريقة التي تقوم بها ، بسبب لغتنا الام ، وليس بسبب طبيعة هذه الحوادث أو بسبب الطبيعة ذاتها ، ويرى أن اللغات لاتختلف في طريقة بناء جملها فقط ، تختلف ايضا من حيث تقسيمها للطبيعة وتصنيفها لها ، وذلك لتأمين العناصر التي تتكون منها تلك الجمل .

ووضع وورف فرضيته هذه لدى دراسته للغة الهوبي الهندية ، حيث وجد استحالة في ترجمة بعض عبارات هذه اللغة الى اللغة الانكليزية ، وفي حال القيام بمثل هذه الترجمة ، كان من الواجب استخدام جمل او اشباه جمل طويلة للتعبير عن كلمة واحدة . ويورد مفهوم الزمن للبرهان على وجهة نظره ، حيث يدعي ان اللغات الاوروبية تعالج مفهوم الزمن وكانه كينونة موضوعية مؤلف على نحو افتراضي من شريط متصل ، ومقسم الى اجزاء متساوية التمكن من استخدام مفاهيم الماضي والحاضر والمستقبل ، بينما لا تستخدم لغة الهوبي الهندية في شمال امريكا مفهوم الزمن في افعالها ، اذ لا تمتلك هذه اللغة كلمات او اشكالا « نحوية » معينة او تركيبات او تعبيرات مباشرة لما تدعوه اللغات الاوروبية « زمن » الفعل ، الامر الذي يؤدي الى اختلاف الناطق باللغة الهوبية عن الناطق باللغات الاوروبية من حيث تصور مفهوم « الزمن » او « الديمومة » فقد يضطرب الناطق باللغة الهوبية ازاء مفهوم كمفهوم « التزامن » بينما يضطرب الناطق باللغة الاوروبية امام مفهوم كمفهوم « النسبية » ، اي نسبة الاحداث الى بعضها للدلالة على زمن وقوعها . وهكذا يستنتج وورف ان الافراد الناطقين بلغات مختلفة، يدركون العالم ويفهمونه بطرق مختلفة ، وان الاختلاف من حيث اساليب وطرق فهم العالم وادراكه يعود الى اللغة ذاتها ، اي ان اللغة تقوم بتحديد التفكير ، وهذا ما يدعى « بالشكل القوي » لفرضية وورف .

تناول روجر براون هذه المشكلة ـ مشكلة العلاقة بين اللغة والتفكير واتخذ موقفا اقل تطرفا من موقف وورف ، حيث يرى ان اللغات تختلف

فيما بينها في قدرتها على « ترميز » مفاهيم معينة ، وان قدرة اللغة على ترميز مفهوم معين ، يؤثر في « توافرية » هذا المفهوم للناطقين بها ، لذا تبنى براون وجهة النظر القائلة ، بان اللغات لا تحدد التفكير ، بل تجعل الناس مستعدين على نحو قبلي للتفكير بطرق معينة . وهذا ما يدعى « بالشكل الضعيف » لفرضية وورف هذا وقام عدد من الباحثين امثال « براون ولينبرغ وروبرت ، » بدراسات تجريبية للتحقق من صدق فرضية وورف في شكلها الضعيف ، تناولت هذه الدراسات عملية تذكر الالوان لدى الناطقين بلغات مختلفة ، وبينت نتائج هذه الدراسات انه كلما كانت اللغة اكثر قدرة على الترميز ، كان الناطق بها اكثر قدرة على تذكر الالوان ، فيما لو قيست هذه القدرة بسرعة التذكر وصحته . كما تبين ايضا ان الافراد الناطقين بلغات تستخدم مصطلحا او مفهوما واحدا للدلالة على عدد من الالوان ، كالبرتقالي والاصفر مثلا ، يواجهون صعوبات لدى تمييز هذه الالوان من بعضها ، وهي صعوبات قلما يواجهها الناطق بلغة تميز بين هذه الالوان ، وتشير نتائج هذه الدراسات عموما الى ان قدرة اللغة على الترميز تؤثر في عمليات التذكر لدى الناطقين بهذه اللغـة

وعلى ضوء فرضية وورف ، بشكليها القوي والضعيف ، ومـا اثارته من بحوث ، اتجه الباحثون الى الاهتمام بمعرفة ما اذا كانت بعض القدرات العقلية المعينة تتوقف في نموها على اللغة فعلاً ام لا . فقد قام الباحثان السوفيتيان لوريا ويورمنتيش عام ١٩٥٦م بفصل توامين حقيقيين ـ ناجمين عن انشطار بويضة ملقحة واحدة ـ اتصفا بالتخلف العقلي واللغوي ، واجبراهما على التواصل مع الاخرين ، لبيان اثر هذا التواصل في قدرتهما العقلية . وقد اسفر البحث عن وجود بعض التحسن في قدراتهما العقلية ، نتيجة التحسن الذي طرأ على لغتهما . بيد ان العلاقة السببية الحاسمة بين اللغة والتفكير ما زالت موضع تساؤل حسب ادعاء الباحثين

وتناول « برنشتاين » مشكلة العلاقة بين اللغة والتفكير من زاوية اجتماعية ، بيان اثر اللغة في التفكير ، بحيث ادعى ان الاطفال المنتمين الى الطبقة العمالية هم اقل قدرة من اطفال الطبقة المتوسطة ، من حيث تطوير بعض القدرات العقلية . ويرى برنيتشاين ان ذلك يعود الى النظم والاشكال اللغوية التي يستخدمها كل من اطفال هاتين الطبقتين ، ففي الحين الذي يمتلك فيه اطفال الطبقة العمالية نظاما لغويا ترميزيا « محددا » يعوق قدراتهم العقلية ويمنعها من الوصول الى حدها الاقصى يمتلك اطفال الطبقة المتوسطة نظاما لغويا ترميزيا « مطورا » يتيح لهم امكانية النمو العقلي ، ويجعلهم اكثر قـدرة من الوجهتـين العقلية والتحصيلية ، اي ان شكلي اللغة ، المطور والمحدد ، يقومان بوظائف عقلية مختلفة بالنسبة لمن يستخدمها ، ويؤثران في الانماط الفكرية للناطقين بهما .

تواجه وجهة النظر هذه عددا من الصعوبات ، فلو كان النظام او الشكل اللغوي الذي يستخدمه الطفل يؤثر في قدراته العقلية ، لوجب ان يتفوق اطفال الطبقة العمالية على اطفال الطبقة المتوسطة من حيث بعض النشاطات او القدرات العقلية ، وبخاصة في حال قياس القدرات ذاتها لدى مجموعات من الاطفال تنتمي الى خلفيات اقتصادية ـ اجتماعية مختلفة . الا ان تفوق اطفال الطبقة المتوسطة على اطفال الطبقة العمالية يشير في جزء كبير منه الى تحيز الاختبارات المستخدمة في قياس هذه القدرات ، والتي تحابي ثقافة الطفل المنحدر من الطبقة المتوسطة . فلو ثبت مثلا ان اطفال الطبقة العمالية يتفوقون على اطفال الطبقة المتوسطة في بعض المهام او النشاطات او القدرات العقلية ، لصدقت فرضية وورف وصدق بالتالي ادعاء برنشتاين بان النظام اللغوي يؤثر في قدرة صاحبه على التفكير .

وفي الحين الذي يبين فيه برنشتاين اهمية العلاقة بين اللغـة والتفكير ، فان الاتجاه السببي لهذه العلاقة بـين هذين المتغيرين مازال

غير محدد وغير معروف . ويرى « هوستون » انــه اذا فسرنا وجهــة نظر برنشتاين بالقول بأن قدرات لغوية معينة تسهل او تيسر اشــكالا معينة من التفكير ، فسنواجه مشكلة ماذا كانت القدرات العقلية للفرد مزودة بالقدرة الضرورية للتمكن من هذه الاشكال اللغوية أم لا ، وهذا يثير مشكلة العوامل المسؤولة عن اكتساب اللغة ، وما اذا كانت هذه العوامل بيئية ام فطرية .

اتجه الباحثون من حيث تفسيراتهم لعملية اكتســـاب اللغة ، اتجاهين متعارضين ، الاتجاه البيئي ، ويقوم على التقليد الســلوكي المتأثر بالفلسفة الحسية « هوبز ، لوك ، هيوم » التي ترى اكتســاب المعرفة ـ ومنها اللغة ـ يأتي عن طريق « الخبرة » التي تعتبر المصدر الوحيد للمعرفة . ولذلك اكد البيئيون على دور العوامل الاجتماعيــة والبيئية التي ترافق عملية اكتساب اللغة . وقد اتضح هذا الاتجاه على نحو جلي من خلال اعمال « سكنر » و « مورر » المتعلقة بوجهة نظرهما في التعلم والمبادىء الشارحة له كالتكرار والتقليد والتعزيز والمحو والتعميم والتمييز . وفي ضوء هذه النظرية يكتسب الطفل اللغة بوساطة التقليد والتعزيز ، فهو يلاحظ ويســمع الانماط الكلامية المختلفة للناس المحيطين به فيقلدها ، في حين يقوم الناس المحيطون به ، كالاب والام والاخرين من الاطفال الراشدين بتعزيز كلام الطفل القريب مــن الانماط الكلامية السائدة في بيئته .

اما الاتجاه الثاني في تفسير عملية اكتساب اللغة ، فهو الاتجــاه الفطري ، الذي تبناه « تشومسكي » و « لينبرغ » حيث يؤكد هؤلاء على وجود بنى فطرية مسؤولة على نحو اولي عن عملية اكتساب اللغــة عند الطفل ، وينسبان دوراً ثانويا للتعزيز في هذه العملية .

يفترض تشومسكي وجود « جهاز فطري » لدى الطفل ، ينشط في مرحلة معينة من مراحل نموه ، فيمكنه من اكتساب اللغة ، اذ يقوم هذا « الجهاز الافتراضي بتصنيف ومعالجة المعطيات اللغوية الخام التي سمعها

الطفل ، ويولد مجموعة من القواعد اللغوية الاكثر اتساقا وثباتا من تلك المعطيات الاولية . ويعتقد تشومسكي في ضرورة وجود بعض الاليات الطبيعية « كالجهاز » الافتراضي لاكتساب اللغة « لتفسير بعض الظواهر اللغوية ـ العمليات اللغوية ـ التي تتبدى عند معظم الاطفال ، بغض النظر عن طبيعة لغاتهم الام ، الامر الذي لا يمكن تفسيره بالاقتصار على مبادىء سكنر فقط . فجميع الاطفال تقريبا يبداون تعلم اللغة في العمر ذاته ويمتلكون انتظاما لغويا معينا ، يختلف عن المعطيات اللغوية الاولية المتوافرة في بيئة الطفل . ولقد تبين وجود مثل هذا الانتظام عند الاطفال الصم الذين يستخدمون لغة الاشارة .

يلقى اتجاه الفطريين القائل ببعض الخصائص التنظيمية الفطرية مزيدا من القبول لدى الباحثين المعاصرين ، بيد ان الخلاف بين الفطريين والبيئين سوف يستمر ، طالما كان لكل فريق حججه التي تدعم موقفه ووجهة نظره . فالبيئيون لا يستطيعون تفسير قدرة الطفل على توليد جمل وانشاء جمل لم يسمعوها من قبل مطلقا ، فيما لو اقتصروا على عمليتي التقليد والتعزيز ، كما ان الفطريين لا يستطيعون تفسير قدرة الطفل على اكتساب المعطيات اللغوية الاولية دون اللجوء الى التقليد والتعزيز . ويرى « ماكتيل » ان العوامل البيئية والوراثية مسؤولة معا عن اكتساب اللغة ، طالما لم تتوافر حتى الان البراهين الحاسمة التي تحدد هذه المسؤولية على نحو دقيق .

* * *

السلوك المنقسم وانحرافاته

صقر خوري

المعادلة ، مازالت هي هي ، منذ اقدم الازمنة . فكر ، وشيء يتفاعلان فيحدث الفعل ..

البعض يقول : الفكر يفعل .. والشيء ينفعل فتقوم فلسفة ..

والبعض يقول : العكس .. فتقوم فلسفة .

والبعض يقول : كلاهما يفعل وينفعل .. فتقوم فلسفة ثالثة ..

في الفلسفات الثلاث .. حدث الفعل .. وهذا هو المهم ان ينضاف فعل الى فعل لينتج السلوك .. وان ينضاف سلوك الى سلوك ، لتنتج المبادىء ، التي تصير ، عبر تسلسلها فلسفة رابعة ، او فلسفة جديدة ، تكرس السلوك في حد ذاته ، باعتباره الشكل لا الارضية .

وفقا لهذه الاسس ، نحن لم نطرح في هذا المقال فلسفة مباشرة .. او افكارا مقطوعة عن نموذجاتها السلوكية .. لاعتقادنا ان الفكر في سلوك ، اكثر نفعا ، واقرب مثالا ، ولان طموحاتنا في الاصل قاصرة عن اقامة الفلسفات والمذاهب ..

لم نسبق غيرنا ، لنقول قبله ، ما يمكن ان يقوله بعدنا . وانما سبقنا الى توضيح ما نعتبره افكارنا الخاصة حول ما كتبنا ..

ما نرجوه ان تقرا .. اما ان نفيد فهذا طموح الطموح ..

اذا اردنا ان نخرج دفعة واحدة ، على المعتقدات المثالية والميتافيزيقية ، وجب علينا ، ان نربط ربطا حتما ، مابين الفكر الانساني، والسلوك الانساني :

الفكر هو الذي يتجلى بسلوك ، وهو لهذا فكر عملي .. والسلوك ، هو الذي يعبر عن فكر ، وهو لهذا سلوك عاقل .. الفكر السليم والصحيح والواقعي ، ليس هو الفكر المعصوم ، انه الفكر الذي يسهل قلبه الى سلوك . فهو حي لانه في الحياة . والسلوك الملائم ، هو السلوك الذي يعبر عن فكر ، وله نواظم فكرية . وبمجرد افتقاره الى هذا الشرط اصبح سلوكا غير سوي ، بمعنى من المعاني . فاما ان ينساق بتيار العاطفة او الغريزة ، او العادات والتقاليد السائدة ، صحيحة كانت ام باطلة ..

اذن ، السلوك صحيح ، بقدر ماهو مستند بالضوابط العقلية ، فاما ان يكون صحيحا تماما ، ام خاطئا بالكلية ، ام في احدى المحطات التي تتوسط هذين الحدين .

ولكن السلوك المنقسم ما هو ؟ : انه ليس احد هذه الاضرب ، كما انه ان صح التعبير : خليط تتعايش فيه كل انماط السلوك وهي متنافرة : مع الجماعة هو سلوك ، وفي البيت هو سلوك آخر . في الوظيفة له طابع ، وفي الشارع له طابع مناقض . وهو مع الجماعة وفي البيت والوظيفة والشارع ، لا يعتمد قناعات ذاتية ، انه يكتفي بان يمثل كل الادوار ، كي يتلاءم مع كل القناعات ويعيش .. وهذا لا يعتبر شرا للوهلة الاولى ، ولكنه ليس هدفا ثمينا للحياة ، في الوقت ذاته .. يمكنك ان تطابق بين ما تريد وما يريده الآخرون ، ولكن ضمن حدود اقلها ، ان تظل والآخرين، في مجال الصح . اما ان تفعل أو لا تفعل ، أو تفعل هنا ، ما يمتنع عليك فعله هناك ، مع علمك شبه الاكيد ، بان ما لم تفعله اكثر صوابا من الذي فعلته ، فهذا ان عبر ، فانما يعبر عن شخصية ، اقل ما يقال فيها انها غير متوازنة ولا متماسكة ، والا لتحرجت ان تسلك سلوكين متضادين ، في هذا الآن وفي الآن الآخر .. ولكن هذه الشخصية التي نتحدث عنها ، ان

كانت متوازنة أم لا ، وان سلكت سلوكا ام سلوكين ، اليست هي المعبرة عن فكرنا ووجداننا .. او قل ، اليست هي فكرنا ووجداننا ..؟؟ وفكرنا ووجداننا ، بما فيهما من عوامل ذاتية ، اليسا صنيعة المجتمع بالدرجة الاولى .واذا كان الامر كذلك ، فالشخصية غير المتوازنة ، تصدر عن مجتمع غير متوازن ، تتداخل فيه ـ دون انسجام ـ مراحل التخلف والتحضر . فهو لا يعبر عن حضارة ، وانما تندرج ضمنه حضارات ،ليست متكافئة ولا متكاملة ، لا كما ولا كيفا ، ومعطياته : عاداته وتقاليده واوامره ونواهيه ، يسودها نفس الاختلاط والتنافر واللانمطية ..

ولكن هل هذه هي الاسباب الكاملة والوحيدة لتشقق الشخصية ، وانقسام السلوكات الصادرة عنها .. ام ان اسبابا ذات بال واهمية علينا ان نتناولها بالبحث والتمحيص ، علها تقودنا الى ما يشفي الغليل :

الاسباب المفترضة لانقسام السلوك

المفروض ان يتميز سلوك الانسان ، بعلامات دالة ، مادام هذا الانسان يملك مقومات الشخصية الواحدة . صحيح ان سلوكه الناتج عن محاكمة عقلية ، يختلف عن سلوكه الناتج عن نزوة عاطفية ، ولكن حين يسلك هذا السلوك في موقف ويسلك السلوك المناقض ، في الوقت نفسه ، او في كل ظروفه الخاصة ، ويختلف عنه في احد ظروفه الخارجية ، في هذه الحالة، يمكن ان نقول ، ان شخصية هذا الانسان منشطرة . شطر يتمثل في هذا السلوك او في جانب منه ، وشطر يتمثل في السلوك الآخر ، او في احد جوانبه .

ولكننا قلنا ان الظرف المتغير لم يكن ذاتيا . فهل هذا يعني أن انقسام السلوك ، سببه في كل مرة الظروف الخارجية ، وان العوامل الذاتية ليس لها اي دور في هذا الانقسام .. ؟ وبكلام آخر ، هل نستطيع ان نفرز العوامل الخارجية عن العوامل الذاتية ، ام العكس ، لنرد الى كل منها اثرها ودورها .. ؟؟

الواقع اننا لا نستطيع ان نتحدث عن داخلية الانسان بمعزل عن خارجيته ، ولا العكس. وان انقسم سلوكه ، فلاسباب او عوامل، او ما نرغب ان نسميها القوى الضاغطة ، التي تفرض عليه هذا السلوك دون السلوك الآخر ، بغض النظر عن رغباته او قناعاته ، والتي قد تكون ذاتية ، وقد تكون خارجية . .

اولا ـ **العوامل الذاتية :**

اذا اخضعنا مجموعة من الاشخاص ، لمؤثر واحد ، وفي ظروف متساوية . فان استجابة كل منهم ستكون مغايرة لاستجابة الآخر ، ربما تشابهت او تقاربت ، ولكنها لن تكون واحدة في كل الاحوال . كما قد لا تكون واحدة ، استجابة شخص واحد ، لمؤثر واحد ، في ظرفين مختلفين . . فما معنى هذا الكلام . ؟ هل معناه ، اننا بدأنا نناقض مقدماتنا ، حيث قلنا ان الفكر وراء كل سلوك ، وهذا ما يجب ان يبعد كل سلوك عن التشتت والتنافر . ام معناه انه يطلب منا مباشرة ان نضيف حقيقة هي: ان الفكر حين ينقلب الى سلوك ، تضاف اليه ، او تندمج فيه فورا ، جملة عناصر ، لها هي الاخرى ، دورها الهام ، في تحديد المبادىء والاتجاهات السلوكية . . اذ ان اغنى انماط السلوك واكثرها حرارة ، هي الانماط التي تكمن خلفها عاطفة جياشة ، او تؤكد دافعا من الدوافع، وتلبي حاجة من الحاجات الطبيعية الفيزيولوجية . ولان الامر كذلك وهو كذلك بالتأكيد ، فان اي عائق يحول دون مباشرة هذه السلوكات بشكلها الصحيح والطبيعي ، او اية محاولة لالباسها صيغا او مفهومات مغايرة ، ستؤدي ، عبر تكرارها ، الى انحرافات تكوينية وبنائية ، تصدر عنها انماط سلوكية تعبر عنها تمام التعبير ، في انشطاراتها وعدم توازنها. وبما ان هذه العوائق سائدة بشكل يلفت النظر ، ومحاولات تكريسها ابين من محاولات التخلص منها ، فستظل الممارسات السلوكية غير المتوازنة قائمة ، ستظل قائمة بين فرد وفرد ، من نفس المجتمع ، وستظل قائمة ايضا بين الانماط المتواترة لسلوك الفرد نفسه ، خاصة اذا فرضنا ، في

حالات عدم التوازن هذه ، ان العقل سيكف عن كونه الموجه الرئيسي للسلوك ، وستقفز العناصر التالية ، لتهيمن على زمام الامور ، وتسوقها في اي اتجاه تشاء . ولكن هل هذه النتائج التي قادنا اليها هذا التحليل . صحيحة وموضوعية ، اذ انه لا وجود لسلوك يخلو من اي من العناصر التي افترضنا ان وجودها يحيده عن مرماه الاصلي ، او حتى عن كونه سلوكا نافعا . فهل وقعنا مرة ثانية في التناقض ، حين فرضنا ان تلك العوامل ، من الاسباب الرئيسية لتشتت السلوك ، او انه يطلب منا لكي نضع النقاط على الحروف ، ان نتذكر ، انه اذا كان وجود هذه العناصر . ضرورة لكي يصبح لكل سلوك معنى ، فان هذا المعنى سيضطرب ويختل. كلما استولت هذه العناصر على حجم اكبر من حجمها ام اقل ، وكلما انحرفت عن مواقعها الاصلية ، فنحن ولا شك ، نحصل على سلوك مقسم او منحرف ، في كل مرة تقفز فيه الغريزة فوق العاطفة ، او العاطفة فوق العقل ، او في كل مرة يبتلع فيه احد هذه العناصر العنصر الآخر ، ام يطغى عليه ..

كنتيجة مقترحة لهذه الفقرة يمكن ان نقول : ان العوامل اياها ، التي اسميناها ذاتية او داخلية ، ليست سببا لانقسام السلوك او انحرافه ، في حد ذاتها ، ولا حينما تتحجم بحجمها الطبيعي . هذا من جهة ، اما من الجهة الاخرى ، فان الفرد كفرد ، ليس مسؤولا عن صنع داخليته ، لان المجتمع هو الذي يغزل جلّ خيوطها . وعليه وعلى طقوسه التربوية تقع المسؤولية ، حين ينشأ افراده على غير الشكل الذي يجب ان يكونوا عليه . واعتمادا على هذه النتيجة ، فقد اولينا الاهتمام الاكبر للعوامل الخارجية ، التي نعتقد ان لها الدور الاساسي في انقسام السلوك ..

ثانيا ـ العوامل الخارجية :

الحقيقة ان فصل الاسباب والعوامل الى خارجية وداخلية ، فصل مدرسي ، ومبالغ فيه . لانه ، وكما لاحظنا منذ قليل ، لم نستطع رد العوامل الذاتية الى ذاتها او الينا ، وانما اعتبرنا المجتمع صانعها الاول .

والقول نفسه يمكن ان يقال ، بالنسبة الى العوامل الخارجية ، التي هي من صنعنا كافراد ، قبل ان تصير مجتمعية ، والتي يستمر أثر الافراد فيها ، تعديلا وتطويرا ، مادامت في الاستخدام ، وهذا ما سنلاحظه مباشرة ، خلال عرض هذه المواقف :

١ ـ المعتقدات والمفاهيم السائدة :

وهذه ، كما هو معلوم ، يقف منها الانسان العادي موقف المستسلم ، لان الاخذ بها ـ بنظره ـ يمثل الصواب كله ، والقفز فوقها يمثل الخطأ كله . ولانها ليست كذلك في حد ذاتها ، ولان صاحب السلوك المنقسم يعرف هذه الحقيقة ، ولكنه لا يستطيع ان يجاهر بها ، لانه ليس مصلحا اجتماعيا ، ولا خارجا على القوانين .. تراه يمارس ماهو سائد علنا ، ويمارس قناعاته كلما سنحت الفرصة . وتتسع الفجوة بين السلوكين ، كلما كان التناقض حادا ، بين قناعاته ، وبين ما هو سائد . ولان ماهو سائد يمثل كل المعتقدات والعادات والتقاليد والموروثات ، على ما هي عليه من ثبات ورسوخ وسطوة ، ولان العقول روضت على قبولها ، على اساس انها صحيحة لانها سائدة ، وليس العكس . فقد اعتبرت وكانها قوى ضاغطة داخلية ، يقابلها او ينضاف اليها ، قوى ضاغطة خارجية ، لا تختلف عن سابقتها في شيء ، غير انها فرضت على العقول ، دون ان تتقبلها ، او قبل ان تألفها . واظننا نظل في الحالتين ، أمام نفس المشكلة: عجزنا عن التغيير .. وامام نفس النتيجة : سيادة ما هو سائد لانه سائد، وليس لانه صحيح ..

ومن هذه النقطة بالذات ، يبدأ انقسام السلوك ، حين تتجلى الهوة ما بين قناعاتنا ، ان كانت صحيحة أم خاطئة ، وبين ماهو سائد ، ان كان صحيحا ام خاطئا أيضا . ومع ذلك يطلب الينا ان نسلك ، ونسلك ،ولكن بعدما نتكيف مع ماهو سائد قدر الامكان ، وبعدما نكيف ما هو سائد قدر الامكان .. وعلى نجاح هذا التكيف والتكييف ، او عدم نجاحه ،

يتوقف انقسام السلوك أو وحدته : فاذا كان تكيفنا تاما ، يكون سلوكنا منسجما ، حتى ولو كان خاطئا . واذا كان تكيفنا تاما ايضا ، نصل الى النتيجة عينها .. ولان هذا ما يندر الوصول اليه ، فلابد من انقسام السلوك ، وأخذه الاشكال التي سنشير اليها في الفقرات التالية ..

٢ ـ النظام الاجتماعي :

الناتج عن المفاهيم السائدة ، فالمفاهيم ، لم تصبح مفاهيما ، الا ،لانها سادت ، وهي لا تسود ، الا اذا كرسها المجتمع في ممارساته وما يكرسه المجتمع ، يصبح نظاما ، ويصبح الخروج عليه ، مدعاة للاستهجان والرفض . لان النظام اياه ، بجزئياته ، هو المعتقدات والعادات والتقاليد ومجمل الاتجاهات الاجتماعية . وهذه كما فصلنا في الفقرة السابقةتكسب النظام الذي يعبر عنها ، صفات الثبات والشرعية ، كما يصبح معيار السلوك الصحيح او الخاطىء ، هو مراعاتها او عدم مراعاتها . وبما ان غالبية الناس لا تجد السير علانية على الرصيف المخالف ، فانها تجد نفسها مكرهة على مماشاة النظام العام،بمزيد من الدقة،في علاقاتهاالعامة . وتجد نفسها ، في الوقت نفسه ، في حل من التقيد الملزم ، في ممارستها الخاصة . انها بمعنى آخر ، تعيش ارادة الآخرين مع الآخرين ، وتعيش ارادتها مع ذاتها ..

هذا في الحقيقة ، هو الوضع الطبيعي ، ايا كان النظام السائد . لان الانسان لا يستطيع ان يكون شيئا من الكل ، ان لم يتميز بشيء عن الكل ، بشكل ،ما خاصا به ، يحقق فيه فردانيته ..

ولكن غير الطبيعي ، هو الانفصال او التنافر ، بين العالم المعلن ،وعالم التأمل . لان ماهو صحي وصحيح ، ان تتخذ داخلية الانسان وخارجيته، نفس المسار والمنحى ، وان تظل مسافة ما ، بين سبق الداخلية ،وقصور الخارجية ، بين الطموح والواقع ..

هذا ما هو صحيح وصحي ، وهذا ما يتنافى بالكلية ، من حيث المبادىء والنتائج ، مع التنافر والخصومة ، بين داخلية الانسان وضمير المجتمع من جهة ، وبين خارجية الانسان والنظام الاجتماعي السائد من جهة اخرى . . وهذا هو في نهاية المطاف ما يؤدي الى تعدد انماط السلوك وتباينها ، والامر يهون في الحقيقة ، لو كان التناقض قائما بين قناعات متوازية او متوازنة ، وبين نظام اجتماعي سائد ، اذ انه في هذه الحالة ، وعبر التفاعل المستمر ، اما ان يحتوي احد العنصرين العنصر الآخر واما ان يتلاءم معه ، وفي الحالتين تضغط الانماط السلوكية الى حدها الادنى. ولكن التناقض قائم في واقع الحال ، بين مالا يحصى من القناعات المتنافرة ، والتي تحتاج الى مزيد من الكفاح لتتقارب او لتتحد . وبين العديد من الانظمة المتعارضة ، والتي تحتاج الى مزيد من الاصلاح ، كيما تتجاور وتتآلف . .

ولنحصل على هذا الحد الادنى من التوافق بين القناعات والانظمة من جهة ، ثم بينها مجتمعة ، وبين النظام الاجتماعي الاصلح ، لابد من التوجه الى القواسم المشتركة ، التي تربط تلقائيا ، قناعات الناس ، باحتياجاتهم الآنية والمستقبلية ، ضمن نظام ، البعدية فيه غالبة على السلفية ، ونماذج السلوك المبتكرة ، اكثر رواجا وقبولا ، من الانماط الستاتيكية الراكدة . وحتى نصل الى هذا المستوى من حرية القبول والرفض ، يظل النظام السائد ، صالحا كان ام غير صالح ، عقبة اساسية، تحول دون وحدانية السلوك . .

٣ ـ الاساليب التربوية :

التي تعبر اصدق تعبير عن تلك الانظمه والمفاهيم السائده ، والتي لا تكرس انماط السلوك الموازية لها فحسب ، وانما تعمل على بناء الشخصيات غير المتماسكة ، التي تقبل ، بكل طواعية ، ان تبقى النسخة طبق الاصل عن السلف ، والتي لا تعلو تشوفاتها ، فوق المصطلحات التي

اجازها طول الاستخدام . انها بمعنى آخر ، تكرس التقليد والمحاكاة ، على حساب الابداع والابتكار ، الى الحد الذي يصبح معه القفز فوق ماهو دارج ، ضربا من التحدي لمشيئة المجتمع . ونتيجة لذلك ، تطغى المحرمات على الصيغ التربوية ، وتصبح كل الفرص جاهزة ، لنمو التناحر بين الفكر الباطن والفكر الظاهر ، ثم تجلي كل منهما في انماط من السلوك يعوزها التميز والوضوح . كل ذلك والكوادر التربوية الاساسية : الاسرة ، المدرسة ، المجتمع ، تعتبر الانصياع لطقوسها ، معيارا لانتصار اساليبها التربوية . فكلما كان الخضوع مطلقا ، كان فوزها ساحقا . مع ان الواقع يناقض ذلك مناقضة تامة ، او يكاد ان يكون . فنحن في تربيتنا ، لا نريد تابعين ولا نمطيين وسلفيين . نريد ان نربي من يصلح ويعرف ان يمارس الحياة . وهذا الهدف الذي لا يجوز ان يكون له بديل ، لا يتحقق، لا جزءا ، ولا كلا ، حينما نسيد احكاما مطلقة ، مهما كانت صحيحة تلكم الاحكام المطلقة . لاننا حين نعطي الاخرين كل شيء ، فيجب الا نتوقع منهم ان يعطونا اكثر مما اخذوا ، او غير ما اخذوا . هذه مشكلة . والمشكلة الاهم هي ، حين تظل الصورة اياها ، وهي نحن دائما ، ماثلة في مرايا الآخرين ، فهذا يعني ان هؤلاء سيشعرون بحضورنا الابدي ، وغيابهم المطلق . ويصبح هدفهم الحيوي ، على مر الايام ، ان تقلب الصورة . وحينما لا يتحقق لهم ذلك رغم الجهد المبذول ، ينكفئون على ذواتهم ويمارسون بالسر ، ما حرم عليهم ممارسته علنا . وتكون هذه نقطة البداية في تعدد السلوك وتلونه ، والتي ستتلوها ، عاجلا ام آجلا ، كل الانحرافات والتسملات والشذوذات ، التي لا تلبث ان تشكل الجانب المريع في حياة هؤلاء ، الذين غذينا لديهم فكرة الشعور بالذنب ، كلما تخطونا ، وتآلفوا مع اي جديد ..

ان طقوسا تربوية مثل هذه ، تكرس كل هذا الانغلاق ، جديرة بأن تدفع بالاجيال الى ممارسات مأساوية ، وانماط من السلوك متباينة

وخاطئة وعديمة الجدوى ، الى الحد الذي يصبح استبدالها بما يتلاءم مع احتياجات الافراد والجماعات ، تطلعا تربويا ملحا ، يستحق ان يبذل في سبيله كل جهد . .

هذه بعض القوى الضاغطة ، التي اعتقدنا ان لها علاقة مباشرة بموضوعنا ، والتي تساعد على انشطار السلوك ، وتباين مستوياته ، كما سنفصل في الفقرات التالية :

مستويات السلوك

ان لتلك القوى الضاغطة ، التي فرغنا لتونا من الحديث عنها ، ردود فعل ، تتجلى بشكل مباشر في سلوك الناس ، ولكنها تتفاوت من جماعة الى جماعة ، أو من فرد الى فرد ، وذلك حسب مدى الاذعان لهـا او رفضها : فالسلوك يظل هو هو ، اذا كان التسليم بها مطلقا ، وكذا اذا كان الرفض لها مطلقا . في الحالة الاولى ، السلوك ايجابي كله ، بالقياس اليها ، وهو سلبي كله ، في الحالة الثانية .

والسلوك ينقسم وينشطر ، ان لم يكن الاذعان كاملا ، ولا الرفض . . مرة مع ، ومرة ضد ، مرة مقتنع ، ومرة مشكك ، مرة قادر على الصمود في وجه القوى الضاغطة ، ومرة عاجز . . في هـذه الحالات ، والحالات المماثلة ، يشعر الانسان ، اي انسان ، ان هناك هوة يصعب ردمهـا ، بين ما يطلب منه ، وما يريد ، بين ما هو سائد ، وبين قناعاته ، كما يشعر في الوقت نفسه ، انه اذا اراد ان يعيش مع الاخرين ، فهو مضطر ان يتلاءم معهم ، وان يتكيف كلما دعت الحاجة ، والحاجة غالبا ما تدعو . وهكذا تصبح السمات الغالبة على سلوكه ، انه سلوك تلاؤمي ، يتبـع المواقف ، لا يوازيها ، ولا يسبقها ، يظل شانه هكذا ، الى ان يغيـب الرقيب الاجتماعي ، وتسنح له الفرصة ، ليحقق ذاته في سلوك ، هـو سلوكه الخالص ، المتحرر من كل مظاهر التبعية والتلعثم والتقليـد

الساذج . انه سلوك الظل الذي يقابل السلوك الظاهر ، وهـو السلوك الأكثر راحة ، بالقياس الى السلوك الظاهر ، والى السلوك السـوي . . وهو مع السلوك الظاهر والسلوك السوي ، يشكل ما اسميناه مستويات السلوك ، التي سنحاول الكشف عنها وتحليلها ، وعقد المقارنة بينهـا ، وهي تتجلى في أهم المحطات الاساسية في حياتنا . . وسناخذ السلوك الاسري مثالا نسهب في تحليله ، ثم نشير الى الباقي من الانماط السلوكية دون اطالة ، حتى لا نكرر نفس المواقف .

السلوك الاسري :

سنعتمد الاب ، الذي هو راس الاسرة ، وسنضرب امثلة على انماط السلوك التي يمارسها ، وما يترتب على كل نمط من هذه الانماط ، من نتائج ايجابية ام سلبية ، ان كان في مجال تسيير امـور الاسرة ، ام في مجال بناء هذه الاسرة البناء الصحيح :

١ ــ السلوك الظاهر :

بعد أن انهت الزوجة اعمالها ، استاذنت زوجها السماح لها ولابنتها بزيارة احدى الجارات . . لم يمانع الزوج ، فالجارة المذكورة موضـع ثقة . الا انه علق : ليس بمثل هذه الملابس . . الحشمة مطلوبة . .

٢ ــ سلوك الظل :

بعد فترة حصل الزوج على اجازة ، فاغتنمها فرصة ، ليقوم مـع اسرته برحلة ، طالما منوا النفس بها . . في اليوم التالي شـدوا الرحال وسافروا . بعد ان وصلوا بسلام ، واخذوا قسطا من الراحة ، اقترح الزوج ان يخرجوا ليتعرفوا على معالم المدينة الجديدة . وحين اعلنـت الزوجة والابنة انهما جاهزتان للانطلاق ، علق الزوج اياه : لماذا هـذا الخمار ، ولماذا الجوارب الطويلة ، ولماذا . . ؟ فاجابت الزوجة والابنة معا : اعتقدنا ان الحشمة مطلوبة . .

تحليل السلوك الاول :

اسبابه : حضور الرقيب الاجتماعي الرادع ، الممثل للاعراف والتقاليد والمفاهيم السائدة التي اعلناها كقوى ضاغطة في فقراتناالسابقة والمتمثلة في معارف الزوج والاسرة ، واضطرار هؤلاء ، الاخذ بها ومراعاتها رغم عدم القناعة بها ، بدليل الخروج عليها في السلوك الثاني .

نتائجه : انتصار الخارجية على الداخلية ، وبروز التناقض بينهما الشعور بالضيق والتبرم مما هو سائد ، مادام يمثل الكابوس الذي يسلب الحرية والتلقائية .. ازدواجية المواقف ، والاثار السالبة التي تبصم المواقف السلوكية التالية للاسرة ، وخاصة الذين لازالوا في عمر التكون منها .. وضع الصح في مرتبة ادنى من مرتبة ما هو سائد .. اعتبار ما هو سائد ، أو ما هو اجتماعي ، يحوي من الزيف ، مثلما يحوي من القسر والقهر ، ويسقط كونه المعيار والناظم لكل سلوك .. .

تحليل السلوك الثاني :

اسبابه : غياب او ضعف الرقيب الاجتماعي . اذ انه لا يوجد من يندد بسلوك الزوج ، فيما عدا الزوجة والابنة ، وهاتان مواليتان للزوج من جهة ، كما ان لديه فكرة عن قبولهما لهذا السلوك من جهة اخرى .

هذا سبب ، وسبب آخر على نفس المستوى من الاهمية هو ، انه لا توجد لدى الزوج أصلا ، كل القناعة ، او اية قناعة ، بضرورة السلوك الاول ، وان الامر كله ، وفي كلا السلوكين ، لا يتعدى شكليات السلوك الى جوهره . وبالاضافة الى هذا وذاك ، او خلافا لهذا وذاك ، فانه راغب في هذا السلوك دون غيره ، وقد سنحت فرصة ممارسته فمارسه .

نتائجه : شعور الاسرة بالتحلل من الرقابة الاجتماعية ، وان هذا التحلل هو الجانب المريح في السلوك ، وليس الجانب العبثي ، وان ما

هو سائد في مجتمع ما ، ليس هو الصح حصرا ، ولا ما هو محرّم خطأ بالضرورة . وان اضطرار الانسان ، لان يسلك هذا السلوك هنا ، والسلوك الآخر في المكان الآخر ، معياره الاصلي ، رضا الناس ام عدم رضاهم ، وليس البعد أم القرب من الصواب . وبهذه المعاني ، يصبح سلوك الظل ، سلوكا صحيا وتطهيريا ، اكثر من كونه السلوك المنافق . لانه وان كان أكثر لصوقا بعاطفة الانسان ورغباته ، فهذا لا يعني بالضرورة ، انه يجب ان يكون نقيضا للعقل والمنطق .

وهكذا تصبح النتيجة النهائية لكل هذه القياسات ، ان الرقيب الاجتماعي ، هو كابوس بحد ذاته ، وان الانفلات منه بين الحين والحين ، ضرب من الجسارة النافعة ، وضرب من التعبير عن مكنونات الذات . بدليل ان كل افراد المجتمع ، يخرجون خروجا متشابها ، على طقوسهم ، كلما سنحت لهم الفرصة .

٣ ــ السلوك السوي :

اذا اجاب الزوج ، الحشمة مطلوبة ، في الموقفين ، او اذا علق : لماذا كل هذا ، في الموقفين ايضا ، يكون اقرب الى السلوك السوي ، لانه يفرض او يقر ، في كل مرة ، سلوكا موحدا ، بغض النظر عن صواب تقريره ، ام خطئه ، وبغض النظر عن مماشاته لما هو سائد ، ام منافاته . فهو يسير في كل الظروف منسجما مع قناعاته ، ما دامت قناعاته لم تتغير . هذا من حيث الشكل . أما من حيث المضمون ، فان كل موقف يستدعيه ، أن يفاضل بين قناعاته وما هو سائد من جهة ، وبين الموقف الاصح من الجهة الثانية ، وان يغلّب في النهاية ما هو حقيقي على كل ما عداه . فاذا اتفق مع ما هو سائد ، ينتفي كل اشكال ، وان كان العكس ، فليس عليه ان يعالج الاشكال بمماشاته ، او بانشاء اشكال آخر . وانما بطرح الخطأ في اي جانب كان . فاذا كان صوابا ان يعلم الفتاة ، كما يعلم الصبي ، فليعلم الفتاة كما يعلم الصبي . وان كان عارا ان يعاقر الخمرة في رابعة

النهار ، فليكن عارا ان يعاقرها في عتمة الليل ؛ لان الصح في رابعة النهار صح في عتمة الليل ، والخطأ خطأ . .

ان السلوك السوي في الحقيقة ،ينبع عن الفكر المنسجم والشخصية المتوازنة ، ان كان مماشيا لقناعاتنا ، او لما هو سائد ، أم مناقضا لهما . وحين يكون السلوك سويا ، او بالاحرى نستطيع ان نسمي السلوك سويا، اذا تجاوز ما هو سائد ، وكل القناعات المتفردة ؛ من اجل ان يخدم الناس في تطلعاتهم وممارساتهم ، شديدة الصلة بحياتهم واحتياجاتهم اليومية . واذا كان للسلوك الاسري المتنافر ، كل هذه المحاذير ، فلا تخلو انماط السلوك الاخرى من مثل هذه المحاذير والسوالب ، والتي لا تصيب الفرد وحسب ، وانما تمتد في كل الحالات الى معظم المؤسسات الاجتماعية :

فالموظف الذي يسلك سلوكا امام رئيسه ، وسلوكا آخر امام مرؤوسه ، وثالثا امام مراجعيه ، ورابعا امام نفسه . مع ان قناعاته ، بنفسه ، وبوظيفته ، وبرئيسه ، ومرؤوسه ، هي هي في غالب الحالات . هو موظف لم يقدر ان يبقي الخيط موصولا بينه وبين ظروفه العامة والخاصة . فنمت في ذاته مجموعة من الشخصيات المتخاصمة . انه — هو ذاته — يشعر بالمهانة ، حينما يقف بين يديْ رئيسه صاغرا ، وقد كان قبل قليل امام مرؤوسه عنترا ، وسيكون بعد قليل امام نفسه كما هو . وقس على ذلك آلاف المواقف المتناقضة ، التي يقفها مع مراجع ذي هوية ، ومراجع له هوية اخرى . مع معاملة لها اتجاه ، ومعاملة لها اتجاه آخر وهكذا .

اننا اذ اخذنا الامور بكل حسن النية تقول : لماذا هذا التمثيل ، لماذا كل هذا التلون في السلوك ، الذي يرهقه اولا ، ولا يعود عليه ولا على الآخرين بالنفع . لماذا لا يريح ويستريح ، ويؤدي العمل المطلوب منه كما هو ، في كل الاحوال والظروف . .

هذا عن السلوك الوظيفي . اما عن السلوك الاجتماعي ، فان ايا منا سيجابه بالعديد من صور السلوك المتنافرة ، اذا لاحظ او راقب ، سلوكه

نفسه ، أم سلوكاي ممن يعايشهم : لقد كنت الان في غاية الجلافة مع زيد ، وهو لم يفعل ما يستوجب كل هذه القسوة . انا اعلم لماذا تصرفت هكذا مع زيد . وعلى اي حال ، فانا لم اكن انا في سلوكي هذا .. كما انني كنت مستضعفا جدا في حضرة عمر ، وعمر له ما له عندي وعلي ، ومع ذلك فقد بالغت في الانسحاق امامه . فانا لم اكن انا في سلوكي هذا . كما انني كنت منافقا الى ابعد الحدود اليوم : فقد وافقت احمد على كل الشتائم التي كالها الى حسان ، وزدت عليها ، ثم وافقت حسان على كل الشتائم التي كالها الى احمد وزدت عليها ، مع ان قناعاتي كانت منافية في كلا الحالتين .

وهكذا يمكننا ان نسوق الاف الامثلة من انماط السلوك المتضادة ، التي نسلكها في آن أم في آنين . ولو ان الامر يصدر عن جهل منا ، او من اجل قصد ثمين ، لشفعت لنا جهالتنا او غاياتنا . ولكن الواقع في غالب الحالات ، ان الذين يسلكون اكثر من سلوك هم من الاذكياء ، أو على الاقل ليسوا من الاغبياء .

ولناخذ امثلتنا هذه المرة من السلوك الديني الاعتقادي . هذا السلوك الذي يفترض الا يناله التلون او التغير مهما تبدلت الظروف ، والا خرج عن كونه سلوكا اعتقاديا . ولكن ، وعلى الرغم من ذلك ، فاننا نلاحظ زيدا من الناس ، متعصبا غاية التعصب في هذا الموقف ، ثم نلاحظه متسامحا كل التسامح في الموقف الآخر ، او مشككا في الموقف الثالث وهكذا . كما نلاحظ في الوقت نفسه ، ان سلوكه وهو يتعصب ، ليس افضل من سلوكه وهو يتسامح او يشكك . انه يعبر في كل الحالات عن موقف واحد هو : انه يحاول الاندماج بالآخرين ، من خلال الآخرين وليس من خلال ذاته . لانه حين ينطلق من قناعاته الخاصة ، سيظل سلوكه متشابها في كل المواقف ، سواء أكانت قناعاته خاطئة ام صائبة . والخلاف هنا ليس على كيف يسلك هذا الانسان اكثر من سلوك وحسب وانما الخلاف على لماذا يسلك اكثر من سلوك ، وهو يعلم ، او وهو يجب

ان يعلم ، انه في السلوك الاعتقادي ، لا مجال للمجاملة ولا المهادنة ولا لجواز الوجهين ، وان بامكانه ان يسلك سلوكا واحدا ، هو السلوك الصحيح .

بقي ان نشير اشارة عابرة الى سلوك المناسبات . السلوك الذي غالبا ما تطغى عليه روح الجماعة . حيث يجد الانسان نفسه مضطرا لان يتجه مع متجهين ، على السجية وقبل الجدل . انه التكيف الطبيعي والسليم مع ما هو سائد ، حيث يفرح الانسان مع الفرحين ، ويحزن مع الحزانى ، ويثور مع الثائرين و . .

ولكن ما هو غير طبيعي ، هو ان يتلبس الانسان شخصية غريبة عنه في كل مناسبة ، او ان « يفصل » شخصية خاصة لكل مناسبة . فهو وهو معروف تماما لدى كل الناس ، انه فلان ، وانه يمثل كذا ، وان قدراته كذا ، وسلوكه العادي كذا . . تراه الان ، وقد دعي الى مناسبة ما ، قد انسلخ من جلده وجلدته ، واصبح غير ما هو : اما اكبر حجما ، ام اصغر حجما . . يسلك وكأن كل خلية في جسمه ، مشدود الى نابض شديد الضبط ، وكل حركة من حركاته ، مصطنعة بشكل فاضح . يظل امره هكذا ، حتى ينتقل الى مناخ مغاير ، يرافقه سلوك مغاير وهكذا . .

والسؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا كل هذا النوسان ، وما هي الاهداف المرجوة ، وما هي الحكمة ، من نزع تلك الصورة من اطارها ، ووضعها في اطار ليس لها .

ان اهم هدف يحصل عليه الانسان ، واعلى مرتبة يمكنه ان يعتز بها ، هي قدرته على التلاؤم الصحيح مع الآخرين ، لان التلاؤم مع الآخرين يستدعي ، التلاؤم مع الذات من جهة ، والتعبير عن الذات بشكل صحيح من جهة ثانية ، وكلاهما ميزة من ميزات الانسان المتفوق ، الذي يستطيع التعبير عن افكاره ، بسلوك متوازن ، والذي يستطيع ان يبقي الفرجة معقولة ، بين سلوكه الظاهر ، وسلوكه الباطن ، او ما درجنا

على تسميته في هذا البحث سلوك الظل ، وبين السلوك الذي كان يجب ان يسلكه ، ونعني به السلوك الصحيح او السوي . اما اذا لم يستطع الحفاظ على هذا التوازن ، فسيؤدي به الامر ، الى مواقف لا يرتضيها ، ان كان بالنسبة الى السلوك الظاهر ، ام سلوك الظل ، ام الى كلا السلوكين .

ولنمثل اولا على المواقف المنحرفة ، الناتجة عن السلوك الظاهر غير المتوازن :

١ ـ النفاق الاجتماعي :

لا نكون اتينا بجديد ، اذا انصب حديثنا على تعريف وشرح ماهية النفاق ومسبباته . اذ يكفينا الآن على الاقل ، ان نصفه بانه سلوك سلبي، وانه ينافي قناعة صاحبه،وانه لا يسلكه الا وهومسلوب الارادة،الا وهوخاضع لقوى ضاغطة : تسعى وراء مغنم او يتقي شراً يخشاه . في الحالة الاولى الذنب ذنبه ، لانه قدم الفائدة على الحقيقة ، او لانه لم يلائم بين الفائدة والحقيقة . وفي الحالة الثانية ، التبعة تبعة التصنيفات الاجتماعية ، التي كرست لانها سادت ، لا لانهـا موضوعية ، ولا لانهـا واقعيـة تعبر عن حاجات المجتمع .

هذا الذي ذكرنا ، من المعطيات التي ربما ادركها الانسان بالبداهة . ولذا فاننا لم نعتبرها محور الاهتمام . ورغبنا ان نكتفي بالاشارة اليها ، لننطلق الى الوجه الآخر الذي هو : اننا رغم القناعة التامة ، بان النفاق أسلوب في السلوك متدن ، فاننا نحاول ان نعالج هذا النفاق بالنفاق .. فنحن ننافق ونسمي النفاق مجاملة ، او نسميه كياسة ، او تواضعا ، او حنكة ، او ضعفا ، او قوة ، او اية تسميات اخرى ، عدا التسمية الحقيقية . نفعل ذلك ، ونحن ندري او لا ندري ، باننا كرسنا خطاين :

الاول : اننا نكسب النفـاق ، وهو سلوك منحـرف ، مسميات مستساغة ، ومصطلحات مقبولة اجتماعيا . فنحن نشعر بالاعتزاز ، اذا

قيل عنا اننا نحسن المجاملة ، او التواضع ، او الحنكة . ولكننا نشعر بالمهانة ، اذا وصمنا بالكذب ، او الجبن ، او المراوغة ، والتي هي بالاصل، ربما كانت المسميات الحقيقية لسلوكنا .

الثاني : اننا حين نستعير هذه المصطلحات ، لسلوك غير مقبول اجتماعيا ، يصبح هذا السلوك سلوكا مشروعا بعد ان كان سلوكا مدانا . ولهذا يلاحظ المراقب ، ان السلوكات المدانة ، انحصرت في حيز لا يكاد يبين ، هو حيز السلوكات التي ينتج عنها ضرر مادي مباشر ، أو التي لا يمكن لاي اسم آخر يطلق عليها ، مهما كان براقا ، ان يغير من طبيعتها ونحواها .

اذن ، نحن نكرس مواقف خاطئة ، من اجل اهداف غير ثمينة . كما اننا بالمقابل ، نضن باي جهد نقضي فيه على مثل هذه الظواهر السلوكية المنحرفة . مع ان اكثر الدلائل تشير ، الى ان مسؤولية الجماعة تفوق مسؤولية الفرد في كافة الميادين .

فالفرد يربي هذا السلوك أو على ذاك ، تحت الاشراف المباشر للجماعة ، التي كلما كانت اكثر عدالة واكثر ديمقراطية ووضوحا ، كلما ساعدت على تنشئة الافراد تنشئة موضوعية سليمة ، تتجلى في انماط سلوكية صحيحة . لان الفرد حين يعلم انه يتمكن من الوصول الى اغراضه بالاسلوب الصحيح ، فانه يفضله على كل الاساليب المعوجة ، أو غير المشروعة .

والفرد حين يعلم انه سيحصل على اهدافه ، لانها حق له ، وليس لاي سبب آخر ، فانه يتجه نحوها مباشرة ، دون ان يخشى في الحق لومة لائم .

والنتيجة او النتائج التي نعتقد اننا وصلنا اليها ، يمكن ان تصاغ حسب الشكل التالي :

آ ـ النفاق ليس من طبع الانسان ، وانما يكتسبه كما يكتسب مواقفه الاخرى .

ب ـ اذ لم يكن النفاق من طبع الانسان فعلا ، فهو لا يشبع ميلا من ميوله ، ولا يلبي حاجة من حاجاته الطبيعية .

ج ـ واذا قيل ان الميول والاتجاهات مكتسبة ، واكسبنا الانسان الميل الى النفاق ، فهذا يعني انه يطلب منا ، ان نعيد النظر بالحال ، بكامل اتجاهاتنا التربوية ، وأن نبحث الاخطاء في بنانا الاجتماعية ، ونعمل على تصويبها ..

د ـ واخيرا ، اذا اعتبرنا النفاق سلوكا غير سوي ، فعلينا ان نحاربه بسلاحين : نعاقبه كسلوك منحرف .. ونجزي السلوك البديل . هذا واذا تذكرنا اننا نستطيع دائما ان نفرز الصح عن الخطا ، وان ما ينقصنا هو الارادة الحاسمة . نكون قد خطونا الى الامام اكثر من خطوة ايجابية ، باتجاه السلوك السوي ..

٢ ـ التبعية :

وهنا ايضا لا نريد ان نركز على الوجه الايجابي للتبعية ، لانها بهذا المعنى ، ظاهرة صحية وصحيحة . مثل ذلك ، موقف الصغير من الكبير ، والولد من الوالد ، والمتعلم من المعلم وهكذا . فهؤلاء يرضخون ان جاز التعبير ، لفارق التجربة والخبرة ، حتى يكتسبوا مثل هذه التجربة والخبرة ، ليمارسوها ، من ثم ، في سلوكاتهم الخاصة . إما ما يستدعي الاهتمام ، ويحتاج الى الوقوف الطويل ، فهو الوجه السالب للتبعية السلوكية . حيث يسلك الانسان السلوك القاصر أو العاجز ، وهو ليس بالقاصر ولا بالعاجز ، وانما مجرد شعور بالدونية ، يفرضه الانسان على نفسه دون مسوغ حقيقي ، أو يفرضه عليه الآخرون ، بعد ما يضعون أصابعهم على مواقع الضعف فيه . فهو يشعر بالدونية ، وهو يسلك

سلوك الخاضع ، التابع ، المقلد . كما يشعر الشعور اياه ، وهو يمارس سلوك المتفوق على الآخرين .

ان شعوره في الحالتين ، سببه ، وهو نما وتجسد عبر المواقف مفاده : انه لا يساوي الآخرين في شيء ما . وهو لهذا لا يستطيع أن يكون قائدا او مبادها ، بقدر ما يستطيع أن يظل ذيلا . بعكس الانسان المتفوق ، الذي يشعر بتفوقه ويمارسه ، حتى حين تفرض عليه مواقف الدونية .

ولكن الامر يجب ان يختلف ، حين يكتشف الانسان الذي يشعر بالدونية ، امرين هامين :

الاول : مثلما انه صادق في تقديره ، بانه لا يساوي الآخرين في شيء ما ، فانه صادق في تقديره ، بأن الآخرين لا يساوونه في شيء ما أيضا .

انه اذا أدرك ذلك ، فان نقطة النقص لديه ، تنقلب الى اعتقاد بالاصالة ، وبالتالي فهو كغيره ذو شخصية مميزة ، ولها سماتها ..

الثاني : ان المجتمع الذي يعامله ، على هذا الشكل او الشكل الآخر ، له دور اساسي في تكوينه ، وفي تنظيم سلوكاته ومواقفه . والمجتمع ، كالافراد ، يخطىء ويصيب ، ينصف ويتحامل ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى ، فان الكثير من المفاهيم والتقاليد ، والاوامر والنواهي ، تسود في المجتمع ، مع انها لا تعبر الا عن رأي فرد او قلة ، من افراد هذا المجتمع . ورغم ذلك فانها تعمم وتفرض على الجميع ، ومن بين الجميع ، قد لا يوجد من يقول عن هذا الفرض ، انه تكريس للتبعية ، واعطاؤها صفة الشرعية . واذا وجد من يراجع كل هذه الحسابات ، على ضوء البندين الآنفين ، بحيث يقرر مباشرة : انه كغيره ، وغيره مثله . يتفوق على الآخرين باشياء ، ويتفوق عليه الآخرون باشياء ، وان هذا هو الوضع الطبيعي .

ووضع طبيعي ايضا ، ان ينصاع المرء لكل ما اثبتت صحته التجربة العاقلة ، وأن يرفض ما اثبتت بطلانه . ان كان في مجال السلوك الفردي ، أم في مجال السلوك الاجتماعي ..

أقول : اذا راجع الانسان كل هذه المعايير ، فلابد من ان يعيد النظر في مجمل مواقفه السلوكية ويبنيها بناء صحيحا ، لانه يشعر انه لم يعد بمسيس الحاجة لان يتقمص شخصية غير شخصيته ، يكون فيها تابعا أو متبوعا تحت الموقع الذي يريد أم فوقه ..

٣ ــ التمرد :

وهنا ، ايضا ، لسنا بصدد التحدث عن التمرد في وجهه الايجابي ، حين يكون أصلا في الثورات الاصلاحية ، والابداعات السلوكية . اذ يكفي أن نشير الى انه لولا التمردات الفكرية والسلوكية ، على الخطأ والفساد والركود ، لظل وجه الحياة صقيلا ابد الدهر ، ولظل التطور مجرد تكيفات مسالمة مع التغيرات الطبيعية والعفوية .

اذن التمرد ، بهذا المعنى ، سلوك مبدع . وحين نسميه تمردا ، نكون قد ارتكبنا الخطأ اياه ، الذي ارتكبناه ونحن نسمي النفاق كياسة او لباقة او مرونة .

اما التمرد السالب ، أو السلوك الذي يرفض انماط السلوك السائدة ، ليأتي بما هو اسوأ منها ، فهو الذي يستوجب التحليل والمناقشة :

ان الانسان الذي يتجاوز الاعراف والتقاليد السائدة ، ويختط لنفسه نهجا سلوكيا ، معاييره الاساسية ، النفع مرة ، والمزاجية مرة اخرى ، ووسائله وادواته ، ليست مشروعة في كل المرات ، وضرره ينصب على الآخرين بشكل مباشر ، ان مثل هذا الانسان ، لم يتورط بسلوك منحرف مثل هذا السلوك ، لو لم يرضخ لعوامل تكاد تكون تكوينية استطاعت ان تجرف سلوكه في اقنية مغايرة .

ان اهم هذه العوامل على الاطلاق هي تلك التنافرات الحادة بين المواقف التي يعيشها لانها مفروضة عليه ، والمواقف التي يعيشها الآخرون

وهي محرمة عليه . وهو قبلما يثور ثورته الجامحة ويقلب كل الموازين ، يكون قد حاول الف مرة وفشل في تركيب معادلات متوازية تكسر ما امكن حدة التنافرات اللامعقولة بين ما له وما عليه .

وعلى هذا فان المتمرد لا يخلق متمردا ولا يختار تمرده في كل الحالات . انه ينتقل ، غالباً ، من السلوك القاصر المحروم ، الى السلوك المتمرد المدان . وكما انه لا يختار تمرده الا مقهوراً ، فهو لا يتراجع عنه الا مجبرا .. والنتيجة او النتائج التي نطمح اليها : انه اذا كان السلوك القاصر وجها للسلوك المنحرف ، فان السلوك المتمرد هو الوجه الآخر . وان السلوك المتمرد ، هذا ، مرفوض من صاحبه بنفس الدرجة التي هو مرفوض فيها من الآخرين . وان الآخرين بالتحديد ، هم الذين يسوقون الانسان الى تبني هذا النمط من السلوك ، وهم الذين يقضون على مبررات وجوده ، اذا وازنوا موازنة موضوعية بين حقوق الافراد وواجباتهم ..

٤ ــ الانطواء :

لم نتكلم هنا عن الانطواء المذهب ، أو عن انطواء الشعراء والفلاسفة . لانه ، بهذا المعنى ، سلوك مميز له صفاته ووظائفه الابتكارية والتطهيرية . كما يمكننا ان نصفه بانه انطواء المنتصر ، مقابل انطواء المهزوم الذي يناقضه منذ اسبابه وحتى نتائجه .

واذا كان علينا ان نتناول النمط الثاني للانطواء بالبحث والتحليل ، فلنهتم مبدئيا بالنقاط الاساسية التالية :

١ ــ ان ظاهرة الانطواء ، مثلها مثل كل الظواهر المنحرفة ، لا يمكن أن تنمو وتترعرع ، في المجتمع المتماسك او في ظل نظام اجتماعي سليم .

٢ ــ وهي حين تنمو ، فانما تنمو في بيئات ذات مناخات ملائمة اهمها :

آ ـ بيئة المتفوقين ، حين تعاكسهم مجمل الظروف .
ب ـ بيئة المتخلفين او الخاملين في مجمل الظروف .
جـ ـ بيئة ذوي الامزجة الخاصة ، اذا لم تخضع لهم الظروف .

ومعنى هذا الكلام ان عامة الناس ، لا يتعرضون بشكل مباشر الى الاحراجات التي تسوقهم الى سلوك الانطواء ، الا اذا كثرت ذبذبات النظام الاجتماعي السائد وتقاطع نوسانه بين خليط من الاقطاب المتنافرة التي تدفع كل من في مجالها مرة في هذا الاتجاه ، ومرة في الاتجاه المنافي . وحين ينتهي القذف ، تكون مجمل التوازنات السلوكية قد تمركزت في مواقعها الخاطئة او غير الملائمة . وتزداد الفرج التي تتسلل منها ، الى قلب النظام السائد ، المواقف الغريبة والطفرات المزاجية والاجتهادات الذاتية . كما تتعدد النواظم والضوابط وتتفاوت ، وتسمى الانحرافات السلوكية بمسميات ايجابية : فالتمرد بطولة ، والتبعية نظام وانضباط ، والانطواء فلسفة ، وهكذا .

اذاً الانسان لا ينطوي ولا يسلك اي سلوك منحرف بالصدفة او بمحض الاختيار ، وانما نتيجة تعرضه ، لجملة من الضغوط المتنافرة التي لا تتمكن من اكسابه قناعات جديدة ، ولا قلب قناعاته راسا على عقب ، وانما تبعثر له هذه القناعات ، في مواقع متداخلة او متقاطعة او مفككة . وهكذا يأتي سلوكه ، حين يسلك معبراً تمام التعبير عن هذه القناعات القلقة ، ويصبح الانطواء ، بالنسبة اليه ، سلوك الخلاص او المظلة التي تبقيه في مناخ ما ، حتى ولو كان المناخ الاسوأ . لانه لا يستطيع الى المدى البعيد ، استمرار المراوحة ، بين سلوك ظاهر يقهره ، وسلوك باطن يضنيه . انه حين يختار السلوك الواحد ، حتى ولو كان السلوك المهزوم ، يكون قد عقد صلحاً او وفاقاً بينه وبين ذاته بعد ما فشل وهو يحاول التواصل مع الآخرين .

وهذه النتيجة ، مهما كانت درجة صحتها من القوة أو الضعف ، تظل مؤشرا ذا دلالة يدين النظام الاجتماعي ، الذي لا يستطيع اقامة علاقات سوية وموضوعية بين أفراده ، تجنبهم الانزلاقات والانحرافات الفكرية والسلوكية . .

هذه هي الانماط السلوكية المنحرفة والتي تنتج عن السلوك الظاهر غير المتزن أو المتوازن ، أو التي تطفى على السلوك الظاهر وتكاد تحل محله . . فما هي الانماط التي يتجلى بها سلوك الظل ، بعد أن علمنا في مقدمة هذا البحث ان سلوك الظل في حد ذاته سلوك منحرف وخاصة حين تتسع الفرجة بين داخلية الانسان وخارجيته او بين الانسان من جهة وبين المجتمع من الجهة الثانية حيث تتدرج انزلاقات الانسان السلوكية وبتسلسل هابط من السلوك الظاهر السوي ، حيث يكون التعامل مع المجتمع صحيحا . . الى احد الانماط المنحرفة للسلوك الظاهر حيث تبرز بوادر التناقضات من المجتمع . . ثم تأتي النقلة الكبرى حين ينسحب من المجتمع وينتقل بقفزة واحدة الى سلوك الظل ليستبدل ، باديء ذي بدء ، المجتمع الكبير بالشلة المختارة ثم لا يلبث اذا ما انفرطت اواصر الشلة ، لسبب أم لآخر ، ان يباشر سلوكا فرديا معاندا للواقع وجملة الظروف المحيطة ؟ . . .

بقي ان نعود الى تفصيل ما اوجزناه ، حول انحرافات سلوك الظل بدءا من سلوك الشلة :

١ ــ **سلوك الشلة** : وفيه تفرض طقوس الشلة على تقاليد المجتمع واعرافه ، فاذا ماشتها نتج نمط سلوكي ايجابي واذا نافتها نتج النمط المناقض :

في الحالة الاولى : يمكن ان نتحدث عن : **سلوك الشلة الظاهر** ، الذي يمثل أحد انماط السلوك المشرقة ، والمحببة الى قلوبنا حيث يفرغ الانسان ، بعد أن يؤدي واجباته ، ويفرغ من اعماله ، ليلتقي بأولئك الذين انعقدت بينه وبينهم عبر الايام جملة من أواصر المودة والالفة التي اسقطت فيما بينهم كل الرسميات والمراسيم التي تكدر سلاسة الحياة وعفويتها .

فتعاقدوا ان يعيشوا الجانب المريح في الحياة ، بالشكل الذي تهيأ لهم . انه الشكل المناسب . وعاشوا دون ان يلحقوا اذى او حيفا بأحد . بل على العكس من ذلك ، ربما اصبح سلوكهم السلوك القدوة ، في حسن المودة والمعاملة . فهذا السلوك ، فوق انه سلوك صحيح ، فهو سلوك ممتع . اذا خلت من مثله الحياة ، فقدت اهم عناصر الحيوية والجدة فيها .

في الحالة الثانية : سيدور الحديث حول **سلوك الظل او سلوك الشلة المدان** . ذلك السلوك المعاكس الذي يلتقي فيه على صعيد كل الذين خرجوا على السلوك السائد ، ليشكل كل فريق تقاربت ميوله ورغباته ، محطة سلوكية خاصة به ، لها اعرافها وطقوسها وتقاليدها ، التي تميزها عن سواها ، ولكنها تلتقي مع سواها في سمات اساسية اهمها :

ـ ان مفاهيمها خاصة : اي ان معيار الصح والخطأ ، والايجاب والسلب ، والنفع والضرر ، هو الفرد او الشلة ، لا المجتمع ولا الصالح العام . .

ـ وان اساليبها غير مشروعة : فهناك من يربأ بنفسه الوصول الى اي مغنم اذا كان الطريق اليه هذا المغنم سلوكا غير مقر اجتماعيا لانه ينافي الاخلاق ، او معاقبا قانونيا لانه غير مشروع . . بينما يلجأ مدمن الخمرة ام القمار ام السرقة ، الى اية اساليب تحقق له اهدافه ومبيحا لنفسه ما حرمته الاخلاق والقوانين . . وحين يطارد اجتماعيا وتحاصره المفاهيم السائدة ، يجد متنفسه الطبيعي في بيئة الذين سبقوه في مضماره او الذين يسيرون خلفه على نفس الطريق . فيتسلل معهم ، او يتسللون معه ، ويعيـ ـن فسادا في مصائر الناس ومقدراتهم .

والسؤال الاهم هو : من المسؤول عن تسلل هؤلاء ، وسيرهم على الرصيف المخالف ؟ انهم بالتأكيد ليسوا من عجينة مغايرة لعجينة الناس . ولا نشأوا في بيئة معزولة عن بيئات الآخرين . انهم بعضنا ، وعاشوا بيننا ، فلماذا صاروا غيرنا على طول الخط ؟

سؤال خطير ، والاجابة عليه تعني الاتهام المباشر للنظام التربوي السائد وتسجل بشكل مباشر احدى السقطات التربوية الخطيرة وهي التعميمات التربوية . فانا حين اقول ان ابنائي خجولون ، لانني افرض عليهم نظاما ما ، وان نظاما آخر ، سيكون اكثر نفعا لهم ، والمعلم حين يقول : ان تلاميذي مشاغبون ، وسأستبدل اسلوبي باسلوب اكثر جدوى ، والام حين تشتكي : ان ابنائي يعبثون بأثاث المنزل ، لانني اعاملهم بهذا الشكل والمطلوب معاملتهم بالشكل الآخر ... اننا جميعا اطلقنا تعميمات تربوية ، لا يمكن ان تنطبق على الكل ، في احسن حالاتها ، لأن لكل واحد من الكل ، وبشكل اخص في عالم الصغار ، عالمه الخاص به ، او له ميزاته الخاصة به على الاقل . وهو لا يمكن ان ينمو النماء السليم ، ان لم تراع هذه الميزات . فاذا لم نراعها ، تنشأ لدينا تركيبات خاطئة ، تتعمق أثر تكراراتها وتتصلب ، وتصدر عنها الانماط السلوكية المنافية ، التي تصبح مصدر قلق المجتمع وشكواه ، دون أن تكون الحل المرضي أو المعقول بالنسبة الى المتورطين فيها . لان هؤلاء انفسهم ، وهم يمارسون سلوكاتهم ، يمارسون ضغوطا مضنية على انفسهم ، ليقهروا مواطن الخير فيها . يفعلون ذلك بعد ما تهيأ لهم ، ان كل دروب العودة الى السلوك السليم ، موصدة في وجوههم ، وان استمرارهم في الخطأ اصبح قدرهم .

اما نحن فمنا من يقف منهم . موقفا عدائيا ، كشر لا بد من الخلاص منه . ومنا من يقف منهم ، موقف من لا حول له ولا قوة . وهكذا تكون فرص شجبهم والخلاص منهم ، اكبر بما لا يقاس من فرص ردهم الى السلوك السوي . وبكلام آخر ، يكون فرز الشلة الى أفراد مقهورين ، اكثر ضررا وخطرا ، لان كلا منهم سيحاول ، عبر سلوكاته الفردية ، ان يمارس انحرافات الشلة بجملتها . .

٢ ـ السلوك الفردي :

اذن ، مثلما ان الانسان لم يترك مجتمعه الكبير مختارا ، بل نتيجة خضوعه لجملة ظروف خارجية وذاتية . كذلك فانه لم ينسحب من مجتمعه الاخص ، دون مبرر ، وانما نتيجة ظروف اكثر ضغطا وقهرا ،

لانه يعلم انه في هذه المرة ، سيصبح بلا آخرين ، والحياة لا تقبل هـذا النمط المفرد من السلوك ، ولذا فانه غالبا ما يكابر او يداهن ، من اجل الحفاظ على مجرد جهة ، يمكنه التعامل معها . انه يفضل ان يظل لصا بين لصوص ، او سارقا بين سارقين ، على ان تفرض عليه حياة العزلة الجافة ، التي تصدمه كيفما اتجه . وعلى هذا فان السلوك الفردي ، بالنسبة اليه ، يشكل مجموعة من المحاولات الفاشلة للعودة الى مجتمعه او الى شلته . فاما ان توفق محاولاته فيسجل قفزة تلاؤمية جريئة ، واما ان تفشل هذه المحاولات عندها تبدا مظاهر السلوك الفردي بالتجلي تدريجيا حيث يتعامل مع الآخرين ماديا بادىء بدء فيكون عمله في منحى وعواطفه واتجاهاته في منحى آخر . انه حتى الآن لم يلغ الآخرين من حسابه نهائيا ، ولكنه سيضطر الى الغائهم بعد ذلك ، حينما تنعدم نقاط التلاقي او تكاد بينه وبين الآخرين ، فلا هو يتراجع ولا هم يتراجعون ، ويستمر الامر على هذا النحو حتى تنحصر جملة مواقفه في اتجاهات محددة وذات سمات فردية خالصة . نذكر منها ما يلي ، على سبيل المثال ، منتقلين من السلوكات الفردية الايجابية الى السلوكات المنافية الى وقف السلوك :

١ ــ السلوكات الفرديــة الايجابيــة :

آ ــ سلوكات تلبي حاجات الانسان الخصوصية . وهي لا تختلف عن اية سلوكات اخرى ، الا في ان ليس لها اطراف خارجية . فهي تقتصر على الانسان نفسه ، وعلى مستلزمات السلوك ، حيث لا حاجة الى الامتداد الى الآخرين . مثل ذلك تلك الافعال التي يمارسها الانسان بينه وبين نفسه ، بكل العفوية والتلقائية ، والتي يشعر بعد ممارستها بكل الارتياح والرضى . انه يريد ان ينسجم مع داخليته ، فيزيولوجيا ، لينسجم نفسيا ، ليتمكن من التعامل مع الآخرين بالشكل اللائق ..

ب ــ سلوكات ايجابية في حد ذاتها ، ولكن المجتمع لم يقرها ، لانها ليست من مصطلحاته التقليدية . ولانه لا يستطيع قهر ارادة

الآخرين ، ولا تسفيه قناعاتهم ، يسلك الدروب التي لا تتقاطع مباشرة مع دروبهم ، ولا تصطدم معهم وجها لوجه .

انه يسجل سبقا فكريا وسلوكيا في مثل هذا الموقف ، ولكن المجتمع الذي يدين المجازف ، ويعتبر عابثا او مذنبا ، يضطر الانسان ، لان يضفي على سلوكه ، الافضلية الواقية ، ربثما تسقط قناعات المجتمع ، ويصبح سلوكه نمطا مشروعا ومجازا

٢ ـ السلوكات المنافية :

أ ـ سلوكات لا يعاقب عليها المجتمع ، ولكنه لا يقرها ، لانها سلبية في حد ذاتها . فهو لا يشارك الاخرين في مناسباتهم وهو لا يساعد محتاجا يقدر على مساعدته .. يهمل شؤون اسرته .. ويميل الى البطالة او ....

ان السبب الاصيل الكامن وراء كل هذه السلوكات ، هو انه لم يعد راغبا في الانصهار في بوتقة الجماعة ، وانه يشعر بنوع من تحقيق الذات ، حين يأخذ عكس الاتجاه ويمشي ، لان تجاربه الشخصية مع الجماعة لم تعزز تعاقده معها . انه يعتقد بادىء ذي بدء ، ان قناعاته المنافيةلقناعات الجماعة ،هي اصل الخصومة بينهما ،ثم لا يلبث ان يتخذ قرارا اشد تعسفا مفاده : ان الجماعة ترفضه شخصيا ، بغض النظر عن اتجاهاته وقناعاته . ويصبح شغله الشاغل ان يركب معادلات عدائية بينه وبين هذه الجماعة ، الى ان ينتهي به الامر الى نهج السلوكات المدانة .

ب ـ سلوكات سلبية ويعاقب عليها المجتمع ، مثل تعاطي المخدرات ، ولعب الميسر ، والعبث براحة الاخرين وامنهم ، والى غير ذلك من السلوكات ، التي تعزز عنده القناعة النهائية ، بان اللقاء بينه وبين الاخرين اصبح محالا ، وانه اصبح ذا سلوك مميز ، وان هذا السلوك مفروض عليه ، وانه بالتالي ، السلوك المستساغ بالنسبة اليه ، وهو يمثل حريته التي يجب ان يدافع عنها ، مثلما يدافع كل انسان عن حريته .

٣ ـ السلوكات الكفية :

حيث يصبح السلوك مجرد تصميمات باطنية ، او تأملات تنتهي الى تاملات . تمارس فيه كل طقوس الانطواء والعزلة . يركب فيها صاحبه معادلات سلوكية لا تحصى ، اما مضى وقتها ولا يمكن ان يعود ، واما لا يقدر له ان يأتي . وفي كل الحالات ، يظل الاهم ، انها تمت الى الواقع بصلة ، ما دام الواقع يمثل الفلسفة المناقضة ، وما دام يحوي كل اسباب الاحباط وعناصره . فالذي يعاند كل ما هو سائد ، ثم يلقي جميع اسلحته ، وينهزم مقهورا ، يشعر شاء ام ابى ، انه في اتجاه يعاكس المرمى على طول الخط وان اهدافه مهما احسن التسديد ، ستظل بلا مرمى ، وانه لا يحصل على طائل مهما استمر في القذف ، وان المنطقي بالقياس اليه ؛ ان يخلي نفسه من مجمل الاهداف والمهمات . انها صور ربما حوت مزيدا من المبالغة والتشاؤم ، ولكن هذا لا يعني انها قائمة . قد تكون نادرة في نماذجها التي وصفناها ، اما في الدرجات التالية ، فهي متمثلة في سلوكنا احيانا ، وفي سلوك بعضنا في كل الاحيان :

١ ـ ذلك ان كثيرا من الناجحين في الحياة والمنفتحين عليها ، يطيلون الوقوف في محطات سلوكية سالبة ، كالتي وصفناها ، لمجرد فشلهم في تحقيق هدف من اهدافهم ، او لتعرضهم لصعوبات لم تكن في حسبانهم ، الا ان اندماجهم في المجتمع ، ورصيدهم من النجاحات ، يعيدهم الى سلوكهم الحيوي ، وتكون سقطتهم مجرد تعثر عرضي ، او وقف سير السلوك ، ولم يغير منحاه .

٢ ـ ولكن هناك ، بالمقابل ، من تتكرر اخفاقاتهم وهم ينشدون التلاؤم مع الاخرين ، لان منطلقاتهم الاساسية هي احتواء الاخرين لا العكس ولان ذلك يخالف كل واقع ، فان انهزامهم يأتي كليا ونهائيا . وجميع وسائل المقاومة لديهم تفقد فاعليتها ، اي انهم ، بكلام آخر ، فقدوا الفعل حين عارضوا المجتمع ، وفقدوا رد الفعل ، حين عارضهم المجتمع .

ربما كانوا قلة ، اولئك الذين لم يحسنوا التكيف ، ولا احسنوا التكييف ، فاصبحت حياتهم غربة ، أو هما يعانون منه مثلما يعاني الآخرون . وهـذا بالذات ، ما يضطرنا الى اعتبارهم شرخا في بنـاء المجتمع ، وخسـارة لقدرات ليس لها بدائل ، قد يكون المجتمع في امس الحاجة اليها ، بالاضافة الى انها قدرات تعطلت قبل ان تستهلك . فمـن هو المسؤول يا ترى ، نحن ام صاحب السلوك المنحرف ؟ فنحن مـن جانبنا ، نرفض كل التحليلات التي يتبناها صاحب السلوك المنحرف على اساس انها خاطئة وتحتاج الى الموضوعية والمنطقية لان ما هو منطقي بالنسبة الينا ، هو ما يصدر عن مقدمات سليمة تؤدي الى نتائج نافعة بالقياس الى الكل او الى الكثرة من الكل . اما ما عدا ذلك فهو ليس بمنطق ، او هو منطق سالب ليس له مقابل سلوكي . في حين يحل صاحب السلوك المنحرف نفسه محل الكثرة ومحل الكل ، ويستمر في تركيب المعادلات الصادقة ، وممارسة السلوكات المنحرفة .

ان هذا النمط من السلوك يمثل سلوك الظـل وسلوك المظلة ، ان جازت التعابير : انه يبيح لنفسه أن يمارس السلوك الذي يشاء ، ويحاول ان يضفي على هذا السلوك صفات المشروعية معتمدا على حجج ابرزها : انه كان عجينا قبل ان يصير خشبا وانه كان الاخرين منذ كان عجينا حتى صار خشبا . فان كان هو المذنب ، فما هو الذنب ؟؟ نعم ، نحن الذين سقناه الى هذا المآل .. ولكننا سقنا الكل بعصا واحدة ، فلمـاذا لـم يؤولوا الى نفس المآل . ؟؟ فهل هذا عذر ام ان علينا ان نعتذر ، لاننـا سقنا الكل بعصا واحدة ، فاستجاب من استجاب ، وعصى مـن كانت عصاه غير هذه العصـا !!

في كل الحالات تظل النتيجة واحدة : سلوكات غير متوازنة تتوارى خلف معايير يعوزها الصدق والمنطقية ، وهدر لقدرات لو سـارت في منحاها الصحيح لوفرت نفعا يفوق حاجة الفرد والمجتمع واختصرت العديد من المفاوز والمفارق والمتاهات ، التي تباعد بيننا وبين اهدافنا ، دون اية مبررات تستحق الذكـر . ربما وجدنا ، مثل هذه الصـور السلوكية المشرقة ، في استعراض خاص لانماط السلوكات السوية ..

* * *

سلطة الجسد

مصطفى خضر

شفقٌ يبعثر موجة الصلصال في الأيدي ، وذاكرةٌ بلا مأوى ، وأوردة الطفولة تفتحُ الأعبادَ في عسل العشيّة ، ثم تنفجر المشيمةُ بالسواحل ؟ / لَذّةٌ أنسيةٌ شهدتْ تفتّحَ قبّةٍ ستدوّن الأزواجَ في خزفٍ ! / تصاهر غربةُ الأعشاش عائلةً من اليرقات ، والأعشابُ تنسجُ خلف منحدر الحليبِ مدائن الجسدِ الذي قبسته أبّهةٌ مفاجئةٌ ، تزفّ غزالة الطينِ الوحيدةِ قرب عاصفة المكانْ !

عطرٌ لأجنحة الرخام ، ومذبحٌ أعمى يعطّره الدخانْ !

حلمٌ لآباءٍ يتوّجُ بالفلِّ أو القرنفلِ ، وردةٌ للشِّعرِ ، والفتياتُ يملأنَ السلالَ بموجةٍ خضراءَ في صبحٍ زجاجيٍ ! / هياكلنا تعرّيها الرياحُ ، وجوقة الأسمالِ تجمع في احتفال الطينِ أحداقاً قواقعَ ، ثمّ تنشر زيّها الهزليّ في ليل المداخلِ ! / كان ميقاتٌ لأوراق الرضاعةِ ، والصدور تشفُّ عن حمّى ، وفي شجر المساء تصاحب الأجفانُ دالية الجفافِ ، وكوكبُ الحيوان تقطفه شباكٌ ، والعذارى يستبيح نهودهنّ شعاعهُ الفضيُّ ، تنثره خواتيم القطافِ ، غداةَ يقطع سرّه النهر الوحيدِ بمديةٍ خضراءَ ، إذْ يأوي المحارُ إلى فراش الطميِ ، والأغصانُ شاخصةٌ إلى أفق النذورِ ! / وربّما امتلأتْ خوابي الأمهات بحنطةٍ خضراءَ ! / أوعية الزبيبِ تفيضُ ، تفضح كَرْمة الأشياء عن جسدٍ ، وفي ليل البذورِ تذيع رائحة الحليّةِ هذه الأرضُ التي التصقتْ بها أذنٌ لتسمع كائناتٍ بالندى الوحشيِّ تنبض لذّةً لم تكتملْ ! /

شفةٌ لتلحس خنجراً أعمى ، وساعاتٌ لحوذيِ الزمانْ !

وتجمّعاتٌ للخيولِ وللحوامل قرب مزولةٍ ! / خواصرُ تشرب الآهاتِ ما زالتْ موائدها تفاجئها أصابعُ عندما اعتنقتْ عناصرها ، وعرّاها الصباحُ ! / وسادةٌ للعذرة الأولى وأوتارٌ ونافذةٌ : أتدخل نسمةُ الشهواتِ في هذا المكانْ ! /

وخلف هندسةٍ مقدسةٍ تباركها العيونْ

الأرضُ والطين المدنّس توأمانْ !

لِغَدٍ ستنقشه النصوصُ على المدافن أو يكفّنه النشيدُ

لِغَدٍ سيجمع في سريره شهوة الأزواجِ : تتحسر المدائنُ ، أو تهاجر ، أو تبيدُ . . .

لغدٍ تصالح والجنونْ

لمساء عائلةٍ من الأشباح تصحبُ مهدَنا الحجريَّ أشرعةٌ ، ويجمعنا الحديدُ !

والفحل يرشحُ من بلاغته هوى مرٌّ ، وتهجره إناثْ
لغد به احتفلت شرائقُ : سوف يتفجر الأثاثُ !

زبدٌ وريش للمداري

ورقى لحمل زائف ، ونبوءة الأوراق تكتمها عجائزُ خلف حامية النقوشِ ، وخلف أجنحة الغبارِ

والأرضُ تهبط في مباذلها : لِتَنْفَطِر السماءُ بوردة البرق الذي ما عاد منتظراً ، ليجبُرِ القمح مكتملاً ، ومن غرف الظلال حديقةٌ سوداء تنهضُ في الخيالِ ! /

هذي هياكلنا تعرّيها الرياحُ هنا ، توسّدها اللآلي بين فئران لأهراء المؤونة ، بينما الكسر النبيذ على الخوان ! /

لم يتّسعْ بيتٌ لأنفاس السريرةِ ، والدعاء تبثّهُ عينٌ ، وينفثه لسانْ !
والأرضُ تغلقها ، وتفتحها يدانْ !

هل كنت جاريةً
بالسِّحْرِ ترتعدُ
أم كنتِ مملكةً

خضراء لا تَعِدُ
والكلّ في جسدِ
أم وحدك الجسدُ
زهرٌ ولا ثمرٌ
هيهات ينعقدُ !
ماذا جلوتِ لنا ،
أو ما جلا الزبد
والأرض تحتشدُ !
وغداً إذا اتسعت
رؤيا ، وضاق غدُهُ
هل ينحني أفقٌ ،
أم يُبْعَثُ الجسدُ ؟

★

شفقٌ يبعثر موجة الصلصالِ في الأيدي ، وفي ناري أتوّج قبّة الأعضاء ، أختم في ملائك سفرها الوحشيِّ باديةً ، فتطلقُ من سلاسلها ذكور الماء ، والجسد الذي امتهنَتْهُ أنفاق الخناسِ يفوح في كحلٍ وعطر ، ثم تكشف عن عباءته البلاغة في مراهمَ ما تزال ترتّل الأصابعُ لذّتها ، وتغزوه العيونُ غداة تغزوه الأصابعُ ! / من سيمسح عالم الجسد الوحيدِ ، يعيد ترتيل الأكفّ الطيبات ، بنزوة الأغصانِ يملؤها ، فتلتقط البيوضَ وما تناثر من جذورٍ أو بذورٍ . . .

لمذنّبٍ يهوي ، لذعرٍ في عيون الأمهاتْ

لغدٍ ، لكوثر رغبةٍ جسدان يشتعلان في جسدٍ ، فيجري في الجهاتْ

نهرٌ يوزّع ضفّتيه ، وتربةٌ نهضتْ سنابلها ! / ستارٌ من معادنَ ، والمواد تشفّ عن أفقٍ بعيدٍ ! /

اكتشفتك ، وانتظرتُ إناءك الوثنيّ ! / هل حلّ البياضُ على المنازلِ ، والرطوبةُ في المسامِ ، غداةَ ترشح سرّة بالسوسن القمريّ ؛ مجراها تحفّ به اليواقيت الكريمة والجمانْ ! /

جسدٌ هو البيت الوحيدُ ، وخلف ميقات الجسدْ

أبصرتُ أمس مذاقك الأرضيّ يقطف في انحناءته سبات الكائناتْ !

يا سلطة الحلم الخفيّ الأوليّ تردّنا نَفَساً وصلصالاً إليها : هل سأبعثُ في ربيع الطين أسمائي وأوراقي ، ولي لغةٌ تعيدُ إليّ حكمة/ هذه الأرض ! / ابتدأنا ، وانتهينا . .

من سيولدُ ، أو يموتُ ؟ ومن سيُدفَن في شتاء من خناجرَ ؟ كيف نقتسم الرغيفَ مع النهارِ ؟ / ومن سيرفل بين أقمطة المهابة والحنانْ !

وأنا وأنت مطاردانِ وقادمان وغائبان وحاضرانْ !

متوحشاً كالنسغ أولدُ فيكِ ، أسكنُ ، أحتويكِ ، وفي قفيركِ أغني ، وأطلّ منه على المكانْ !

هل كنتُ أبتعدُ
أم كنت أقتربُ
وأنا أرى جسداً
يذوي فيلتهبُ !
هل بيننا ولَنٌ
أمْ بيننا حجبُ
وعروقنا التحبتْ
إذ خيّم الذّهبُ !

★

شفقٌ ببعثر موجة الصلصالِ في الأيدي ! / أرى خبزاً ، أرى لحماً ومائدةً ، زجاجاً في شرايين العشاء ! / وهذه الأجراسُ تُقْرَعُ في سماء الحَشْد ! / أيّة سُلطة عمياء خلف المسرح الوهميّ ! / أجنحةٌ لعائلة مسيّجة ، وأقفاصٌ لأرصفة الربيعِ ، ونسوةٌ يشعلنَ أسمال المصارفِ قادماتٍ في مواكبَ أو بضائعَ ، غافياتٍ في حراشفَ !/

وردة الشهواتِ للطقس المؤقّتِ ! / والأمومةُ ترشحُ الأحماضَ ! /

أقماطٌ وأكفانٌ لتلك اللحظة الأولى . . . وما انكسر المكانْ !

نأوي إلى زمنٍ
عرّافه حجرُ
والقبر ينشطرُ !

★

وإذا انكسرنـــا .

وإذا انتهينا ، وابتدأنا ، كيف ينهضُ ميتان وشاهدان ؟ !

جســـدٌ لعائلةٍ ، سماءٌ من نحاسٍ ، حَمْأة عصَفَتْ ، مخالبُ للصحى ، قمرٌ هوى ، عينانِ جاريتانِ في قبرٍ تؤاكله ، وعَصْفٌ فيه خيراتٌ حســـانْ !

والطينُ والجســـد المبارَكُ يســـجدانْ

والأرضُ تغلقها وتفتحها يـــدانْ ! /

فبأيِّ عائلة سيمتلء المكانْ ! /

* * *

فـــاطـــمـــة

شعر: خالد محي الدين البرادعي

يومَ جاءَ القتلَهْ ،
ما بكتْ فاطمةٌ أحبابَها ،
بل نسجت من دمعها شالاً :
فأيّامُ الشتاءْ .
مقبلَهْ .

ثم حاكت صَمْتَها ،
باقاتِ شعرٍ وغناءْ ،
وامتطتْ أجفانَها مُهْراً ،
لأعلى الجُلْجُلَهْ .

لم يَحنْ عصرُ الرثاءْ .
ـ هكذا قالَتْ ـ
فان الأَنبياءْ . .
صُلبوا أَوْ قُتلوا ،
حولَ الرؤى المشتَعلَهْ .

ما كنتُ ،
ما فاطمةٌ
إلاّ طريقٌ لمرورِ الأَنبياءْ
لتَظلَّ الشُّعَلُ الخُضْرُ
بأعماقِ المدَى مُتَّصلَهْ

* * *

ما بكتْ فاطمةٌ
بل شاهدتْ عَصْراً هَوى ،
بيْنَ الخرائبْ ،
وزماناً فرَّ من ذاكرتهْ ،
ضَلَّ في التيهِ
فَأَهْوى
تحتَ وجهِ المقْصَلَهْ .

ورأتْ فاطمةٌ ،
كيف يسيرُ الجامعُ المكتظُّ بالأحلامِ ،
من غير حُداء ،
لم يَجِدْ – حتى ولا –
آيةً تُتْلى لِتَحْمي القتلَهْ .

يومَها فَرَّتْ من الغيْظِ قِبابُهُ ،
نسيَتْ ،
كيفَ تُغَطّي ساعةَ النَّحرِ . .
وجوهَ القتلهْ .
انحنتْ مئذنةٌ في الرَّمْلِ ،
واستلقتْ ، ومن غيْرِ غطاء ،
عانقتْ طائفةً من أسئلهْ .
دونَ أنْ تؤذيَ مَنْ هَدَّمَها .
أو تَشيلَ النَّعَسَ الراكِضَ
من فوقِ جُفونِ القتلهْ .
والمصلّونَ يلوكونَ الغُبارْ ،
ويُناجونَ الحجارةْ ،

* * *

كيفَ ؟
قالوا . . يترُكُ اللهُ مُحِبيَّهِ ؟

وفي ضوءِ النّهارْ ،
وهُمْ في ركعةِ الظُّهْرِ الأخيرَهْ ؟

★ ★ ★

ومشَتْ فاطمةٌ ، في ظِلِّ تِلْكَ المِئْذَنَهْ ،
تتَحَرَّى الرَّمْلَ والأطْلالَ ،
عن بيتٍ هُنا كانَ ،
وكانَ الأهْلُ فيهِ .
زرَعوا أحلامَهُمْ ،
في مَوْسِمِ الحَرِّ ،
وفي نَزْوَةِ الريحِ ،
ومِنْ . أوّلِ البَدْءِ
إلى يومِ مجيءِ القَتَلَهْ

★

سمعتْ صَوْتاً منَ الأطْلالِ ناداها
وَوارى صَمْتَها
— : هاجَروا ،
أوْ قُتِلوا .
فاتْرُكي
أستارَهُمْ مُنْسَدِلَهْ .

★

لا . .
تمتمتْ فاطمةُ . .
لا . .
رَدَّ الصَّدى . . لا . .
حتّى ولَوْ غطّوا فَراغَ الجُلْجُلَهْ ،
بدماءِ الأنْبياءْ .
أوْ أحالوا الجُلْجُلَهْ
غابَةً مِنْ خَشَبِ الصَّلْبِ .
لِيرْقى البُسَطاءْ .

سَمِعَتْ فاطِمَةُ ،
صَوْتاً من الأُفْقِ يَجيءْ .
عرفَتْ صاحِبَهُ . .
أنَّ السيوفَ التهمَتْ في الحَرْبِ ،
أحداقَ الصِّغارْ ،
ورُؤوسَ البُسَطاءْ .

* * *

تابعت فاطِمَةُ ، رِحْلَتَها في الصَمتِ ،
لا الرَّمْلُ لَهُ صَوْتٌ ،

ولا البَحْرُ يُجيبْ .
تَزْرَعُ الأَهْدابَ في الحُزْنِ ،
ـ وقدْ عَشّشَ في الأَطْلالِ ـ
لا الليلُ يُناديهِ ،
ولا الصبحُ قريبْ .
ورأتْ فاطمةٌ قطرةَ دَمْ ،
لم تَزَلْ ساخِنةً ،
ترعُفُ منْ ثَغْرِ حَمامةْ .
ساءَلَتْها :
أنتِ أقلقْتِ إذَنْ راحتَهُمْ .
فاسْتَسْلِمي للصَّلْبِ في ظِلِّ الخرابْ
واجْمدَي . .
في مقلَةِ الطاغي ، إلى يومِ القيامَةْ ،
إنْ يَكُنْ مُنْقِذَ هذا الكَوْنِ . .
في عَصْرِ اليَبابْ .
رأسُ طِفْلٍ ،
أوْ هَديلٌ لحِمامَةْ .

* * *

قَبْلَ أنْ تُغمِضَ عينَنا فاطِمةْ .
حاولَتْ أنْ تَسْأَلَ ناقوساً ،
أخافوهُ ،

فَأَخفي وجهَهُ تحتَ التُّرابْ .
ـ : أَوَلَنْ تفرَعَ بَعْدَ اليوم ؟
أَمْ تَبقى هُنا بينَ الحُطام ؟
قالَ : مَنْ يرْفَعُ عَنّي الكتلَ السودَ
لأَدْعو للسّلامْ ؟
أَنظُري فاطِمَةُ . .
مَرْيَمُ لَمْ تُبْصِرْ . .
لعيسى أَثراً فوقَ الصَّليبْ .
وأنا . . .
أَترُكيني . . . سأنامْ

* * *

أَوْهَنَ السَيْرُ قُوى فاطِمَةَ ،
فارْتَمَتْ في حُزْنِها ،
واعتنقَتْ أحلامَها المُعْتَقَلَهْ .
مَرَّ طِفْلٌ مِنْ هُنا ،
وانحنى . .
مُبْتَسِماً ،
يَنْظُرُ عَيْنَيْ فاطِمَهْ
لم يَجِدْ أُمّاً ، ولا والِداً يَسْأَلُهُ
: كيفَ تَبكي النائِمَهْ ؟

يبرود ـ ١٩٨٥

* * *

قصة

الحسناء أم النمر؟

قصة قصيرة مترجمة من الادب الاميركي :

فرانك ستكتون
ترجمة د. محمد سليمان الدجاني

في احد العصور الغابرة ، عاش امبراطور روماني ذو أهواء غريبة ، وكان صاحب سلطة لا تقاوم ، عند ارادته تتحول كل نزواته المتعددة الى واقع . وكان ذلك الامبراطور يكثر من فتح الحوار وتبادل الافكار مع نفسه ، فان اتفقا على أمر ما ، يصبح نافذا على الفور . وحين تبدو الامور على احسن ما يرام ، يكون رقيقا لطيف المعشر . ولكن ، في الوقت الذي تقع به أقل الاشكالات ، فانه يصبح الطف وارق حيث أن ما من شيء كان يسعده ويرضيه كتصحيح ما شذ او تقويم ما اعوج .

ومن افكار الامبراطور « النيرة » كانت اقامة مدرج عام لصقل آراء رعاياه وتهذيب أفكارهم ، وذلك عن طريق استعراض الشجاعة الانسانية والحيوانية . ولكن ، حتى في مثل هذه الامور ، فان نزوات هذا الامبراطور الروماني اكدت نفسها . فهذا المدرج بشرفاته الدائرية وسراديبه الغامضة وممراته الخفية ، اصبح اداة لتطبيق العدالة الخيالية Poetic Justice حيث تعاقب الجريمة وتكافأ الفضيلة بقوانين الحظ التي لا تخضع لمنطق العقل ولا تؤثر عليها عوامل الرشوة او الفساد . فحين يتهم مواطن بجريمة ما ، تكون من الاهمية بحيث تستدعي انتباه الامبراطور وتحوز على اهتمامه ، كان يصدر مرسوما عاما يحدد فيه يوما يتقرر به مصير المتهم في المدرج الامبراطوري .

في اليوم المحدد ، وبعد ان تحتشد شرفات المدرج بجموع الجماهير المتلهفة لمعرفة ما ستسفر عنه نتيجة المحاكمة ، يجلس الامبراطور على عرشه في المنصة الامبراطورية ، تحيط به حاشيته . وباشارة منه ، يفتح باب في احد جوانب المدرج يخرج منه المتهم الى وسط المدرج ، حيث يرى في الجهة المقابلة بابان متقاربان ومتشابهان تماما . وكان على المتهم ان يتوجه مباشرة الى احد البابين فيفتحه . وكان له الحق في اختيار فتح اي من البابين يشاء ، دون الحصول على توجيه او التعرض لاي تأثير معتمدا فقط على عنصر الحظ . فاذا كان حظ المتهم عاثرا ، يفتح بابا يقفز منه نمر جائع هائج كاسر من اشرس ما امكن اصطياده ، ينقض عليه فيمزقه اربا اربا ، عقابا له على ما ارتكب من ذنب . وفي اللحظة التي تحسم فيها القضية بهذا الشكل ، تقرع الاجراس الحديدية بشدة ، وتعلو اصوات العويل من نساء تجمعن على الحلقة الخارجية للمدرج استأجرن لهذا الغرض ، وينصرف جموع الحاضرين الى بيوتهم ، مطاطىء الرؤوس مكلومي الافئدة ، والحزن مرتسم على وجوههم من المصير المرعب الذي واجهه ذلك الشاب التعس او الكهل الجليل

ولكن ان كان المتهم صاحب حظ سعيد ، يفتح بابا تخرج منه فتاة من اكثر النساء ملائمة لسنه ومركزه ، تتيه حسنا وجمالا ورقة وعذوبة، اختارها له الامبراطور بنفسه من اشرف العائلات في الامبراطورية . فيعقد قرانه عليها في الحال ، كرد اعتبار له وكمكافئة على اثبات براءته . ولم يكن من المهم ان يكون المتهم متزوجا او له عائلة او مرتبطا بفتاة اخرى ، اذ لم يكن يسمح الامبراطور لاي من هذه الترتيبات السابقة بالتدخل في مخططاته لتنفيذ العقاب او للحصول على المكافأة .

وهذه الممارسات كما في الاحتمال الاخر ، تاخذ مجراها على الفور . فمن تحت المنصة الامبراطورية ، يفتح باب يخرج منه كاهن وفرقة من المنشدين ومجموعة من العذارى يرقصن في الهواء الطلق على اصوات المزامير الذهبية احتفالا بالمناسبة السعيدة، فيتجه الجميع نحو العروسين،

وتبدأ مراسيم الزواج وسط الموسيقى والرقص والغناء ، وتقرع الاجراس النحاسية انغاما مرحة . وعند انتهاء الاحتفال ، يقود العريس عروسه الى بيت الزوجية عبر ممر يفرشه الاطفال المرد بالازهار والورود والرياحين .

كانت هذه هي الطريقة التي إعتمدها الامبراطور لإقرار العدالة في امبراطوريته ،ومن الواضح عدالتها ، اذ لا يمكن للمتهم معرفة ما يخبئه له هذان البابان وهو يفتح أيا منهما يشاء ، دون ان تكون له ادنى فكرة ان كان في اللحظة التالية سيفترسه النمر أو سيتزوج الحسناء . في بعض الاحيان خرج النمر من باب ، وفي أحيان اخرى من الباب الآخر . والقرارات لم تكن عادلة فقط ، بل حاسمة ايضا . فالشخص المتهم كان يلتهم على الفور ان وجد مذنبا ، ويكافأ على الفور ان كان بريئا . رغب في ذلك ام لم يرغب ، دون ان يكون له اي مهرب من عدالة حلبة الامبراطور .

كان لهذه المؤسسة القضائية شعبية واسعة ، اذ انه حين يجتمع الجمهور في يوم المحاكمة الكبرى ، لم تكن لديه اية معرفة مسبقة ان كان سيشهد مذبحة دامية ام عرسا مرحا . واعطى عنصر الغموض اثارة خاصة للمناسبة ، مرفها عن الجماهير وعاملا على الهائها . ولم يستطع المفكرون الاحتجاج على هذه الطريقة بتوجيه الاتهام لها بانها غير عادلة : الم تكن زمام الامور ممسكة بيد الشخص المتهم ؟

كان لهذا الامبراطور ابنة متفتحة كالورود ، ذات انوثة دافئة وجمال اخاذ وروح متعالية كروحه . وكانت هذه الابنة قرة عينه ومحبوبة لديه اكثر من اي انسان . وكان هنالك من ضمن حاشيته ، شاب عوض منبته الوضيع برجولة متقدة وشباب وثاب وشجاعة نادرة ، كاولئك الابطال الرومانسيين الذين تعشقهن الاميرات . وكان من الطبيعي ان تقع ابنة الامبراطور بغرامه ، وأن تعشقه بحماس وعاطفة متقدة ، امدت حبهـا بكثير من الدفء والعنفوان .

وقد استمرت العلاقة الغرامية بين ابنة الامبراطور ومحبوبها فترة من الزمن الى ان وصلت يوما لاسماع ابيها ، فجن جنونه ، وامر بالقاء

الشاب على الفور في غياهب السجون ، انتظارا لمحاكمته في الحلبة الامبراطورية على الجرم الذي ارتكبه . وقد اهتم الامبراطور كثيرا بتطور اعمال هذه المحاكمة ونتائجها ، اذ لم يتجرا احد من افراد العامة من قبل على الوقوع في غرام ابنة امبراطور .

تم القيام ببحث واسع في جميع ارجاء الامبراطورية لاختيار اشرس النمور للمشاركة في هذه المناسبة . كما اجريت عدة مسابقات لاختيار اجمل الفتيات لتصبح عروسا مناسبة ان لم يقرر الحظ مصيرا مختلفا للمتهم . وبالطبع ، علم الجميع بالجرم الذي ارتكبه المتهم ، لقد احب ابنة امبراطور ، ولم يستطع هو او هي او اي شخص آخر انكار ذلك . ولم يسمح لاحد بالتدخل في مجريات الامور . وقد وجد الامبراطور سعادة غامرة في ترقب تطور الاحداث التي كانت ستقرر ان كان ذلك الشاب قد ارتكب جرما في السماح لنفسه بالوقوع في غرام ابنته ، خاصة انه مهما كانت نتيجة المحاكمة ، فان الشاب المحب يكون قد ابعد عن طريقهما .

وجاء اليوم الموعود ، وتقاطر الشعب من جميع ارجاء الامبراطورية الى المدرج الامبراطوري الذي امتلات صفوفه ومدرجاته بالناس من جميع الطبقات وتجمع اولئك الذين لم يتمكنوا من الدخول خارج ابواب المدرج ، منتظرين نتيجة المحاكمة . وعندما جلس الامبراطور على عرشه في المنصة الملوكية وحاشيته من حوله في مواجهة البابين التوامين ـ تلك المداخل القدرية المتشابهة كثيرا في منظرها ، اصبح كل شيء جاهزا . فاعطى بيده الاشارة بفتح الباب تحت المقصورة الملوكية ، ليخرج منه الشاب العاشق الى وسط ساحة المدرج . وقد ادى ظهوره بقامته الرشيقة الفارعة وملامحه الوسيمة ومظهره الانيق الى همهمة بين المشاهدين ، عبرت عن احترامهم وتقديرهم وتلهفهم لمعرفة مصير هذا الشاب الذي لم يدركوا سابقا بوجود انسان مميز مثله يعيش في اوساطهم . لا غرابة بان ابنة الامبراطور احبته ! ما ارهب ان يكون في ذلك الموقف !

وعندما توقف الشاب في منتصف المدرج ليحني رأسه للامبراطور كما جرت العادة ، حبس المشاهدون انفاسهم ، ورانت على الجميع لحظة من الصمت المترقب . ولكن ، لم تستحوذ هيبة المناسبة على تفكير الشاب الذي حاول اختلاس النظر لابنة الامبراطور الجالسة على يمين ابيها والتي لو لم تكن البربرية متاصلة في طباعها ، لتغيبت عن الحضور. ولكن عاطفتها المتاججة وكبرياؤها المتقد لم يسمحا لها بالتغيب عن مناسبة ستقرر مصير من تحب .

كانت الفترة التي سبقت المحاكمة فترة معاناة وترقب لابنة الامبراطور، اذ انه منذ اللحظة التي صدر بها المرسوم الامبراطوري بتقرير مصير معشوقها في مدرج الامبراطور ، لم تتمكن من التفكير بأي شيء سوى هذا الحدث العظيم ، والاشخاص المرتبطين به . وبما ان قوتها ونفوذها وسلطتها تزيد عن الآخرين . فانها فعلت مالم يتمكن من فعله احد على الاطلاق — استطاعت الحصول على سر البابين ، وعلمت وراء اي منهما يرقد النمر في قفصه متحفزا مترقبا ، ووراء اي باب تجلس الحسناء تنتظر . ومع أنه من المستحيل أن ينفذ من خلال تلك الابواب العريضة والمبطنة بالجلد اي صوت او دلائل تشير الى ما سيخرج منها حين يقترب المتهم نحوها ليرفع المزلاج عن احدها ، الا ان المال وقوة ارادة المرأة ، مكناها من الحصول على السر .

تمكنت ابنة الامبراطور من معرفة وراء اي باب تجلس الحسناء بوجه متورد خجول مستعدة للخروج في حال فتح الباب ، بل عرفت ايضا من الحسناء التي تم اختيارها من بين وصيفاتها لحسنها ورقتها وجمالها ، جائزة للشاب المتهم ان ثبتت براءته من الجريمة التي ارتكبها . وقد كرهتها ابنة الامبراطور ، اذ انها امسكت بتلك المخلوقة الجميلة مرارا تسترق النظر الى محبوبها وتخيل لها أن حبيبها قد انتبه لهذه النظرات ورد عليها بالمثل . وكانت من وقت لآخر تراهما يتحدثان سويا لحظات قصيرة ، وقد يكون ما قيل تافها ، ولكن كيف لها معرفة ذلك ! كانت

الفتاة جذابة ومحببة للنفس ، ولكنها تجرات ورفعت عينيها الى حبيبها. وبكل حدة الدم المتوحش الذي ورثته من سلالة عريقة من الاسلاف البرابرة كرهت ابنة الإمبراطور تلك الحسناء الجالسة وراء ذلك الباب الصامت ترتعش بوجه متورد خجول .

حين التقت عينا الشاب العاشق بعيني ابنة الامبراطور حيث كانت تجلس بوجه اكثر بياضا وشحوبا من اي من الوجوه المترقبة حولها ، ايقن ذلك الشاب بحدسه الصادق وبالاتحاد الروحي الذي يربط المحبين؛ بأن محبوبته على علم وراء اي باب يقبع النمر المفترس ، ووراء اي باب تجلس الحسناء . ولم يستغرب ذلك ، اذ من خلال فهمه لطبيعتها تأكد له بأنه لن يهدأ لها بال الى ان يصبح معلوما لديها السر المتواري عن اعين جميع المشاهدين ، حتى عن الامبراطور نفسه .

تشبث الشاب بالامل الوحيد الذي تبقى له ، الا وهو نجاح حبيبته في حل هذه الاحجية . وفي اللحظة التي رفع نظره اليها ، راى انها قد نجحت في ذلك . وطرحت نظراته الضارعة الملهفة السؤال : « اي منهما ؟ » وكان ذلك جليا لابنة الامبراطور ، وكأنه أطلق صرخة مدوية من حيث يقف . ولم يكن هنالك اي مجال لاضاعة الوقت . السؤال طرح كلمح البصر ، ويجب الاجابة عليه ايضا بلمح البصر .

ورفعت ابنة الامبراطور يدها اليمنى المرتكزة على وسادة امامها بحركة سريعة لم يتبينها الا حبيبها باتجاه الباب الايمن . عندها ، توجه الشاب بخطى ثابتة وسريعة نحو الباب الواقع على الجهة اليمنى وفتحه دون أدنى تردد . وفي تلك اللحظة توقفت نبضات قلوب المشاهدين ، وامسك الجميع بانفاسهم وتسلطت اعينهم على الباب المفتوح

من خرج من الباب المفتوح : النمر ام الحسناء ؟ كل من تمعن في هذا السؤال صعبت الاجابة عليه . فهو يشتمل على دراسة النفس البشرية التي تقودنا في مجاهل ممرات العاطفة التي لا يمكن لنا سبر غورها . فكر

في ذلك ايها القاريء المنصف ، ليس وكان القرار لذلك السؤال المحير يعتمد عليك ، ولكن على ابنة الامبراطور شبه البربرية السريعة الهيجان والتي تتوهج روحها في لهيب نيران الغيرة والامل المتلاشي . اقد خسرته ، ولكن من يجب ان يحصل عليه ؟ مرارا في ساعات يقظتها وفي احلامها كانت تنتفض رعبا ، فتغطي وجهها بيديها من مجرد التفكير فيما سيحدث لو فتح حبيبها الباب الذي تختبيء وراءه انياب النمر المرعبة ! ولكن مرارا ايضا تصورت حبيبها يفتح الباب الآخر ! كم مرة في منتصف احلام اليقظة الحزينة اصرت بأسنانها ونتفت شعرها حين تهيأت لها السعادة التي غمرت حبيبها حين فتح باب الحسناء ! كيف تمزقت روحها من العذاب حين رأته يندفع لملاقاة تلك المرأة بوجهها المتقد وعينيها المتألقتين بسعادة النصر ، وتصورته وهو يقودها الى الامام وكيانه منتعش بالسعادة لاسترداد حياته ؛ تغمره اصوات الفرح المنطلقة من الجموع المحتشدة مختلطة برنين الاجراس المرحة . وكم مرة تهيأ لها الكاهن واتباعه وهم يقودون العروسين بجذل وسرور ليكللانهما زوج وزوجة امام عينيها ، ثم ينطلق حبيبها وعروسه بعيدا عنها في الممر المزدان بالورود والازهار ، تلاحقهما الصرخات الهائلة لجموع المشاهدين التي اغرقت صرخة الياس والالم الصادرة عنها ! اليس من الافضل له ان يموت على الفور ويذهب لينتظرها في ذلك المكان المبارك لحياة المستقبل الابدية !

ولكن ، ذلك النمر المرعب وتلك الصرخات والنديب وتلك الدماء ! ومع انها عبرت عن قرارها بلمح البصر ، الا ان اتخاذ ذلك القرار اخذ منها اياما وليال من عذاب الفكر . فهي كانت تعلم بان السؤال سوف يطرح عليها ، والذا كانت مستعدة للاجابة عليه ، ودون ادنى تردد حركت يدها الى اليمين .

ان مسالة قرارها امر يجب ان لا يؤخذ بسهولة ، ولست انا الشخص المؤهل للاجابة على مثل هذا السؤال . واني هنا اترك الرد لكم جميعا — اي منهما خرج من الباب المفتوح : الحسناء ام النمر ؟

الكاتب :

ولد مؤلف القصة فرانك ستكتون (١٨٣٤ – ١٩٠٢) في فيلادلفيا بالولايات المتحدة من عائلة قدمت الى اميركا عام ١٦٥٦ . ومع ان مهنة ستكتون الاساسية كانت الحفر على الخشب ، الا انه عمل على كتابة قصص قصيرة لتوافق ما يقوم به من رسومات محفورة على الخشب . وفي عام ١٨٧٠ ، نشرت له مجموعة من القصص القصيرة للاطفال . ورغم انه نشر عدة مؤلفات، الا ان شهرته بنيت على قصة «الحسناء ام النمر؟» التي اثارت ضجة كبيرة وجدالا واسعا عندما نشرتها صحيفة اميركية مغمورة ، اذ انهالت آلاف الرسائل على الصحيفة ، يهاجم اصحابها المؤلف لتركه القصة دون نهاية ، مطالبينه بتكملتها . وحين لم يستجب لمطلبهم، بدا هؤلاء القراء بصياغة ما اعتبره كل منهم نهاية مناسبة للقصة . وكانت مجمل وجهات نظرهم تعبيرا عن نفسية كل منهم ورايه في طبيعة المراة وتفكيرها وشخصيتها . وقد اثارت هذه القصة منذ نشرها ، جدلا ونقاشا وحوارا اكثر من اية قصة قصيرة على الاطلاق .

* * *

عن وزارة الثقافة صدر حديثاً

الجندي الطيب شفيك

وما جرى له في الحرب العالمية

الجزء الاول والثاني

روايات عالمية

تأليف
ياروسلاف هاشيك

ترجمة
توفيق الاسدي

* * *

على جناح الذكرى

حكاية حياة وملامح مدينة

الجزء الرابع

رضا صافي

آفاق المعرفة :

المشروع الوحدوي العربي
ومأزق القوانين الثلاثة

محمد عرب

«القارئ والنص»
استجابة متلق

د. عبد النبي اصطيف

نافذة على الثقافة العالمية

صالح الرزوق

المشـــروع الوحـدوي العربي ومـأزق القوانين الثلاثة

محمد عـرب

قدم المفكر العربي الدكتور نديم البيطار في مقاله « من التجزئة الى الوضعية الوحدوية » ـ المنشور في مجلة الوحدة ، العدد السادس ـ وفي مقالاته اللاحقة مجموعة من الافكار والاراء التـي تعتبر استمرارا لوجهات نظره السابقة المنشورة في كتبه ومقالاته ويمكن ان يكون المقال بمثابة تاكيد على هذه الافكار التي يلخصهـا مقاله الذي بين ايدينا . فالمقال بالواقع لا يضيف شيئا جديـدا الى هذه الافكار . الا ان ما يسترعي الانتباه في هـذا المقال هـو التشديد على دور مصر الذي تتمحور حولـه فكـرة « الاقليم ـ القاعدة » في ابحاث مفكرنا رغم كل ما استجد على الساحة العربية وخلاصته بان الوحدة غير ممكنة بدون مصر .. وبما ان السلطة في مصر قد انحرفت ، او تخلت عن دورها القومي الرائد منذ المرحلة الساداتية فان على العرب ان ينتظروا حتى تعود مصر اليهم ، حاملة همومهم القومية لكي يبدا العمل الوحدوي . ولكي اكون دقيقا في عرض ما يقوله الدكتور نديم البيطار ، فانني سانقل فقرات مـن مقالة ، وساحاول استعراض الافكار الرئيسية التي قدمها في كتبه للوصول الى اعطاء فكرة متكاملة بقدر الامكان عن اعمالـه بحيـث نستطيع الدخول في حوار مع افكار الدكتور البيطار ، لاكتشاف مدى الاتساق والانسـجام والتكامـل او التناقض في هـذه الافكـار .

ولكي لا يكون هناك اي التباس عما نتحاور فيه فانني اؤكد بانـي اوافق الدكتور البيطار على اهمية الوحدة العربية واولويتها على كـل القضايا الاخرى الملحة ف « التحديات التي تواجه المجتمع العربي . هذه التحديات كثيرة ، ولكن تحديات التجزئة ، التحديات التي تتفرع منها وتترتب عليها ، تتقدم على جميع التحديات الاخرى من حيث خطرهـا واهميتها بالنسبة للمستقبل العربي . فبدون حل وحدوي جذري يسحق التجزئة نهائيا ويقيم على انقاضها دولة الوحدة ، لا يمكن ليس فقـط التغلب على التحديات الاخرى بل حتى مواجهتها باي فاعلية او حتـى باية جديـة »(١) .

فخلافنا مع الدكتور البيطار ليس على اهمية الوحدة واولويتها ، وانما على الطريق التي يرسمها لتحقيقها ، والكشف عما تؤدي اليه هذه الطريق ، رغم كل الالحاح المشروع الذي عبر به مفكرنا عن حاجة العرب الى الوحدة سريعا . ان السؤال الذي سنطرحه في مقابل سؤال الدكتور بيطار « ما هي الطريق الى تحقيق الوحدة العربية ؟ . . » . هل ستؤدي الطريق التي يحددها لنا الى تحقيق الوحدة العربية سريعا ؟ .

قبل ان نحكم لابد من قراءة اجابة الدكتور بيطار على سؤاله عبـر أعماله التي تساعدنا على التعرف على الاجابة بدون اي غموض . وفـي الواقع ان هذا ليس صعبا لان الدكتور بيطار يتميز بوضوحه فيمايكتب .

دعـوة للانتظار . .

أحاول اولا اعادة قراءة الافكار الرئيسـية في المقال المنشور والتي يجيب بها الدكتور بيطار على سؤاله « ما هي الطريق الى تحقيق الوحدة العربيـة » .

يقول الدكتور بيطار « هذه الطريق هي دراسة الظاهرة الوحدوية عبر التاريخ ، اي التجارب التي كانت تنتقل بها مجتمعات مجزاة وكيانات

سياسية مستقلة من حالة تجزئة الى حالة وحدة»(٢) . ويستنتج الدكتور بيطار من دراسته لهذه التجارب الوحدوية العالمية القوانين الاساسية والثانوية التي تؤدي الى تحقيق الوحدة العربية . فيقول لحل مشكلة التجزئة لابد من توفر ثلاثة قوانين اساسية « في كتاب « من التجزئة .. الى الوحدة » كشفت انه من الممكن ، بل من الضروري تقسيم القوانين الوحدوية العامة التي تكشف عنها تجارب التاريخ الوحدوية الى قسمين قسم اساسي من ثلاثة قوانين ، وقسم ثانوي من ثمانية عشر قانونا ... القسم الاول يتشكل من اقليم ــ قاعدة يقود عملية التوحيد السياسي ويرتبط به العمل الوحدوي عبر المجتمع المجزأ ، وقيادة مشخصة تجسد الهدف الوحدوي ، ترمز اليه ، وتستقطب مشاعر الشعب وولاءه عبر هذا المجتمع ، وتحديات ومخاطر خارجية تولد الضغوط التي تدفع المجتمع المجزأ الى وحدة سياسية يقاوم بها هذه التحديات والمخاطر . ولقد اسميت القسم الثاني بالقسم الثانوي ليس لانه دون اهمية كبيرة بل لان طاقته الوحدوية ترتبط بتوفر القسم الاول »(٣) فما هو الاقليم المثالي الذي يعتبره الدكتور بيطار صالحا للعب هذا الدور ؟ .

يقول الدكتور بيطار « لقد شرحت ايضا في تلك الدراسات أن مصر هي القطر العربي المؤهل لان يقوم بدور الاقليم ــ القاعدة »(٤) . وبما ان وجود « الاقليم ــ القاعدة » لوحده لا يكفي لتحقيق عملية الوحدة أو البدء بها ، وبما ان هذا الاقليم يحتاج الى « قيادة مشخصنة تجد الهدف الوحدوي ، ترمز اليه ، وتستقطب مشاعر الشعب وولاءه عبر هذا المجتمع » . وبما ان هذه القيادة لا تتوفر لمصر حاليا بسبب « خروج مصر عن دورها » ، فان الدكتور بيطار يتوصل الى نتائج خطيرة تدعو الى التوقف عن بذل كل جهد وحدوي . « خروج مصر عن دورها كاقليم قاعدة ، يعني زوال قانونين اساسيين من القوانين الثلاثة التي يجب توافرها تماما كي يمكن لها بالاضافة الى القوانين الثانوية المتوفرة في معظمها ، ان تخلق الوضعية الوحدوية التي يجب ان ينطلق منها كل عمل وحدوي فعال »(٥) ، ولهذا فان على العرب أن يكفوا عن الانتظار

أي وحدة الآن لان « قانونين أساسيين » غير متوفرين همـا ــ مصـر وقيادتها المشخصنة ــ . ولذلك فانه يتوجب على الوحدويين طبقا لهذه المعادلة ان يناضلوا في تلك المرحلة لاعادة مصر الى الصف العربي ،لتحتل موقعها الطليعي ، والطبيعي ، اذا كنا نريد أن نرى الوحدة . « لهـذا كان الاعداد لوضعية وحدوية جديدة قد تتوافر لنا برجوع مصر الـى دورها كاقليم ــ قاعدة هو العمل الاهم والتحدي الاكبر الذي يواجه الفكر الوحدوي الثوري ، والذي يجب على هذا الفكر ان يركز عليه جميـع طاقاته »(٦) . وعلى الفكر الوحدوي لهذه الاسباب ان يعد عدته بانتظار عودة مصر او اعادتها « كل جهد ممكن يجب ان يوجه حاليا الى «عودة » او « اعادة » مصر الى دورها كاقليم ــ قاعدة »(٧) .

ولكن ماذا علينا ان نفعل في غياب مصر ، وقيادتها المشخصنة ، مـن اجل الوحدة ؟ . واذا كان علينا ان ننتظر فالى متى ؟ متى ستعود مصر كما يريدها مفكرنا ؟ . ومتى ستكون قيادة مصر المشخصنة شعبية ، ومؤثرة حتى تبدأ في تحقيق الوحدة ؟ . واذا كنا لا نستطيع ان نعـرف الجواب على هذه الاسئلة فهل علينا أن نكتفي من العمل بالانتظار والتطلع نحو الشمس الوحدوية المختفية في هذا الزمن الغائم . يجيب الدكتور بيطار علينا أن ننتظر وأن القانون هو القانون « ان ضـرورة الارتباط بالاقليم ــ القاعدة عند توفره في وضعية وحدوية جديدة تنطلق مـن النظرية الوحدوية العلمية الجامعة التي قدمتها (.....) انها تجد شرعيتها العلمية الاساسية في هذه النظرية التي تفرض ذاتها من زاوية القواعـد العلمية والقوانين الوحدوية التي تتشكل منها ، وبالتالي لا يمكن علميـا رفضها كنظرية تحدد الطريق الموضوعية العامة الى دولة الوحدة مادام الذي يرفضها لا يستطيع التدليل ، أولا أن القواعد العلمية التي انطلقت منها (المنهج العلمي الذي اعتمدته) ليس علميـا ، وثانيـا ، ان وقائع التجارب الوحدوية التاريخية التي رجعت اليها هي وقائع كاذبة مزورة وثالثا ، ان القوانين التي كشفت عنها في هذه التجارب ووقائعها غـير موجودة ، اي لا تمثل الاتجاهات الضرورية التي تدل عليها هذه الوقائع

والتجارب ، او ان هناك قوانين أخرى تكشف عنها هذه الاخيرة ، اهم مما كشفت عنه او تلغي ما كشفت عنه »(٨) .

اذاً فالمشكلة كما يراها الكاتب ، ويريد منا ان نراها ، هي مشكلةالقوانين العلمية السائدة وليست مشكلتنا نحن ودورنا وارادتنا . ولذلك فعلينا اذا كنا سنتحرر من سلطة هذه القوانين ان نثبت بأن القواعد التي انطلق منها الكاتب ليست علمية .

فازاء غياب مصر وقيادتها المشخصنة لا تستطيع الجماهير ان تفعل شيئا لقضية الوحدة « فحركة الجماهير والمثقفين (ذوي المصلحة الاولى في دولة الوحدة) لا تستطيع ان تقود في ذاتها الى دولة الوحدة ، ومقوماتها الفكرية والسياسية لا تكفي ، مهما كانت كبيرة ، لاتخاذالمبادرة في الاستجابة العملية لتحديات التجزئة التي تواجهها وفرض هذه الدولة كحل لها ؛ لهذا كان الاقليم ـ القاعدة ، والارتباط به ، القانون الوحدوي الحفاز للوضعيات الوحدوية التاريخية ، وبالتالي العامل الحاسم في عملية التحول الوحدوي التاريخي ، لانه هو الذي يستطيع ان يجسد تاريخيا بشكل عملي فعال تطلعات الشعب الى دولة الوحدة »(٩) .

على الجماهير والمثقفين ان يصمتوا بانتظار حضور السيد الاعلى ، القانون المفقود . ولكن الا يوجد امل آخر ، او طريق ما ؟ .

سنحاول ان نقرأ مرة اخرى بعض افكار الدكتور نديم البيطار في كتابيه « النظرية الاقتصادية والطريق الى الوحدة العربية » و « من التجزئة الى الوحدة » قبل الاجابة على الاسئلة التي يفرضها ، رفضنا للياس ، وطبيعة المقال وقوانينه الصارمة .

الوحدة العربية ومازق القوانين الثلاثة :

من مزايا الدكتور نديم البيطار انه وضع السؤال ، كيف ستحقق الوحدة ، ما هي الطريق اليها ، في مكانه الصحيح . وهو بهذا السؤال حاول ان يعالج قضيتنا القومية الكبرى ، بطريقة جديدة ، فلم ينظر الى

قضية الوحدة كشيء مفروغ منه وآت لا ريب فيه، بل كشيء يجب ان نبنيه ونصنعه بأيدينا . ولذلك فقد انصبت جهوده على تلمس وتبيان هذا الطريق عبر دراساته العديدة . ففي كتابه « النظرية الاقتصادية والطريق الى الوحدة العربية » . يكشف لنا عن وعورة هذا الطريق ، وصعوبة السير فيه كمقدمة لتحقيق الوحدة العربية . كما حاول ان يحدد لنا الطريق الافضل لتحقيق هذا الهدف . يقول في المقدمة «المشكلة الاولى التي يواجهها الفكر الوحدوي (وبالتالي العمل الوحدوي) ليست تقرير ما يجب صنعه (أي الوحدة) ، بل تقرير كيف يجب ان نصل الى ما نقرر صنعه ، ليس ارادة الوحدة بل الطريق التي يجب على هذه الارادة اتخاذها في الوصول الى الوحدة »(١٠) وبما ان الوحدة الاقتصادية واحدة من الطرق المقترحة كوسيلة لتحقيق الوحدة ، فان الدكتور بيطار حاول ان يبين في كتابه خطأ هذا الاتجاه الشائع « القائل بالتنمية او الوحدة الاقتصادية اولا كطريق تمهد وتمد وتدفع ، وتؤدي الى الوحدة »(١١) .

والدكتور بيطار يرفض هذا الاتجاه ، لان التوحيد الاقتصادي وكذلك النمو حسب رأيه قد لا يؤديان الى الوحدة بل الى التمسك بالاستقلال كما اثبتت التجارب التاريخية لعدد من البلدان التي يستعرض تجاربها في كتابه . اضافة الى ان الطريق الاقتصادية طويلة وهي لا تلبي مصالحنا التاريخية وحاجاتنا الملحة التي تستوجب اقامة الوحدة العربية سريعا . فاعتماد نظرية القائلين بالوحدة الاقتصادية كمقدمة لتحقيق الوحدة العربية « يعني بالتالي « تأجيل » الوحدة الى أن يتم تحقيق هذه المنجزات فتصبح هذه الاوضاع الاقتصادية ناضجة ، فيقود هذا النضوج وتلك المنجزات اليها »(١٢) . ان هذا التأجيل هو ما يرفضه الدكتور بيطار في الواقع فضلا عن أن الطريق المرسومة غير مضمونة وطويلة . ولهذا يسجل الدكتور بيطار نقده لهذا المفهوم الشائع عبر كتابه الذي يتجاوز عدد صفحاته الخمسمائة صفحة ، بهدف الوصول الى نظرية وحدوية سنجدها في كتابه الثاني « من التجزئة .. الى الوحدة » . ولكن قبل ان انتقل الى الكتاب الثاني ، ساقتطف من خاتمة الكتاب الاول بعض الفقرات .

_ يقول الدكتور بيطار في خاتمة كتابه _ تحت عنوان « وحـدة دون وحدويين » _ « مشكلة الوحدة العربية هي انها وحدة دون «وحدويين» اقول هذا ببساطة وصراحة ، رغم اعترافي واحترامي لوجود الكثير مـن النوايا والرغبات الوحدوية الصادقة ، الامينة للقصد الوحدوي . ولكن الوحدوية التي يمكن لها ان تدفع نحو الوحدة وتحققها تشترط عنصرين اضافيين ، لا يمكن دونهما ان يستقيم سير هذه الرغبات والنوايـا ، وهما ، اولا : نظرية وحدوية علمية جامعة لتجارب التاريخ الوحدوية . وثانيا : مشاعر وحدوية تقيس ، تفسر ، تعيد ، وتقيم كل شيء في ضوء التزامها الوحدوي ، فتقبل عفويا ما يخدم الوحدة وترفض ما لا ينسجم مع قضيتهـا .

النوايا والرغبات الوحدوية المتوافرة كانت حتى الان ، كمـا راينا في مقدمة هذا الكتاب ، لا تعتمد نظرية من هذا النوع ، ولهذا كانـت تراوح في مكانها ، اعمال اعتباطية عاجزة ليس فقط عن تحقيق الوحدة ، بل حتى عن الدفع نحوها »(١٣) .

ما هي هذه النظرية الوحدوية ، واين سنجدها ؟ يحيلنا الدكتور بيطار الى احتمال معرفة الحل العلمي ، وبالتالي صياغة النظريـة ، بدراسة تجارب التاريخ الوحدوية « احتمالا او امكان وجود حل علمي لمسالة الانتقال من التجزئة الى الوحدة متوافر في تجارب التاريخ الوحدوية ويمكن الوصول اليه بالرجوع اليها ودراستها »(١٤)

وهكذا بعد ان يحطم الدكتور بيطار « المفهوم الشائع » للوصول الى الوحدة العربية عن طريق الوحدة الاقتصادية ، يقدم في كتابـه الثاني « من التجزئة . . الى الوحدة » ما يشكل نظريته الخاصة لتحقيـق الوحـدة العربيـة .

يقول في مقدمة كتابه « هذا الكتاب يقدم دراسة لتجارب التاريخ الوحدوية ، تقارن بينها بغية كشف القوانين العامة التي تسودها ، وتعيد

ذاتها فيها . القصد من ذلك هو الوصول الى نظرية وحدوية علمية جامعة لهذه التجارب تحدد الطريق الى دولة الوحدة بتحديد العملية الموضوعية التي كان يتم فيها الانتقال من حالة تجزئة الى حالة وحدة »(١٥) وفي اطار تقييم الكاتب لعمله يقول « هذه الدراسة تشكل محاولة متواضعة في تقديم نمط فكري جديد ، ينقض من الاساس ، النمط الفكري الذي ساد الفكر الوحدوي حتى الآن . انها تجد قيمتها الاولى في طرح السؤال الصحيح فيما يتعلق بالطريق الى الوحدة »(١٦) .

ومن الطبيعي ان نتوقع من الكاتب بعد هذا التمهيد ان يعطينا الجواب الصحيح على السؤال الصحيح . وهكذا نتيجة دراسة الكاتب لتجارب التاريخ الوحدوية يتوصل الى النتيجة التالية « هذه الدراسة تصل نتيجة مراجعة عامة لتجارب التاريخ الوحدوية الى نظرية من هذا النوع ، وتعين بوضوح القوانين التي تتشكل منها . انها تقسم هذه القوانين الى قسمين ، قسم اساسي وقسم ثانوي او اعدادي . في القسم الاول ، نجد القوانين الرئيسية التي تسود عملية الانتقال من التجزئة الى الوحدة ، من الانفصال الى الاتحاد ، انها لولب ومنطلق هذه العملية، ومن دونها لا يمكن عادة تحقيق هذا الانتقال . تجاوز التجزئة واقامة الاتحاد . لهذا كانت اساسية . انها ، اولا ، وجود اقليم قاعدة يرتبط به ويتمحور حوله العمل الوحدوي في الاقطار او الكيانات المستقلة المدعوة الى الاتحاد . وثانيا ، وجود قيادة مشخصنة تستقطب مشاعر الشعب وتكسب حماسته وولاءه عبر الحدود الاقليمية ، وثالثا ، وجود مخاطر خارجية تولد الضغوط والتحديات التي تدفع الى الاتحاد . .

أما القسم الثاني ، وهو يتشكل من عدد اكبر بكثير من الاتجاهات الواحدة المتكررة ، كتوفر لغة واحدة ، تماثل ايديولوجي ، وتماثل اجتماعي سياسي الخ ... » (١٧) . ولكن العناصر الثانوية تظل عاجزة عن تحقيق الوحدة بدون توافر الشروط الاساسية كما يؤكد الكاتب . ويبين الكاتب بأن « الدراسة الحالية تدل ، كما يرى القارىء على اولوية

العامل السياسي . ان هذا العامل يتقدم على العامل الاقتصادي وغيره من العوامل الاخرى ، لان القوانين الرئيسية التي تتحكم بالعملية الوحدوية هي قوانين سياسية »(١٨) . ولكن الكاتب يعود ليؤكد لنا بشيء من الالتباس في الصفحة التالية بأن الاولوية التي قصدها ، هي اولوية نسبية غير مطلقة . فيقول « ولكن هذا لا يعني ابدا أن الدراسة تقترح اولوية العنصر السياسي على العنصر الاقتصادي من اية ناحية عامة او مطلقة . انها تقدم الاول على الثاني نسبيا فقط ، وفي معالجة وتفسير قضية معينة ، وهي التحول من التجزئة الى الاتحاد السياسي »(١٩) . ويبرر الدكتور بيطار موقفه هذا باعتماده في دراسته « المنظور السوسيولوجي العلمي الحديث الذي ينطلق من هيمنة سببية نسبية ، وهي تقدم العنصر السياسي في هذا الاطار فقط »(٢٠) .

ورغم ان الالتباس كما يبدو هنا يتعلق بالمنهج الذي اختاره الكاتب ، والذي قاده الى النسبية التي يتحدث عنها ، فان المنظور العلمي والنسبية تتحول في المقال الى قواعد مجردة وقوانين مطلقة لا ترحم ، ولا تقيم وزنا لإرادة الناس ، ولا تتزحزح أمام فكرهم أو تأويلهم للقانون . وهكذا نسقط في مأزق القوانين الثلاثة التي افترضها الدكتور بيطار ، ونصبح سجناء لها اذا قبلناها . فهل المشكلة هي مشكلة اختراع منهج جديد ؟ .

انجاز الوحدة مسؤولية كل العرب :

احب ان انوه قبل ان ندخل في جدل القوانين الثلاثة . بأن الثورة العربية الاولى في عصر الجاهلية ، كان من المفروض ان تبدأ من مصر على ضوء هذه القوانين ، مادامت الجغرافيا وعدد البشر هما اللذان يتحكمان في تطور حركة التاريخ . فمصر بما لها من حضارة عريقة . ومن تمركز سكاني هائل بالقياس للقبائل المنتشرة من اقاصي بلاد الشام الى الجزيرة العربية ، كانت تملك نفس القدرات او المواصفات التي تملكها الآن تقريبا . وكان شعبها المحكوم من اقلية رومانية يونانية ــ مخاطر خارجية ــ يستطيع ان ينجز هذه الثورة لو اراد ذلك . وكما تقرر في مصر مصير

عدد من الحكومات الرومانية ، كان من الممكن ان يتقرر ايضا مصيره المنطقة العربية . ولكن الذي حدث كان مختلفا عما يمكن ان تتوقعه النبوءات والقوانين والرغبات . فالثورة انطلقت من الجزيرة العربية . من مدينة كانت تقوم كل شهرتها وسمعتها على التجارة وليس على الحضارة او فنون الحرب . ومرة ثانية انطلقت الثورة العربية في عصرنا الحديث من الحجاز وليس من اي مكان آخر رغم ما يمثله الاسلام ومركز الخلافة في بلد تتوجه اليه قلوب المسلمين ؛ وبالاتفاق مع الانكليز ضد مركز الخلافة الاسلامية . وذلك في عام ١٩١٦ .

الملاحظة الثانية التي تستحق الدراسة هي ما يجري حاليا في لبنان وجنوبه بشكل خاص . فرغم ان الجماهير العربية الفلسطينية كانت تتوقع من الجيوش العربية ان تنقذ فلسطين في عام ١٩٤٨ فقد جاءت النتيجة على غير ما توقعت . ورغم ان اسرائيل كانت تتوقع ان تبدأ من لبنان عمليتها التقسيمية وسيطرتها الدائمة على المنطقة العربية فقد اثبت مقاتلو الحركة الوطنية في الجنوب ان معركة الشعب تختلف عن كل المعارك التي خاضتها اسرائيل . فكانت نتيجة الحرب الهزيمة حيث كانت اسرائيل تتوقع ان تقطف ثمار النصر .

واذا عدنا الى الكلاسيكيات النظرية ، فانها تكشف لنا بان الثورة الاشتراكية لم تنجح حيث كان يتوقع لها النجاح حسب القوانين العلمية الماركسية . وهكذا تثبت البشرية بان الظواهر الانسانية تختلف عن الظواهر الطبيعية . والقوانين رغم انها تضعنا في مأزق الرؤى النظرية الواعدة ، الا ان البشر يقومون بتحريرنا من سلطة جغرافيا القوانين بافعالهم لا باقوالهم . فارادة الشعوب تظل وستبقى هي القانون الاسمى الذي لا يمكن لاي ارادة ان تعلو عليه . وحين تتخلى الشعوب عن هذه الارادة فانها لن تبق في التاريخ .

انني لا اقصد ان أقلل في هذا الحوار من قيمة مصر . فمصر مثلها مثل اي بلد عربي تعنينا ، ويعنينا ان تعود الينا رافعة الرأس متحررة من

القيود التي فرضت عليها وطليعية وقائدة . ولكن غياب مصر ، او اهمالها لدورها ، وكذلك آلامها ، لا يجوز ان تغل ايدينا عن العمل من اجل الوحدة العربية . واذا كنا سنسير مع منطلق الدكتور نديم البيطار ، فان علينا ليس انتظار مصر حتى تعود الى دورها الطليعي فقط ، بل علينا ان ننتظر ظهور — القيادة المشخصنة — الجماهيرية . وهذه المواصفات فضلا عن انها قد لا تتوفر في المدى القريب في قيادة مصر ، فانها تعني فيما تعنيه حين نركن الى مثل هذه الافكار ، بان — القيادة المشخصنة — هي التي ستقوم بعبء العمل الوحدوي عنا جميعا . وما على الجماهير الا ان تصفق وتهلل لها بانتظار تحقيق المعجزة التي قد لا تتحقق على يد مثل هذه القيادة المصرية المشخصنة . فماذا نفعل عند ذلك بالقوانين الاثنين ، لانه والحمد لله فان الاخطار الخارجية التي تحيط بالعرب ، وهي القانون الثالث ، لا تعد ولا تحصى .

ماذا نفعل اذا كانت هذه القيادة عاجزة عن تحقيق الوحدة ؟ . الا يبدو ان مفكرنا الكبير قد وقع فيما حاول تجنبه والابتعاد عنه في كتابه « النظرية الاقتصادية والطريق الى الوحدة العربية » فهو يعارض سلوك الطريق الاقتصادي كوسيلة لتحقيق الوحدة العربية لانه يعني « تأجيل الوحدة الى ان يتم تحقيق هذه المنجزات » الاقتصادية . فكيف يرفض مفكرنا التأجيل ، ويطالب بالتعجيل في الوحدة . ويزين لنا الطريق الذي يراه مناسبا ، آملا ان تتحقق الوحدة العربية سريعا بسلوك الطريق الذي يقترحه ، ثم فجأة يطلب منا التريث حتى تعود مصر . أليس من المفروض بنا اذا كنا نعي مقدار الخطر بعد خروج مصر عن دورها الطليعي ان نجتمع شعوبا وحكومات لنواجه الاخطار المحدقة بنا ؟ . ألسنا نستطيع وعلى فرض اننا نحتاج لاقليم — قاعدة ؛ وهذا ليس سبب خلافنا ، ان نوفر هذا الاقليم في ارض اخرى ؟ . ربما انها تمنيات ، ولكنها تمنيات يجب ان نسعى لتحقيقها في مواجهة دعوات التريث والاستكانة التي نعاني منها ، ونحن نرى الاخطار تحيط بارضنا وشعوبنا من كل الجهات . فالنهب لاعماق الارض يترافق مع المحاولات النشطة لتجريد انساننا

العربي من كل أمل ، ومن كل معنى : بهدف سلب ارادته لقهره نهائيا ، وفرض الانتداب عليه ، واعادته الى زمن التسلط الاستعماري . كل ذلك الا يتطلب منا ان نبدأ بأي شكل من الاشكال لتحقيق الوحدة ؟ . وهل الحركة الوطنية في جنوب لبنان سوى قبضة من بيدر الامة ، ولكنها قبضتها الفولاذية التي ترفض الاستكانة ؟ . فكيف سنعترف بعجز هذه الكوكبة المتلألئة من الدول اذا كان القليل من شعبنا استطاع ان يواجه أعتى قوى الارهاب والضغط والعدوان في منطقتنا العربية ؟ . كيف سنعترف بأن هذا القرار الوحدوي الوحيد الذي سينقلنا مما نحن فيه ، لا نملك ان نصنعه ، ولا ان نعلنه في غياب مصر وبدون قيادتها المشخصنة ؟ .

انها قضية مطروحة للنقاش دائما ، وان من يملكون قدرة صنع القرار ، هم الذين يملكون القرار . انها مسألة ارادات ، وهذه الارادات حين توجد ، وترتفع الى مستوى النضال ، الى مستوى الوحدة ، حين ترتفع الى مستوى مصالح الاقاليم العربية المجزأة ، وليس دونها أو فوقها ، لن يثنيها عن عزمها غياب قيادة مصر أو حضورها . وربما اننا نحتاج للقدوة ، للنموذج . نحتاج لتغيير خرائط « سايكس وبيكو » على الأرض . وعندها قد لا يكون للورق الذي رسمت عليه تلك الخطوط اي قيمة . انها مسألة اولاً واخيراً بيد الحكومات . وباختصار لان كل ثورة ستصبح حكومة مهما كان شكلها ولونها ، فعلى حكومات الطليعة ان تبدأ .. انها مهمتها في ان تصيغ القرار الملائم لبناء الوحدة . ان الوحدة ستظل اضافة لدور الجماهير المحرض عليها والمطالب بها والمبارك لها هي من مسؤولية الحكومات العربية التي عليها ان تمثل طموحات الجماهير ، وان توجد لهذه الطموحات الصيغة الملائمة للتعبير عنها على الارض . وانها مسؤوليتنا جميعا ان نعمل لاحراق خرائط « سايكس وبيكو » لكي نخرج من عصر الانتداب الذي لم نتحرر منه حتى الآن الا شكليا . وهذه المسؤولية ليست مسؤولية قطر بعينه او فرد واحد وحيد . والا فاننا حين نلقي بالمسؤولية على قطر او فرد ، فاننا انما ندينه في نفس الوقت

مادمنا نعتبره السبب في استمرار التجزئة . وانني من اجل مصر ومن اجلنا ارى بانه لا يجوز ان نحملها مسؤولية استمرار التجزئة .

ان واجب المفكر واهميته تكمن ليس في رؤية الماضي فقط ، والتحرك على ضوئه ؛ بل في جعل الماضي نفسه في خدمة الحاضر والمستقبل . ويطيب لي ان اقتطف من مقال الدكتور محمد عابد الجابري الرائع هذه الملاحظات لتوضيح هذه النقطة . فالدكتور الجابري يحدثنا في مقاله « المشروع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات » (٢١) عن نتائج «علم المستقبلات» كما يطبق في الغرب الآن . ويتساءل رغم انه « علم » هل نحن بحاجة اليه . ويستنتج رغم انه « علم » ، وبسبب النتائج الكارثية التي سيوصلنا اليها باننا لسنا في حاجة الى هذا العلم لانه سيعطينا صورة عن مستقبلنا « لا تبعث الامل ولا تحفز على العمل »(٢٢) . ولهذا السبب يطالب الدكتور الجابري بأن نصنع علمنا المستقبلي الخاص بنا الذي يحفزنا على العمل ، ويخلق لدينا الامل « نحن اذن ، في حاجة الى « علم مستقبلات » متكثبن على ماضينا ، ولكن كمجرد حلم نهضوي مهلهل قابل للتفكك والتبخر تحت اي صدمة او كابوس ، بل كحلم فلسفي عنيد ؛ حلم يصر على تحويل التاريخ ،تاريخنا نحن ، الى عقل يسود ويحكم ، وتحويل العقل ، عقلنا نحن ، الى تاريخ يتحرك ويصير »(٢٣) .

إن هذا الاختيار رغم رفضه لبعض ما جاء به العلم ، فانه رفض علمي . ليس لان التنبؤ الغربي بحد ذاته يحيلنا الى الكارثة ، بل لان علينا إذا كنا نريد ان نحقق مشروعنا الحضاري العربي عبر وحدتنا المنشودة ، ان نرفض الكارثة ، وأن نرفض ما جاء به هذا العلم . وعندما نرفض لا لمجرد الرفض ، بل لان لنا مشروعنا الوحدوي الحضاري الذي لن يحكم عليه خروج مصر من المشروع ، او تخليها عن قيادته ، بالتوقف . بل إن نضالنا في سبيل هذا المشروع هو الذي سيساعدنا على اعادة مصر الينا . فأمريكا واسرائيل حين وضعتا خطتهما للانفراد بمصر ، وعقدتا

اتفاقا معها راهننا على تلك النتيجة التي توقعنا ان تتحقق لهما نتيجة خروج مصر من خندق المواجهة مع اسرائيل ، وهي انهيار ارادة المقاومة لدى الامة العربية ، وشلل حركتها المناضلة واستسلامها . ورغم ان الاخطار كانت كبيرة بتخلي مصر عـن دورها الطبيعي ، ورغم ان الارقام الحسابية كما تدل حين نطرح جانبا قوة الجيش المصري وتعداده ستؤدي بنا الى اليأس . فان عدم الاستكانة الى اليأس واستمرار المقاومة هو الذي أبقى جذوة النضال مشتعلة ، وهو الذي ساعد على انهيار الحسابات الرياضية لاسرائيل واميركا في جنوب لبنان .

ترى لو ان كل العرب قبلوا منطق الحسابات الرياضية ، والحركة الوطنية اللبنانية منهم . لو ان الحركة الوطنية اللبنانية ساومت على مصير لبنان بسبب غياب هذه القوة او تلك ، ما هي النتائج التي ستترتب على مثل هذه الحسابات . ولذلك فمن الصحيح علميا ان تنطلق اسرائيل في حساباتها من حجم اسلحتها بالمقارنة مع اسلحة الحركة الوطنية لتبدأ عدوانها . ومن الصحيح علميا ، كما تثبت الاحداث ، ان تواجه الحركة الوطنية اللبنانية حسابات اسرائيل بارادة الانسان لانها معادلة القـوة في مواجهة معادلة الارادة . إن كل طرف في هذه المعادلة يخوض الحرب وفقا لحساباته العلمية . وهكـذا فان قراءة التاريخ ، وحتى احـدث النظريات العلمية لا تستطيع ان تفسر لنا المستقبل مجردا من ارادة الناس . ولهذا السبب يجب أن نرفض أن تكون حركة امتنا مجرد انعكاس لنهوض مصر او تراجعها . لان العلاقة بين نهضة مصر والعرب علاقـة ديناميكية ، علاقة اخذ وعطاء ، علاقة تاثير وتأثر . وحرصا على حق كل العرب في المساهمة النضالية الوحدوية ، ولكي لا يكون هناك اي تبرير للتقاعس بحجة مصر او غيرها ، فاننا ندعو الى وضع الامل حيث تبدو بوادر الامل ، وندعو الى تسليم راية القيادة لاصحاب الكفاءة والقدرة ، ونرى بأن الاقليم القدوة والقاعدة سيكون حيث يوضع حجر الاسـاس لتدمير الحدود بين اول قطرين عربيين ، وحيث يكون باب الوحدة مشرعا امام ك قطر ، ومن اجـل كل العرب بما فيهم مصر . وانها مسؤوليتنا من المحيط الى الخليج ، مسؤوليتنا جميعا شعوبا وحكومات .

المراجـع :

(١) د. نديم البيطار ـ من التجزئة الى الوضعية الوحدوية ـ مجلة الوحدة ، العدد ٦ ـ ص ٣٤ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٥ .
(٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) المصدر السابق ص ٣٧ .
(٨) المصدر السابق ص ٣٩ .
(٩) المصدر السابق ص ٤٥ .
(١٠) د. نديم البيطار ـ النظرية الاقتصادية والطريق الى الوحدة العربية ـ منشورات معهد الانماء العربي ـ الطبعة الاولى ، ١٩٧٨ ـ بيروت . ص ٢٥ .
(١١ ، ١٢) المصدر السابق ص ٩ .
(١٣) المصدر السابق ص ٥١٥ .
(١٤) المصدر السابق ص ٥١٧ .
(١٥) د. نديم البيطار ـ من التجزئة الى الوحدة ، القوانين الاساسية لتجارب التاريخ الوحدوية ـ ص ٩ ـ منشورات مركز دراسات الوحدة العربية ـ الطبعة الاولى ـ بيروت ـ ١٩٧٩ .
(١٦) المصدر السابق ص ١٠ .
(١٧) المصدر السابق ص ١٣ .
(١٨) المصدر السابق ص ١٤ .
(١٩) المصدر السابق ص ١٥ .
(٢٠) المصدر السابق ص ١٦ .
(٢١) د. محمد عابد الجابري ـ المشروع الحضاري العربي بين فلسفة التاريخ وعلم المستقبلات ـ مجلة الوحدة ، العدد ٦ ـ ص ٧ .
(٢٢ ، ٢٣) ـ المصدر السابق ص ١٠ .

★ ★

«القارئ والنص»

استجابة متلق

د. عبدالنبي اصطيف

يكتب ستانلي فيش Stanley E. Fish استاذ الانكليزية في جامعة جونز هوبكنز وابرز اعمدة ما يسمى بنقد استجابة القارىء Reader-Response Criticism في النقد الامريكي المعاصر ، وصاحب ما يسمى بالاسلوبيات التأثيرية Affective Stylistics في كتابه « هل ثمة نص في هذا الصف/الصنف ؟ »

« اذا ما كان لاحد ان يسأل في هذه اللحظة : « ماذا تعمل »، فانه يمكنك ان تجيب : « انا أقرأ » ، وبالتالي تعترف بحقيقة ان القراءة نشاط ، شيء تفعله . فما من احد يمكن ان يحاج بان فعل القراءة يتم بمعزل عن شخص ما يقرأ ـ كيف يمكن ان نميز الرقص عن الراقص ؟ ـ ولكن عندما يأتي الامر الى اصدار بيانات تحليلية عن الناتج النهائي للقراءة (المعنى أو الفهم) فان القارىء ـ وعلى نحو غريب بما فيه الكفاية ـ فان القارىء ينسى عادة او يتجاهل » (١) .

ولذلك فان قارىء مجلة المعرفة ، لا يمكن له الا ان يُسرّ ببحث الدكتور نعيم اليافي المعنون بـ « **القارىء والنص** »(٢) ، لتنبهه الى اهمية القارىء من جهة ؛ ولشجاعته في ارتياد ارض تكاد تكون بكرا في النقد العربي الحديث(٣) من جهة اخرى ؛ ولجديته في اجتهاداته الكثيرة فيه من جهة ثالثة ، وهي اجتهادات جديرة بكل اهتمام . ولعل من باب الحفاوة بها ، أن يعمد المرء الى تفحصها وتحليلها ، والاشارات الى ما فيها من امكانات في دراسة هذا الموضوع الخطير في النقد المعاصر .

* * *

في وقوف الدكتور اليافي عند العملية الادبية ، يشير الى اربعة عناصر هي :

ا ــ مبدع النص او منتجه .

ب ــ النص ذاته او العمل .

جـ ــ قارىء النص او متلقيه .

د ــ الإطار او المهاد الذي يشمل الاطراف الثلاثة ويضمها ، يؤثر فيها كلها ، ويعمل على تشكيلها .

وبعدها يدرس بشكل خاص العنصرين الثاني والثالث : النص والقارىء ، مقرا في الوقت نفسه بأن العنصرين الآخرين : المبدع والمهاد تواجههما متواريين من الناحية العملية . فالاول منهما يتوارى في النص، والثاني منهما يتوارى في القارىء :

« فالنص ــ كما يذكر ــ في التحليل الاخير أن هو الا اثر المبدع وعطاؤه الفني ؛ وما المتلقي لدى النظرة الفاحصة الا موقف معرفي وخلاصة ثقافي او جماع » ؛

أي حصيلة للاطار او المهاد او الثقافة الخ . . .

ثم يتحدث حديثا عاما جدا ، لا يستند الى اية معطيات مقنعة بما فيه الكفاية ، عن عوامل ما سماه بالنقلة الواسعة من التركيز على المبدع، الى التركيز على القارىء ، مرورا بالنص ، ودون ان يشفي غليل متلقي نصه . وذاك امر جد طبيعي ، فاليافي ليس مؤرخا للنقد الحديث ، وهو منشغل أساسا بالعنصرين الاساسيين اللذين تصدرا عنوانه : القارىء والنص . ولذلك فانه ينتقل مباشرة الى دراسة مستويات النص المتعددة، او « مستويات القراءة للنص الادبي لدى متلق واحد او اكثر » ـ مع فهم غير مدقق لهذه المسالة ـ وعلاقة ذلك « بمشكلة الادراك العام والخاص ؛ الحسي والنفعي ... ذلك ان نقل التجربة او الرسالة ، وابلاغها او توصيلها ما بين الفنان والقارىء عبر العمل ، ثم الاختلاف في فهمها وتقويمها والحكم عليها ، يكاد يتوقف كلية على هذه المشكلة » .

ويبدأ دراسته هذه بالاشارة الى العوامل التي تؤدي الى تعدد مستويات القراءة والفهم والحكم فيتحدث عن :

أ ـ العامل الفطري ؛

ب ـ العامل الاكتسابي ؛

جـ ـ والعامل الثقافي .

ولو شاء الدكتور اليافي الدقة والاختصار لجعلها اثنين . فالعامل الثقافي يدخل في العامل الإكتسابي . ولكن قد يكون للصديق في افراده هذا العامل الثقافي مسوغاته الخاصة التي لم افلح في الوقوع عليها في نصه الذي قراته بتمعن ، واصغيت له بانتباه .

ـ ينتقل بعد ذلك الى الحديث عن بعض الامثلة والتجارب ، فيشير الى مثال مصطفى ناصف وخلافه معه حول تفسير رمز الطفل في قصيدة لعبد الصبور ؛ والى مثال آخر عن استجابات طلابه لقصيدة « انا والمدينة » لاحمد عبد المعطي حجازي ؛ والى ثالث عن تجاربه مع طلاب جامعتي الجزائر وحلب المستوحاة من تجربة الناقد الانكليزي

المعروف آي ، إيه ، ريتشاردز I. A. Richards في جامعة كامبريدج والتي سجل نتائجها في كتابه « **النقد العملي** » Practical Criticism الصادر عام ١٩٢٩ .

ومن المؤسف حقا ان الصديق اليافي يسرع كثيرا في عرضه لهذه الامثلة والتجارب الشيقة ، محبطا بذلك فضول قارئه ، او متلقي نصه ، مخيبا توقعاته في تحليلها ، وتفسير نتائجها ، او الوقوع على ما وراءها من افتراضات ضمنية . ولكن يبدو ان الدكتور اليافي لم يكن ياخذ هذه التجارب ماخذا جديا في تلك الفترة ، وانه يستذكرها اليوم ليوضح لنا بحق ان مسألة استجابات القراء وتفاوتها واختلافها مسألة هامة ، لا سبيل الى اغضاء طرفنا عنها مهما حاولنا .

على اي حال « وبعد هذه الفذلكة الضرورية عن اطراف الموضوع وطبيعة الاستجابة او عملية التلقي ومستوياتها وامثلتها » ـ وهي فيما يبدو جد ضرورية في راي محدثنا ، ولولا ذلك لما افرد لها اكثر من نصف حديثه ، وخصها بهذا الاهتمام الملحوظ ـ

ولعله ارادها تسوية للارض قبل اقامة البناء ، او زميا تمهيديا بالمدفعية يتلوه الهجوم على النقاط المستهدفة . ولا يستغربن متلقي الحديث مصطلحا كهذا . فللكاتب / المرسل استراتيجيته في مقاربته لقارئه/متلقي خطابه ، مثلما للقارىء استراتيجيته في مقاربة النصوص ، اقول بعد هذه الفذلكة ، ينتقل الدكتور اليافي الى الحديث « عن العنصرين او البعدين اللذين يشكلان صلب البحث المطروح للحوار او جسده . . النص والقارىء » .

وفي حديثه عن النص يستلهم الدكتور اليافي مصطلحي الناقد الايطالي السيميائي المعاصر اومبرتو إكو Umberto Eco اللذين نافح عنهما في كتابه المعروف « **دور القارىء : استكشافات في سيميائيات النصوص**(٤) » ، والذي سبق لصاحب هذه السطور ان قدمه لقارىء

العربية في كانون الثاني من عام ثلاثة وثمانين على صفحات مجلة **المعرفة** في دمشق . وهذان المصطلحان هما النص المغلق Closed Text او النص « الصامت او القفل » كما يحلو له ان يسميه والنص المفتوح Open Text او « المؤار او اللا منتهي » كما يفضل ان يدعوه .

ويستعين اليافي في تحديده لهذه المصطلحين الهامين **بالعرض المشار اليه ، اضافة الى استبصاراته** . وهو لذلك يتحرك بحذر شديد ، ويميل الى الانشاء على خلاف عادته في الحديث الدقيق الواضح . وهكذا يكتب مثلا :

« انما المهم الا يكون موقف الاقتراب جاهزا ، بل هو حضور وقدرة على رؤية متحرزة من التسلط ، لتكون القراءة حركة ، ويكون المقروء نبضا حيا ، وتتابعا متناميا لا يهدأ » .

ويمضي به اجتهاده ليضع امثلته الخاصة بواحد منها : وهو النص اللا منتهي ، فيشير الى قصيدة « الارض اليباب » The Wast Land للشاعر والناقد الانكلو ــ امريكي المعروف ت. س. إليوت . ويضيف ملاحظة توضيحية الى مسألة جماهيرية النص . ويحاول ان يميز ــ بنجاح محدود فيما يبدو لي ــ ما بين **النص الجماهيري ، والنص الشعبي** ، حتى يستبعدهذا الاخير من مقولة النص المغلق Closed Text الذي هو في رأي الدكتور اليافي ادنى من « النص المفتوح » .

اما في حديثه عن القارىء فانه يميز ما بين خمسة انماط هي :

أ ــ القارىء العادي ؛
ب ــ القارىء المتابع ، أو المراجع ، أو المبسط ؛
جـ ــ القارىء الدارس ؛
د ــ القارىء الناقد ؛
هـ ــ القارىء الفيلسوف الجمالي .

مقيما تمييزه هذا على اساس وظيفي « شرط ان نتصور ان الانتقال من دور الى دور ، ومن مجال الى مجال سهل وميسر » . **ورغم انه لا** يفرق ـ فيما يزعم ـ بين هذه الانماط ، ولا يعزو اي بعد قيمي اليهما ، الا انه يخص الناقد باهتمام اكبر من غيره فيتحدث عن وظائفه المختلفة تجاه العمل والاديب والفن ؛ وعن مواصفاته ؛ وعن مستويات رؤده لفضاء النص(*) تبعا لموهبته او قدرته التي تتكامل فيما بينها لتغني فهمنا للنص . ولا يشترط هنا الا الانطلاق من النص . ولعمري ليس ثمة ما هو اكثر سلامة من منطلق كهذا .

والدكتور الياقي يبيح للناقد امورا كثيرة منها « ان ينقل زمن قراءة النص الى زمن كتابته » او ان يجعلنا نعيش الزمنين معا ـ زمن القراءة وزمن الكتابة . ومنها ان يجرب على النص مختلف اساليب التحليل ، وطرائق الفحص ، وسبل التفسير . ومنها ايضا ان يكتشف في النص دلالات فوق دلالاته . وهو في ذلك يجاري ميخائيل نعيمة عندما **يجعل الناقد مبدعا في غرباله** ، ومندرجا في حمله النقد **فعالية خلاقة** ، في **ميزانه الجديد** .

ويؤكد من جديد ان فعل الاستجابة اللا منتهي لدى القارىء يلعب الدور الهام في :

ا ـ تشكيل العمل ؛ اي اثناء عملية انتاجه ؛

ب ـ وفي اعادة انتاجه ، اي اثناء قراءته ، تفسيره .

ولكن دون ان يبين كيف يكون ذلك ، اللهم الا من خلال الاشارة المحدودة الى وظيفة الناقد التي قدمت . ولا اظن ان قارئا **يمكن ان يقتنع من الدكتور الياقي بهذا** .

(*) هذا المصطلح يقابل The Text's Space الذي اقترح له الاستاذ الجليل انطون المقدسي مصطلح الفسحة ، وهو اقتراح جدير بالتبني .

وفي النهاية يتحدث الدكتور اليافي عن « **النص بين جدل القارىء والمبدع** » حديثا فيه من النوايا الطيبة اكثر من التفحص المتامل المدقق. ولأن من الصعب الحكم على النوايا ، فان القارىء ـ قارئه ـ لا يسعه الا أن يشد على يد الدكتور اليافي ، ولكن ليبحث عن سبيل آخر يشفي غليله ويرضي توقعاته ، التي لم يشأ الصديق اليافي ان يرضيها جميعا . اتراه اراد نصه/بحثه/محاضرته أن يكون نصا مفتوحا يتيح للمعقب عليه او لقارئه ، او لمتلقي خطابه ، هامشا للمشاركة فيه ؟ ربما . ولذلك فاني سوف اضيف مجموعة من الامور التي تغني نص صديقنا من اجل نقل الفائدة الموجودة فيه من طور القوة الى طور الفعل :

١) على الرغم من تعدد المنظورات التي يمكن ان يتبناها المرء في دراسته لقضية النص والقارىء ، فانه يفضل ان يباشرها من منظور توصيلي ، سبق أن اشرت اليه في تقديمي لكتاب إكو عندما كتبت عام ١٩٨٣ :

« اذا ما رغب المرء بالنظر الى العمل الادبي على انه نص او انشاء يحمل رسالة ما ، فانه ومن منطلق توصيلي يمكن ان يقع على جملة من العناصر التي تسهم في تحقق عملية التوصيل :

ـ **اولها** : هو مصدر هذا النص ـ مع شيء من الحذر ـ او منشئه او منتجه ، وهو ما يمكن ان يشار اليه على انه المؤلف ؛

ـ **وثانيها** : هو النص الذي انشاه المؤلف او الشيء المنتج والذي يحمل رسالة ما ، يتوجه بها منتجه نحو مستقبل ما ؛

ـ **وثالثها** : هو المخاطب او المتلقي او المستقبل ، وهو الجهة التي تتلقى هذا النص او الخطاب ، او الانشاء .

وحتى تتم عملية التوصيل فانه لابد لهذا المخاطب ان يستطيع تفكيك الرموز والاشارات والعلامات التي تحمل دلالات النص . وبالطبع فانه في

تفكيك هذه الشفرة يلجأ الى اعراف وتقاليد ونظم معينة خلقتها المواريث الثقافية للغة التي يستخدمها النص ، ولا حاجة الى الاشارة هنا الى ان المرسل والمستقبل ينبغي ان يشتركا في معرفة هذه الاعراف والتقاليد والنظم اذا ما اريد لعملية التوصيل أن تتم »(٥) .

ورغم انطلاقه من من هذا المنظور فانه **يغفل عن امر العلاقة بين عناصر العملية الادبية** . فهو لا يحدثنا عن العلاقة القائمة **بين المرسل والمتلقي** .

او **بين المتلقي والنص** ، على سبيل المثال لانه اساسا يفضل ــ فيما يبدو ــ أن يتحرك ضمن منظور تقليدي في **فهم طبيعة** كـل مـن عناصر العملية الادبية ، **ووظائفها** ، **والوشائج القائمة** فيما بينها . وهكذا يقوده الحديث عن انماط القارىء الى الحديث عن وظيفة الناقد ، ومن منظور تقليدي أيضا .

ب) لقد أشرت فيما مضى الـى استلهام الدكتور **الياقي لمصطلحي اومبرتو اكو** (النص المفتوح ، والنص المغلق) وهذان **المصطلحان مرتبطان** اساسا بأعمال محددة **ناقشها الناقد الايطالي** في كتابه المذكور آنفا ؛ ولا يمكن سحبهما على جميع الاعمال الادبية . خاصة وان إكو نفسه يقترح جدلية محددة بين استراتيجيات مقاربة النوعين المختلفين للنصوص .

حـ) ان حديث الدكتور الياقي عن مقولة القارىء يصدر عن فهم ضيق جداً لهذه المقولة ، لان الانماط الخمسة التيّ يشير اليها تدخل جميعا فيما يمكن تسميته **بالقارىء الواقعي** ، الفعلي . ولكن ماذا عن **القارىء الضمني** الذي يفترضه الكاتب ، والذي يكون حاضرا ابدا في نفسـه عندما ينتج نصه ؛ وماذا عن **القارىء المثالي** الذي يطمح الادباء جميعا الى وجوده عندما يفكرون في جدوى ادبهم ؛ وماذا أخيرا عن **القارىء المجرد عن الزمان والمكان،** الذي يحلم به كل مبدع . ان جميع هذه الانماط بعيدة تماما عـن ذهن الدكتور الياقي ، رغم ان تأثيرها في عملية انتاج النص اوضح من ان تستبعد بسهولة .

د) كذلك كيف يمكن قياس استجابات القارىء الفعلي بأنماطه الخمسة التي ذكرها الدكتور اليافي ، صحيح انــه يمكن ان يشير الى النصوص النقدية ، ولكن ماذا عن الوسائل الاخرى ؟ ان الصديق اليافي يلوذ بالصمت عندما يأتي الامر الى هذه القضية .

هـ) لا اظن ان اقوى نقاط بحث الدكتور اليافي تاريخه للتحول مــن الاهتمام بالمبدع ، الى الاهتمام بالقارىء . لان بداية الاهتمام بهذا الاخير لا تعود الى نهاية الستينات . وقد بدأت اول ما بدأت في اوربا بشكل عام، والمانيا بشكل خاص . ولا يعني هذا بالطبع ان الاهتمام بالقارىء / المتلقي اهتمام حديث ، فهو قديم قدم النقد نفسه . ولكن اعطاءه الاهمية التي نراها اليوم بدأ في نهاية الستينات على يد هانز روبرت ياوس Hans Robert Jauss ،وولفانغ ايزر Wolfang Iser ، ونورمان هولاند Norman N. Holland وجورج بوليه Georges Poulet ، وميشيل ريفاتر Michael Riffaterre وجوناثان كولر Jonathan Culler وستانلي فيش وغيرهم .

* * *

يشير نزار قباني في حديثه عــن تجربته الشعرية الى ان « الشعر خطاب نكتبه للاخرين ، خطاب نكتبه الى جهة ما ، والمرسل اليه عنصر هام في كل كتابة ، وليس هناك كتابة لا تخاطب احدا ، والا تحولت الى جرس يقرع في العدم »(٦) .

ان جدوى الكتابة امر يتوقف على استقبالها ، وهو أمر يعرفه اي مبدع ويعيره كل الاهتمام سواء اعترف به ام ادعى انه لا يعنيه ، وانه انما يكتب لمجرد الكتابة . ولا شك ان محاولة الدكتور اليافي محاولة جادة في الطريق نحو اقناع النقاد العرب المعاصرين باهمية دراسة دور المستقبل

في تحويل التجربة الفنية من طور القوة الى طور الفعل. ولكن من الضروري لهذه المحاولة ان تنطلق من افق معرفي متقدم يفيد مما تقدمه الدراسات النقدية المعاصرة في العالم، ومن المنظور السيميائي Semiotical Perspective حيث يتم التعامل مع العملية الادبية كنظام علامات غايته انتاج المعنى، انتاج الدلالات، فتدرس عملية الانتاج هذه من جهة، وكيفية تحقق هذه الدلالات لدى المستقبل / القارىء من جهة أخرى.

آب ١٩٨٦

جامعة دمشق

* * *

هوامش :

(١) Stanley N. Fish
Is There A Text in this Class ? Harvard University Press, 1980, P. 21

(٢) د. نعيم اليافي،
« القارىء والنص » ، المعرفة (دمشق) ، السنة الخامسة والعشرون العدد (٢٩٤) ، آب ، ١٩٨٦ ، ص (٤١ – ٦٢).

(٣) انظر – عبد النبي اصطيف ،
« قراءات غير متأنية في النقد المعاصر : في البحث عن دور للقارىء »، المعرفة (دمشق)، السنة الواحدة والعشرون ، العدد (٢٥١) ، كانون الثاني ، ١٩٨٣ ، ص(٢٢٤–٢٥٠).
– ادونيس ،
« من ادب الكاتب الى ادب القارىء » ، الكرمل ، العدد (٥) ، شتاء (١٩٨٢) ، ص(١٥٤ – ١٦٢) .

(٤) مكتبة جامعة هوتشونسون ، لندن ١٩٨١ . وانظر عبد النبي اصطيف ، المرجع السابق ، ص (٢٤٨ – ٢٤٩).

(٥) عبد النبي اصطيف ، المرجع السابق ، ص (٢٤٤ – ٢٤٥) .

(٦) نزار قباني ، قصتي مع الشعر ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص (١٥٧) .

نافذة على الثقافة العالمية

صالح الرزوق

● رسائل وهموم جوزيف كونراد :

يغطي المجلد الثاني من (رسائل جوزيف كوانرد) السنوات الممتدة ما بين ١٨٩٨ و ١٩٠٢ . اي الفترة التي كان فيها كونراد مستقرا من الناحيتين الاجتماعية والادبية ، فقد كان متزوجا يعيش في اسكس ESSEX (شمال شرق لندن وقلب انكلترا القديمة)، وعلى وشك أن يصبح ابا للمرة الاولى . ووراء ظهره ثلاث روايات تكفي لان تجعل منه كاتبا ، والاهم من ذلك انه كان على وشك انتاج افضل اعماله المعروفة (اللورد جيم ، شباب ، قلب الظلمة ، الاعصار ، نهاية المجال) .

ان العدد الضخم الذي عاش من رسائله المكتوبة في تلك الفترة يقدم كمية لا باس بها من المعلومات القيمة عن حياته يوما بيوم . وهي كلها بدون استثناء تحمل طابعه الكونرادي الخاص ، وصيغه الادبية البارعة . بعضها تعليقات نثرية ، وبعضها الاخر رواية لاحداث درامية عاصفة ، ومنها ما هو اشبه بتقارير مفصلة عن اشياء عابرة مثل (كادفورد ماكس فورد ان يختنق حتى الموت في حفلة ذكرى ميلاده ، مقطع من مسودة ـ نهاية المجال ـ احترق بالخطا) . هذا الى جانب الرسائل المطولة التي هي تاملات في الكون وفي الحماقات البشرية ، وأخيرا في عبثية حياته الشخصية ، حيث تنتشر روح قانطة وانعكاسات كئيبة . في احدى رسائله المعبرة جدا الى ستيفين كران (١) يقول : (كل ما اكتبه الآن عفن .

لقد افسدت نفسي تماما . انه من الواجب ان يتم اخذي وزجي في حفرة مقبرة ، تماما مع القطط الميتة !) . وكان الفتيل المشتعل الذي يغذي هذه السوداوية صحة ضعيفة وقلق مادي ونجاح قليل على مستوى الساحة الثقافية العامة ، على الرغم من بعض الاعجاب والمعجبين في دوائر محدودة . وهذا ما جعل من الكتابة لدى كونراد كفاحا وتحديا ، وغالبا هو كفاح مؤلم .

غير انه من الممكن العثور في الكتاب على بعض اللمسات الضاحكة ـ او لنقل التهكمية ـ التي اتت في فورة من فورات الحماس . من ذلك حديثه عن التقدم التقني والفحص الذي اجري له بآلة رونتجين (واحدة من اكثر لوحات الكتاب غرابة هي صورة يد كونراد باشعة اكس) ، وحديثه عن ابن بلده (باديريفسكي ، والفراموفون .

هنالك ايضا بعض التعليقات المثيرة للفضول عن السياسة (بالاخص رسالة الى احد اقاربه البولونيين حول حرب البوير)

ان الاهتمامات المتعددة التي سبق الاشارة اليها ، لا تنفي فكرة ان رسائل الكتاب اصلا تدور حول الادب بطريقة او اخرى . اذ ان الرسائل في مجموعها تتابع قصة صداقاته مع ادباء مشاهير من مختلف المشارب والاشكال مثل : كوننغهام جراهام، ويلز (٢) ، فورد مادوكس فورد (٣) الذي شاركه في تاليف رواية (رومانس) ، دافيد جرانت ، جيمس كوبر ، هنري جيمس وآخرين . .

وبعض اكثر رسائله حرارة والقا تلك التي تبادلها مع (جالز وورثي) (٤) . فقد تقابل الرجلان وأصبحا صديقين حينما كان كونراد بحارا . وحينما وصل كونراد الى مرتبة اديب محترف تؤهله من تقديم التشجيع والنصيحة الى صديقه القديم جالز وورثي ، لم يتقيد بكلمات لطيفة مجردة . لقد كتب له قائلا (في الواقع انت بحاجة الى مزيد من الشك في اكثر اعمالك رسوخا . الشك هو منشط العقل ؛ هو مقوي

الحياة ، هو عامل الحقيقية ، طريق الفن والخلاص) . ونصحه ان يقترب من اشخاصه بموضوعية وبروح أكثر فلوبيرية ــ نسبة الى فلوبير ــ قائلا (انك تبدو في صالحهم ، وتلقنهم فهمك للصح والخطأ من مسافة قريبة جدا) .

كما أن معظم رسائله عن الكتابة قد اهتمت بموضوعات مباشرة جدا ، مثل معاملات مع الناشرين ، اضطراباته المادية من جراء ذلك ، معركته في سبيل الوصول الى خط النهاية ، محاولاته وجهوده كي يكون معروفا بدون سمعة تجارية . وهذا النوع من المعاناة ، والضغوط التي يولدها ، يبدو احيانا غير محتمل ، كتب الى مدير اعماله ج.ب. بنكر (سوف تتودني هذه الحياة الى الجنون) . ولقد كان الجنون حقيقة في الجو العام الذي قدم له كونراد في تلك الفترة من حياته

اخيرا . يكتب بعض الرسائل التي يمتدح فيها جورج جيسنغ (*) ، ردا على مديح سابق كان قد تلقاه من جيسنغ نفسه . من المفيد الاشارة الى أن الرجلين التقيا بما هما عليه من روح يائسة وكئيبة . فقد كان كونراد ، في هذا الطور من حياته ، يعيد الى الذهن الشخصيات اليائسة التي يمكن أن تقابلها في روايات جيسنغ . الفرق الوحيد أن سوداوية كونراد تبررها اعماله الادبية الخالدة . وهذا هو الشيء الذي يجعل من السوداوية الما عظيما ، ومن الالم العظيم خلاصا .

● الاسترالية كريستينا ستيد ، بعد موتها :

في عام ١٩٣٣ وقعت بين يدي الناشر اللندني بيتر دافيز مسودة روائية لامرأة استرالية شابة تعمل في بنك بباريس . كان للرواية قالب جديد مدهش ، وكان موضوعها ــ المجاعة في مدينة استرالية ــ غير اعتيادي ، وعنوانها هو (سبعة رجال فقراء من سيدني)

قابل الناشر المؤلفة كريستينا ستيد ، وعرض عليها نشر الرواية اذا قامت اولا بانتاج كتاب آخر . وقد تحدت الشابة (ستيد) الامتحان ،

وكتبت (ديكاميرون) حديثة باهرة بمعدل انجاز قصة في كل يومين (تقول ستيد : هذا لن يحدث دائما) . ولان احداث الكتاب تدور في مهرجان سالزبورغ فقد اطلقت عليه اسم (حكايات سالزبورغ) .

في السنوات الاربعين التي تلت ، قامت الكاتبة ستيد بجولة واسعة بصحبة زوجها الاقتصادي الماركسي وليام ج. بلاك متنقلة بين فنادق رخيصة في فرنسا ، اسبانيا ، انكلترا ، وامريكا . وكانت الحصيلة انتاج احدى عشرة رواية ، وربما كانت اثنتي عشرة لان الانباء تتكهن بوجود كتاب لم ينشر بعد — وهي متباينة فيما بين بعضها البعض ، بالمقدار الذي تباينت به روايتاها الاولى والثانية . وفي خاتمة المطاف عادت الشابة ستيد الى استراليا ، موطنها ، وحيدة بعمر متقدم ، حيث حازت على بعض السمعة الادبية . ومع ذلك حينما توفيت في ١٩٨٣ لم تكن معروفة بشكل جيد ، اذا استثنينا بعض معارفها من الكتاب ، والعدد القليل من الاتباع الشغوفين بها والمدمنين على قراءتها . تجنبت ستيد على امتداد حياتها عالم الحياة الادبية ، وكانت كارهة لفكرة الكتابة من اجل الكسب المادي . وقد كانت تكتب لانها حسب قولها (تستطيع) الكتابة . وتجنبت اجتماعيا الكتاب الاخرين . وبرأيها ان رجال الاعمال يعطون افكارا لقصص افضل .

وكان والدها — وهو عالم طبيعة — قد اثر بشكل ملحوظ على طريقتها في النظر للاشياء . اذ احتفظت بعينـي طفلة مستفيدة من آلاف القصص التي كان يرويها والدها — وأساسا لم تكن ستيد تسمي نفسها روائية ، وانما عاملة في مجال الطبيعة ، ومدمنة على الملاحظة بشكل متواصل .

قبل رحيلها الاخير بفترة وجيزة ، قامت دارفير اغو بنشر ستة من اجمل رواياتها ، وبعد ذلك بعام واحد فقط نشرت كتابين آخرين . وحديثا اصدرت دارفا يكنغ قصصها غير المجموعة في كتاب تحت عنوان (اوقيانوس قصصي ! القصص غير المجموعة لكريستينا ستيد) ، بعضها تم جمعها من الدوريات ، غير ان النصف تقريبا لم ير النور من قبل .

بجانب مقالات ومقطوعات اخرى ، مع وصف ممتاز لحياتها الشخصية وعملها بقلم صديقها ن. ج. جيرنغ .

في الواقع لا يمكن ان نعتبر هذا (الاوقيانوس القصصي) مقدمة لعالم هذه المرأة الغريبة . كما انه ليس متفردا وعجائبيا مثلما كانت المختارات التي نشرتها دار فيراغو . فمحتويات الكتاب الجديد ، بطبيعتها ، غير مترابطة الى حد ما . مقطوعة او اثنتان غير جيدتين ، وهما لم تعدا للنشر اصلا . مقالة ممتعة من بعض كتاباتها السياسية (كانت قد فرت وزوجها من امريكا بعد النظام المكارثي مباشرة) ، وواحدة من مفكراتها الادبية .

هذا من جانب ، ومن جانب آخر توجد قصص جديدة جميلة ومعبرة عن حياتها والمؤثرات التي تدخلت في صياغتها ، واخص بالذكر القصص الثلاثة التي تصف طفولتها في سيدني ، بالاضافة الى القصص الامريكية السبعة ، مع قصة حب ذكية ، وتحليل غير عاطفي لحكاية عاطفية . إن البرودة التي نجدها احيانا ، سرعانما تتحول الى طرافة ، وهذه تتطور الى غرابة . وفي اماكن اخرى يمكن ان نجد رعبا غامضا . وهذا المزيج وحده يجعل من ستيد فريدة من نوعها ، واذا كان لا بد من خليفة لها ، فقد تكون آنجيلا كارتر (٦) .

من ناحية اخرى في بعض القصص بذور روائية ، اما بعضها الآخر يعيد الى الاذهان موضوعات كانت اثارتها في رواياتها القديمة . وليس غريبا ان تقابل في بعض الاحيان الاشخاص القدامى الذين يعرفهم قراء ستيد جيدا من كتاباتها المبكرة . ففي (الامريكي الضائع) يبرز من جديد مدمن الافسنتين ــ شراب مسكر ــ الذي عرفناه من قبل في (جميلات وفراء) ، وهذا هو كتابها السريالي المبكر جدا الذي يتحدث عن الشياطين والبوهيميين في باريس . ولعل القصة الجديدة هي المحطة الاخيرة من حياة ذلك المدمن البائس .

في قصة اخرى لها شكل الحكايات الشعبية تستحضر الكاتبة بعض تراثها من (حكايات سالزبورغ) . ولكن قصصا اخرى تأخذ بيدنا الى

عالم جديد تماما لم نعهده في ادب ستيد من قبل ، مثل (قصص سوبيلية) .

ستيد في قصصها كلها تعطيك انطباعا ان الزمان والافعال هما سجينا البيت اينما كان مسرح الاحداث ظاهريا . حتى لو سمعت ضجيج الشارع ، او ذهبت بعيدا في الحقول الطبيعية الفسيحة ، فانك تحس احساسا منزليا دائما. ويدعم ذلك النفس الذهني الذي تكتبه.

اما الاسلوب فهو حاد ، مباشر ، ومقتصد . ويختلف عن أسلوب ادبها الروائي بكونه اقل عجائبية وابهارا ، كما انه بريء من الاستطرادات التي تجدها في بعض كتبها المبكرة .

ولكن خيوط الشبكة — في الانطباع النهائي — قد صنعتها يدا ستيد التي حاكت وباتقان كتبها الاخرى . فهي تصف ولا تقرر ، تحجم عن تاليه ابطالها كما انها لا تزدريهم ، وهم اشخاص مخلخلون ومخيفون، منافون للمنطق لا يمكن احتمالهم ولا يحتملون بعضهم البعض . حتى الاطفال منهم — وهم الشريحة التي تهيم بها ستيد بشكل واضح — قد يكونوا قساة متوحشين متزمتين شهوانيين .

وعلى الرغم من ان كفة الميزان تميل الى جانب الحديث عن الجوانب المظلمة والشريرة ، فان الخلفية — الشخوص الثانويون والاحداث الجانبية — قد نالت حظا وافرا من عواطف عظيمة مثل الحب والتألم لالم اناس آخرين .....

تتساءل الكاتبة الانكليزية (جين جاردين) : ماذا يجعل من ستيد كاتبة جيدة بهذا الشكل ؟ وتجيب قائلة : كونها اقل اهتماما بظواهر الخير والشر في الانسان من اهتمامها بحقيقة الوجود الابدي لهذا الانسان. هذا الايمان القوي هو (الطاقة التي اخرجتنا الى الوجود ، والتي تكفل استمراريتنا) .

● ستيفن سبندر يتذكر هنري مور

هزت الاوساط الفنية البريطانية حادثة وفاة هنري مور الذي يعتبر علماً من اعلام الفن الانكليزي الحديث . وقد اخترت من جملة المقالات الكثيرة التي كتبت عنه هذه المقتطفات لستيفن اسبندر المنشورة في جريدة الاوبزرفر :

سمعت كينيث كلارك يقول مرة : اذا كان على قاطني الارض ان يرسلوا الى كوكب آخر ، رجلاً يمثل انبل صفات العنصر البشري ، لن يجدوا من هو أفضل من هنري مور .

مور لا يمثل المعيار القائم ولكنه يمثل الفضيلة ، لا يمثل الانسان كما هو ، ولكن كما يجب ان يكون . عملي وفطري ، وفيه ايضاً طاقات عظيمة مثل الاختراع والتخيل . هو ابن زمانه حقاً ، غير ان جذوره ما زالت تضرب في الماضي . عاش في مكان واحد ، واستطاع ان يكون عالمياً.

عرفت هنري اول ما عرفته في منتصف الثلاثينيات . وعلى الرغم من انه لم يكن سياسياً ، فقد اهتم جداً بولادة الجمهورية الاسبانية ، واعتبرها جزءاً من الحريات الانسانية وضد الفاشية والقمع . في ذلك الحين كان هنري منكباً على انجاز بعض اعماله التي اتت قريبة من التعبير التجريدي المحض . ذات يوم قال لي ان ذلك مصدر لقلقه ، فنحته لا يفصح عن تأييده للجمهوريين ، وهذا يعني انه غير قادر على انتاج فن دعائي . ثم تدارك مضيفاً أن فنه على كل حال متمحور حول موضوعة الانسانية ، وان اعمق مشاعره سوف تتواصل مع الذين يتأملون منحوتاته .

كان ريد هو الذي اكتشف حقيقة هنري مور ، وقد اطلق عليه لقب السوريالي الحقيقي الوحيد ، وهو يعني من وراء ذلك أن مور الفنان الحي الوحيد الذي ابدع عملاً خارج اطار الرمزية ، بدون ان يعرف — عن وعي ذاتي — انه يعمل وفق مدرسة اسمها (السريالية) .

ان اعمال مور تكشف تقريبا تواصلا مستمرا ما بين أعمق وأعتم الذكريات مسحوبة من لا وعيه ، والانتاج الواعي والمدروس جدا لفنان حرفي .

وفي الوقت الذي كانت منحوتات هنري مشهورة بالثقوب التي فيها ، كان بوده لو يستطيع ان يقدم اي ايضاح لماذا صنعهم ، او لماذا لا ينتابه اي فضول حولهم .

احيانا حينما يسترجع ذكريات طفولته ، يتسم كل شيء بالوضوح .

من هذه الذكريات ذهابه مع والديه في نزهة بالاوتوبيس الى مقاطعة Yorkshire حيث توجد تلال صخرية معروفة ، ومنها ايضا الاستمتاع بتدليك الجزء الخلفي من كتف والدته المصاب بالروماتيزم (هنا يجب ان نتذكر ان الاجزاء الخلفية من تشكيلاته النحتية تبدو اكثر صقلا وصنعا) . وربما كانت اكثر هذه الذكريات أهمية تسكعه ، حينما كان ابن السابعة أو الثامنة ، مع اولاد آخرين في شوارع كاسل Castleford البلدة الغنية بمناجم الفحم الحجري ، وهي من قضاء يورك حيث عاش آل مور ، ومشاهداته في الساحة الداخلية التي تقع خلف دكان جزار ، حيث كانت الحيوانات تذبح . لقد ادمن الاولاد الصغار على مراقبة المشهد ، ولهذي ذكريات مرعبة من اولئك الجزارين اذ يتناولون سكاكين ضخمة ويغرسونها في جمجمة الثور ، ما بين العينين ، محدثين ثقبا هائلا . وثمة يدوّرون الاسفين الخشبي كي يحركوا الدماغ من موضعه .

لم يكن الشاب مور متحمسا للنحت الذي حاول الفنانون ان يحلقوا به فوق الواقع المادي للمواد الخام المستخدمة كالحجر او الخشب . وقد فضل اللمسة الصخرية للاحجار على الرخام الطري الذي شاع في عصر النهضة وما تلاه . وهذا يكفي كي نقول ان مور بجوهره نحات .

كان هنري يعيش ويعمل ، اول ما عرفته ، في هامبستيد Hampstead بجوار بن نيكولسون وباربارا هيبورث . وكانوا جميعا

متعاطفين مع بعضهم البعض ، يتقابلون في الامسيات ليناقشوا الاعمال التي أنتجت في تلك الايام .

لقد تساوت طاقة هنري الفيزيائية مع طاقته العقلية . وكان دائما منزويا بعض الشيء ، تساعده بشكل منقطع النظير ايرين رادتيزكي الزوجة الجميلة المتحفظة ، المتحلية بالشباب والوعي ، التي عقد قرانه عليها عام ١٩٢٩ . ومن ورائها بعض الاصدقاء والمؤيدون مثل هربرت ريد ، كولن اندرسون ، فيليب هنري ... وبشكل خاص مايكل سادلر الذي اشترى بعض الاعمال من معرض مور الاول عام ١٩٢٤ .

كان هنري آخر مرة رأيته فيها يفكر حول سادلر . قال : قبل ممات سادلر بايام قليلة استلم منه رسالة تقول انه منذ اشترى اعماله المبكرة وهو يحتفظ بواحدة منها على رف الموقد في منزله ، حيث تقع عليها عيناه لحظة يستيقظ في الصباح . وهذا كان قد منحه بهجة دائمة (طولها طول الحياة) .

وعلق مور على هذه الرسالة قائلا (اي روح عظيمة ترقد وراء كتابة رسالة كهذه على فراش الموت) .

● **جديد تينسي ويليامز :**

القفر شيء باطني . هذا ما يقوله تينسي ويليامز في كتابه الجديد (قصص مختارة) .

وفي حديث هجومي وعدائي جدا ظهر في زاوية (فنون وكتب) من جريدة الاوبزرفر يصف الانكليزي بول بايلي قفر تينيسي ويليامز بانه (مكان نتن ، حيث اشياء كريهة تجري بوتيرة متوقعة) . فالنساء هناك اما عذراوات او ذوات شبق نسوي ، الرجال فنانون حساسون او شهوانيون فاسدون . مدمنو العقاقير المخدرة والسكارى متواجدون ايضا ليشاركوا في مجريات الحوادث المروعة . في قفر ويليامز فقط ــ والحديث للانكليزي بايلي ــ من الممكن أن تقابل فتاة ــ مثل ميرتل ذات الصدر الضخم من قصة (مملكة الارض) ــ تستمتع بكونها منفتحة .

هذا ما تقوله للفحل المسمى (دجاجة) والذي هو ، بالمثل ، مثقل بقيود طبيعية ثقيلة .

اما في المقدمة التي يكتبها جورج فيدال للكتاب فانه يعقد مقارنة بين صديقه القديم ويليامز والكاتب العظيم مارك توين . مثل توين ، يرى ان ويليامز (له صوت ذو ايقاع سردي آسر كلية) .

ان ويليامز بدون شك يضع يده على اسرار الصنعة ، ولكن من الصعب ان تجد اي اعتبار آخر يسوغ مقارنته بكاتب ذي تراث انساني خالد . فتوين يعي ماذا يفعل حين يروي قصصا طويلة ، ووعيه هذا هو مقياس نبوغه . ولكن على ما يبدو ، ويليامز يفتقر هذا الوعي الضروري ، لذلك فهو يعطي نتائج منافية للمنطق السليم . في (شهوة والدلك الاسود) التي يصفها فيدال بانها (رائعة) ، نجد انثى رقيقة تتلقى ضربات يدي الزنجي القويتين . ويسخر ويليامز نموذجيه — لن اقول بطلي قصته — لعرض حوار سيكلوجي صامت ، يبدأ بتبادل المتعة التي يقدمها الواحد منهما الآخر ، متعة تنتهي بموت الانثى من اللذة ، ولكن هذا ليس نهاية القصة . فالرجل الاسود يأكل الجسم الذي شوه وقتل . ثم يلعق شفتيه وينطلق الى مدينة ثانية بحثا عن انثى مازوشية اخرى .

واذا كان فيدال يرى ان معيبي ويليامز هم عادة من اعداء الصعوبة الذين لا يحبون بذل جهد . فان بول بايلي ينكر ذلك قائلا : انني لا ارى سببا كي اكون من اعداء الصعوبة . ولكن كراهيتي لغالبية القصص لها اسباب جمالية بحتة . لنبدأ من الاسس الاولية . ويليامز غير قادر على ايصال اي قصة الى نهايةمرضية ، وهو يبدي ضعفا مهنيا في هذا المجال. فضجره المحض مثلا من بعض الاشياء يدفعه ، وبدون خجل ، الى قتل ابطال القصص كتعريض امراة لسيل من القطط المتوحشة تمزقها الى اجزاء صغيرة . مثل هذا يحدث كثيرا ، ويراكم رعبا مجانيا .

في خاتمة المطاف يشير جورج فيدال الى ان ويليامز ليس كاتب قصة قصيرة عظيما مثل تشيخوف . يقول : انه بدون شك ليس كذلك . ولكنه

بمثل جودة بيتر تايلور او ايودورا ويلتي او كاترين آن بورتر(٧) او سواهم من قاصي جنوبي امريكا الذين يتحدثون عن اكل اللحم البشري والاشياء المتوحشة الاخرى ، وذلك بفنية واصالة تقنعنا ان الحياة مؤلمة ، ساخرة، ومبهمة .

● قصة ولادة رواية لجراهام جرين :

اول رواية قرأتها لجراهام جرين كانت (بندقية للبيع) مترجمة الى العربية بقلم اديب بسادة جرجس . وقد عاشت شخصيات الرواية في ذهني فترة طويلة حتى قرأت رواية (اللص والكلاب) لنجيب محفوظ . وقتها كنت على ثقة تامة ان محفوظ لم يخرج على اطار (بندقية للبيع) من الناحيتين الفنية والفلسفية . وهذا ما دفعني الى اجراء مقارنة بين العملين ، انتهيت منها الى ان (لص) نجيب محفوظ ما هو الا نسخة من (القاتل المحترف) الذي قدمه جرين في روايته . وكان كلاهما ضحية القدر والمجتمع فاسد ليس لهما مكان فيه . ادركت فيما بعد ان روح نجيب وبالاخص بعد مرحلة الثلاثية (ثرثرة فوق النيل ، الشحاذ ، ميرامار ، مرايا ...) ، ولكن ذلك لا يكفي لربط الروايتين بخيط واحد .

ومع هذا بقيت في نفسي بعض الشكوك التي غذت حب الفضول لدي لملاحقة روايات جرين ، فقرأت له (الضياع) مترجمة الى العربية ، ومؤخرا (رجالنا في هافانا) بالانكليزية ، وحين صدرت روايته الاخيرة (الرجل العاشر) في مجلد انيق جنبا الى جنب مع (رجلنا في هافانا) و (الرجل الثالث) ضمن مطبوعات نادي الكتب في لندن ، لم اتمكن من مقاومة اغراء هذا الكتاب . وجدت الرواية الجديدة مؤلفة من صفحات لا تتجاوز المئة ، مملة بعض الشيء ، وانها اصلا مكتوبة في وقت مبكر جدا، ولم تر النور الا بعد سلسلة من المصادفات التي تشبه مصادفات قصص جراهام جرين ذاتها .

قصة هذه الرواية يرويها جرين في المقدمة الصغيرة التي كتبها بقلمه يقول :

في عام ١٩٤٨ حينما كنت اكتب (الرجل الثالث) كانت قصة تدعى (الرجل العاشر) قيد النسيان التام ، راقدة مثل قنبلة موقوتة في ارشيف ميترو ــ غولدوين ــ ماير في أمريكا

وفي ١٩٨٣ كتب لي شخص غريب من الولايات المتحدة . يخبرني ان احدى قصصي عنوانها (الرجل العاشر) قد عرضت حقوق طباعتها على ناشر امريكي بواسطة مؤسسة م . ج . م . ولم آخذ الامر محمل الجد . لقد ظننت انها ــ وهذا خطأ كما تبين فيما بعد ــ رؤوس اقلام كتبتها قرابة نهاية الحرب تنفيذاً لعقد مع صديقي بن جوتز ممثل م.ج.م. في لندن . ولعل رؤوس هذه الاقلام من ورقتين مطبوعتين على الآلة الكاتبة . ولذلك لم يكن في نشرها خطر ، وبالاخص ان القصة لم تؤفلم على الاطلاق

كان سبب توقيعي على العقد ، حينما اوشكت الحرب على النهاية وانهيت عملي الحكومي ، هو خشيتي على عائلتي من خطر الطبيعة المضطربة لمواردي المالية ، اذ لم اكن قبل الحرب قادرا ابدا على دعمهم من كتابة الروايات فقط . بل كنت في الواقع مدينا للناشرين حتى ١٩٣٨ ، حينما باعت (صخرة برايتون) ثمانمائة الف نسخة ، وقوت من حساباتنا المادية الى حين . ثما ظهور (القوة والمجد) فلم يحسن الوضع الا بصعوبة . انني لم أكن على ثقة بمستقبلي كروائي ، وقدرحبت في عام ١٩٤٤ بالعقد مع م.ج.م . الذي جعلني تقريبا عبدا له ، ولكنه على الاقل ضمن لنا ما يكفي للعيش سنتين من الزمن من مردود فكرة (الرجل العاشر) . ومن ثم اتت مؤخرا الاخبار المدهشة والمزعجة عن شراء السيد انطوني بلوند الكتاب كله مع سلسلة من الحقوق المتعلقة بهذه القصة الغامضة لقاء مبلغ ضخم جدا . وبالطبع كانت جعالة الكاتب من نصيب م.ج.م. غير ان الاول ، بدماثة منه ، ارسل لي نسخة مطبوعة على الآلة الكاتبة اذا كنت راغبا في مراجعتها ، وحينها ثبت أن رؤوس الاقلام ليست مجرد ورقتين ، وانما رواية قصيرة تامة من حوالي ثلاثين الف كلمة .

اما أشد ما ادهشني وأثار غضبي انني وجدت هذه القصة المنسية مقروءة جداً — في الواقع انني افضلها من عدة وجوه على الرجل الثالث وهذا يقضي على اي عذر شخصي لمعارضة نشرها حتى لو كنت امتلك المقدرة القانونية .

< ● ○ ○ ● >

هوامش :

(١) ستيفن كران Stephen Crane (١٨٧١ — ١٩٠٠) كاتب امريكي مولود في نيو جرسي . عمل كصحفي في نيويورك قبل ان ينشر اولى اعماله (ماجي : بنت الشارع ١٨٩٣) . ثم عمل كمراسل حربي في المكسيك ، كوبا ، اليونان . ثم قدم الى انكلترا حيث استقبلت رواياته بحرارة اكبر ، واقام علاقات طيبة مع ويلز وكونراد ، الذي فورنت اعماله به .

(٢) كوننغهام غراهام Cunningham Graham (١٨٥٢ — ١٩٣٦) اسمه الحقيقي روبرت بونتاين . سائس خيل وكاتب معاد للامبريالية . عمل كمصلح اجتماعي تتضمن كتبه ومقالاته المتعددة حكايات رحلات غريبة ومدهشة . من كتبه (ثلاث عشر قصة ١٩٠٠) و (نجاح ١٩٠٢) و (قصص اسكوتلاندية ١٩١٤) . كما كتب عدة مجلدات في تاريخ امريكا اللاتينية .

(٣) فورد مادوكس فورد Ford Madox Ford (١٨٧٣ — ١٩٣٩) ابن الدكتور فرانسيس هوفر الناقد الموسيقي في جريدة التايمز . أول اعماله المطبوعة كانت قصصا خيالية بعنوان (البومة البنية ١٨٩٢) . قابل كونراد عام ١٨٩٨ وتعاون معه في اعمال عديدة منها روايات مثل الورثة (١٩٠١) و رومانس (١٩٠٣) . وقد عملا معا بانسجام لسنوات عديدة يوحدهما الايمان ب (الرواية كعمل فني) . نشر عام ١٩١٥ (الجندي الطيب) وهو الكتاب الذي يعده اعظم انجازاته .

(٤) جون جالزوورثي John Galsworthy (١٨٦٧ – ١٩٣٢) تلقى تعليمه في اكسفورد لقاؤه صدفة بكونراد وزواجه فيما بعد دفعاه الى حقل الكتابة . اول اعماله القصصية (من الرياح الاربعة) التي ظهرت عام ١٨٩٧ ، اما اول رواياته (جوسلين ١٨٩٨) التي لم تطبع مرة ثانية ابدا . كتب مسرحيات بدءا من عام ١٩٠٦ واولها (الصندوق الفضي) وهي اول اصداراته المسرحية ضمن سلسلة من موضوعات اجتماعية واخلاقية . له اشعار معروفة منها (اشعار مختارة ١٩٣٤) و (فوق النهر ١٩٣٣) و (نهاية القطع ١٩٣٥) . حصل على جائزة نوبل للاداب عام ١٩٣٢

(٥) جورج روبرت جيسنغ Gerge Robert Gissing (١٨٥٧ – ١٩٠٣) تلقى تعليمه في شيشر وجامعة مانشستر . قبض عليه متلبسا في حالة سرقة ، وتم وضعه في السجن لمدة شهر . غادر الى امريكا عام ١٨٧٦ حيث امضى عاما في جولة واسعة . عاد الى لندن عام ١٨٧٧ . نشر اول رواياته (عمال في الفجر ١٨٨٠) وعمره ٢٣ عاما . روايته الشهيرة (مولود في المنفى) نشرت عام ١٨٩٢ ، ثم تبعتها المرأة الغريبة ١٨٩٣ ، لم نيران نائمة ١٨٩٥ . من اقاصيصه القصيرة (غرائب بشرية ونهايات ١٨٩٧) . ومن كتبه النقدية (تشارلز ديكنز ١٨٩٨) . يعد واحدا من الروائيين الطبيعيين بالمعنى الاوروبي .

(٦) انجيلا كارتر Angela Carter (١٩٤٠ – ؟) من ادباء بريطانيا الشباب الذين يتبنون الواقعية السحرية ذات المنشأ الامريكي اللاتيني . من اهم اعمالها الرواية المطبوعة امسيات عند السيرك ١٩٨٤ .

(٧) كاثرين آن بورتر Katherine Anne Porter (١٨٩٠ – ١٩٨٠) كاتبة قصة قصيرة وروائية ، من مجموعاتها القصصية (حصان شاحب ، فارس شاحب) ١٩٣٩ و (البرج المائل ١٩٤٤) . ومن رواياتها (سفينة من الحمقى ١٩٦٢) .

* * *